الإصدار: 49



القيم الروحية في الإسلام

د. محمد حلمي عبد الوهاب





القيمُ الروحيّة في الإسلام

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

الإصدار: 49 (يناير 2012م / صفر 1433هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

من مواليد مصر، خريج جامعة الأزهر عام ١٩٩٧، وحاصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية .

من مؤلفاته: «ولاة وأولياء السلطة والمتصوفة في إسلام العصر الوسيط»، و «المقدس والمدنس الديني والسياسي في فكر الحركات الإسلامية»، إلى جانب عشرات الدراسات ومئات المقالات ...



نهـر متعـدد ... متجــدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة – رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) – فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

يناير 2012م / صفر 1433 هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

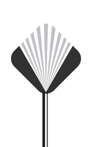
تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2011 / 369

ردمك: 978-99966-50-18-5

فهرس المحتويات

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



تصدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

من أبجديات الثقافة الإسلامية أن الإسلام جاء ليهذب نفوس الناس، وينمي أخلاقهم في اتجاه الصلاح والصفاء والتزكية، ويحلي أفعالهم بخير الصفات بما انتظمته تشريعاته من نبيل الغايات والمقاصد.

وقد استقر في عرف العديد من المسلمين، فضلا عن غيرهم، أن الشعائر التعبدية عبارة عن فروض محددة في الزمان والمكان والهيئة، يقوم المسلمون بأدائها وفق ما بينه القرآن الكريم وسيرة الرسول عليه السلام، غير أن ما يخفى على الكثير أن تلك الشعائر جاءت لتحقق مجموعة من القيم الروحية الكفيلة بأن تنعكس على نفس المسلم صفاء وتزكية، وعلى محيطه خلقا ورحمة، وتسلحه بقيم التعامل الإيجابي الذي يقيم المعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر، ويقلص من الظواهر السلبية التي يعج بها واقع الناس.

وقد سعى الأستاذ الباحث د. محمد حلمي عبد الوهاب إلى أن يفرد كتابه «القيم الروحية في الإسلام» لإنجاز سياحة في الدلالات العميقة والمعاني الروحية الجليلة لمختلف العبادات في الإسلام، وخاصة الصلاة والصيام والزكاة والحج.

وقد هدف من وراء ذلك إلى التذكير بمجموعة من القيم والصفات التي يؤدي الشعور بها والإحساس بأثرها إلى تغيير جذري في تعامل المسلم مع تلك العبادات ، وفي مختلف مناشط حياته، باعتبار أن العبادات شرعت، من بين

ما شرعت له، للخروج من حال الفوضى والاضطراب والمنكر والبغي إلى حال النظام والتوازن والبر والرحمة.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء إسهاما منها في تجديد الفهم العميق لشعائر الإسلام، وتنمية تمثل القيم الروحية الثاوية خلف تعاليمه وتوجيهاته .

وأملها في أن ينفع الله به، ويثقل به ميزان حسنات مؤلفه. إنه نعم المولى ونعم المجيب.



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

منذ الساعة الأولى لانتشار الإسلام في المجتمع، حرص على بث قيم دينية واجتماعية وأخلاقية جديدة، تجعل من الوعي بها - عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة- سبيلا إلى اعتناق الإسلام ونشره في شتى بقاع الأرض. وما أن مرت حقبة قليلة من الزمن؛ حتى أصبح «الأعراب» حاملين لهذه القيم التي أحدثت ثورة دينية واجتماعية كبرى، ليس فقط في محيط الجزيرة العربية فحسب، وإنما في كل منطقة طالها نور الإسلام وقُدر لتعاليمه السمحة أن تصل إليها وتؤثر في ساكنيها.

وقد ظلت منظومة «القيم الروحية» حية في النفوس مستقرة في وجدان الناس على اختلاف أعراقهم وتنوع مشاربهم إلى أن بدأت حركة الانفتاح على العالم تمتد رويدا رويدا ، وأخذ المسلمون يفسرونها في ضوء تلك المعارف الفلسفية الجديدة التي اكتسبوها من بلاد اليونان والفرس والهند وغيرها.

وبحلول القرن الخامس الهجريّ؛ بدأ طور جديد من «الجمود والتقليد» يغلبُ على طابع «الأصالة والإبداع» الذي طبع الحضارة الإسلامية في القرون السابقة، وهو ما حذر منه أبو حامد الغزالي حين نعى على المسلمين اتباعهم لخطى التقليد مما أدى إلى انزواء «القيم الروحية» وجمودها ، ومتى جَمُدَتْ لم تعد لها صفة القيمة الجوهرية؛ لأنها تحددت مع التجميد ، ومتى مضى الناس مقلدين فقد أغلقوا عقولهم، واستناموا إلى تفكير غيرهم، وذهب عنهم الوعي بأنفسهم!

وبطبيعة الحال؛ فقد كان للعرب منظومة قيمهم الخاصة بهم، وعلى النحو الذي وصل إلينا فيما تبقى من أشعارهم، كقول عمرو بن كلثوم:

بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا
وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أخانا

فكان لابد وأن يتخذ الإسلام موقفا واضحا تجاه هذه القيم تبعا لنوعيتها: فقابل بعضها بالرفض القاطع وقضى عليها قضاء مبرما، وأقر بعضها ودعا إليه، وسما ببعضها الآخر إحياء للفطرة السليمة، وتدرجا في التشريع لتهيئة النفوس لقبول التكاليف وأخذ النفس بالأوامر وتجنب النواهي.(١)

ومن هنا؛ فإن صعوبة البحث في القيم الروحية لا تعود بالأساس إلى غموض في الموضوع أو انغلاق في نواحيه؛ وإنما لاتساعه وترامي أطرافه ورحابة مراميه، ولم لا؟ خاصة وأن البحث فيها بحث في الإسلام كله، بما أنه دين القيم الذي أمر – أول ما أمر- ودعا – أول ما دعا- إلى قيمة إنسانية وروحية عليا هي القراءة وتلقي العلم الهادف لبناء الإنسانية حاضرا ومستقبلا. فما بين هاتين الآيتين: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١) و﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًاۚ﴾ (المائدة: ٣)، وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما هي مسيرة النبوة،

١- وحين تسربت بعض رواسب من هذه القيم الجاهلية إلى نفوس بعض المسلمين فرددتها في ساعة من ساعات الضعف البشري والملاحاة العفيفة، جاهد المسلمون في تصحيحها وتقويمها بما يتناسب مع الفهم الإسلامي. فهذا تميم بن مقبل يغضب غضبا شديدا بسبب هجاء الشاعر النجاشي لقبيلته بالقول:

قبيلته لا يغـــــدرون بـذمــــة ... ولا يظلمـون النـــاس حبة خـــردل
ولا يـــردون المـــــاء إلا عشيـــة ... إذا صــــدر الـــوُرّاد عن كل منهـل
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم ... وتأكل من عـوف بن كعب بن نهشل
ومـا سمي العجـــلان إلا لقـولهـم ... خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

ويعدو تميم مستعديا الفاروق على النجاشي، فما يكون من عمر رضي الله عنه إلا أن يعلق على البيت الأول بالقول: «يا ليتني كنت من هؤلاء»، وعلى الثاني بقوله: «ذلك أصفى للماء وأقل للزحام»، وعلى الثالث بالقول: «كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه»، وعلى الرابع بقوله: «خير القوم أنفعه لأهله»! وبهذا يتضح أن اختلاف القيم الإسلامية عن نظيرتها الجاهلية إنما يرجع بالأساس إلى اختلاف مرجعيتها في الحالين معا: فالقيم الجاهلية تستند إلى دواعي العصبية والقبلية، على حين أن القيم الإسلامية تصدر عن منبع «ربانيّ» يربط القيمة الإنسانية العملية الحركية بالمعنى العلوي بحيث تكتسب القيمة سموا من جهة، ويمنحها قوة ورسوخا من جهة أخرى. انظر جابر قميحة، «المدخل إلى القيم الإسلامية»، ضمن كتاب: دراسات في الحضارة الإسلامية ، بمناسبة القرن الخامس الهجري، تقديم: حسين مؤنس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م)، ٣/١٥-١٧.

قرابة ربع قرن من الوحي الإلهي والاتصال النابض الحي بين الأرض والسماء، تكوّنَ رصيدٌ ضخمٌ من القيم الروحية أخرجت العالم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن الضعف إلى القوة، ومن الذل إلى العز.

كان «التوحيد» القيمة الأولى التي غرسها الإسلام في المجتمع ،فنما وترعرع في كنفه حتى أصبح بمثابة الرابط العضوي الذي يجمع بين المؤمنين صلة في الله، واتصالا بين الناس. ثم سرعان ما قدم الإسلام قيمة «المساواة» وذلك عبر إعلانه على رؤوس الأشهاد أنه: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح»، فكان لها أعظم أثر في انتشاره بين مختلف الشعوب والأمم.

ثم توالت قيم الإسلام على هذا النحو، فكان لابد من وجود نظام يجسدها في الواقع، وفي دنيا الناس، وكان لابد من ربطها بأحكام الإسلام التشريعية تعبدية كانت أم تنظيمية لعادات ومعاملات المسلمين فيما بين أنفسهم أو مع غيرهم من الشعوب والجماعات. وقد أجمل القرآن الكريم في نصف آية فضائل الأخلاق التي تقود البشرية إلى الصراط المستقيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾كما أجمل المساوئ التي تفسد نظام المجتمع في نصفها الثاني ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ وفي هذا البيان وتلك الموعظة زاد لكل معتبر وعظة لكل متعظ ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.(النحل: ٩٠)

وإذا كانت العقيدة الصحيحة هي التي تصل الإنسان اتصالا مكينا بخالقه وتربط ما بين عالم الشهود وعالم الغيب؛ فإن الأنماط المختلفة من العبادة تعد دليلا على سريان آثار العقيدة في النفوس والجوارح بحيث يرى المؤمن بنور الله، مستقبلا يومه بالوقوف بين يديه، سائلا إياه العون والمدد على مواجهة صعاب الحياة. وبهذا تمثل «العبادة» جزءا أساسيا من نظام الإسلام، خاصة إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أنها هي التي تجعل التصور

الإسلامي للوجود حيّا في النفوس ناقلة إياه من حيز الفكر المجرد إلى حيز التطبيق، ومن منظومة الأوامر والنواهي إلى رحابة العقل والقلب والوجدان.

أضف إلى ذلك أيضا؛ أنها الوسيلة الناجعة التي تنقل الإنسان من حال العلم والاقتناع العقلي بوجود الله، إلى مقام الإحساس والشعور بجلاله وهيمنته وعلمه سبحانه بما تخفي الصدور وبحتمية لقائه والوقوف بين يديه والعرض عليه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. (الشعراء:٨٨-٨٩)

كما أنّ العبادة في الإسلام لاتنفك تُذكّرُ المسلمَ بموقعه الحقيقي من الوجود، وبخلافته في الأرض. وآية ذلك؛ أن الله سبحانه وتعالى قد قرن في كتابه الكريم ما بين إخلاص العبادة والتمكين في الأرض، فقال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾. (النور: ٥٥) مع ملاحظة أن الوصول إلى هذا المقام (معرفة موقع الإنسان من الوجود) يقتضي – فيما يقتضي- أن يقف المرء أولا على حقيقة الشعائر وغايتها التعبدية حتى يصبح قيامه بها بمثابة النبراس الذي ينير الطريق له ولمن حوله.

وفي كل الأحوال؛ فإنّ من غير الحكمة في حق الخالق عز وجل أن يكون قد فرض علينا عبادة خالية من المعنى، فارغة من الحكمة، وهو الذي زودنا بعقول وقلوب لإدراك الغايات البعيدة وفهم الأهداف البعيدة، فقال سبحانه في حق كتابه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(الأنبياء:١٠)، وقال أيضا: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(يوسف: ٢)، و﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(آل عمران: ١١٨)، و ﴿ كَذَٰلِكَ

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (النور: ٦١)، و ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤)، و ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد:٣)...إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى الرغم من استحالة أن يكون المولى عز وجل قد سخرنا كالتروس الميكانيكية التي لا تعرف الحكمة في حركتها ودورانها؛ إلا أنّ بعضا منا لا يزال يستنكر القول بأنّ غاية العبادات في الإسلام تكمُنُ في تزكية النفس! ناهيك بمن يتهم القائلين بذلك صراحة بأنهم يعملون على هدم الإسلام، واصفين دعوتهم بـ «الخبيثة»!![1]

على حين يتذرع البعض الآخر بالتساؤل: ولماذا لم يأتنا هذا الاستنباط في كتاب اللّه نصًّا صريحًا وفي سنة رسوله، إذا كان هذا الاستنباط مفروضًا علينا كما تقولون؟! متجاهلين بذلك اعتبار أنّ اللّه سبحانه وتعالى قد وهبنا وسيلة لإدراك هذا الاستباط، وجعله حجة علينا كما تفيد بذلك الآيات السابقة، ناهيك بما ورد عنه ﷺ من تشبيهات تقرب المعنى المقصود من العبادة كقوله في أمر الصلاة: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم ... فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو اللّه بها الخطايا» (صحيح البخاري: ٥٢٨)، حيث وصفها بأنها بمثابة الطهر والغسل المعنوي مما ران على المصلين من لمم وذنوب وآثام.

وبالعودة إلى إمكانية استكشاف موقع الإنسان في الوجود عن طريق تدبر غائية العبادات، يمكننا القول: إن الإنسان يتذكر بدنه من غير مذكر

١- قارن بما يقوله الشيخ يوسف القرضاوي – على سبيل المثال- في كتابه: العبادة في الإسلام، الطبعة الرابعة والعشرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م)، تحت عنوان، هل العبادة مجرد وسيلة لتهذيب النفس؟ من أن ثمة دعوة خبيثة شريرة يروجها بعض الملحدين المستكبرين عن عبادة اللّه، فتجد هؤلاء يستغلون ما جاء به الدين نفسه من رد العبادة السطحية المرائية التي لا تنفذ إلى القلب، ولا تزكي النفس، ولا تنهى عن فحشاء أو منكر- يستغلون هذا ليقولوا: إن الغرض من الأديان وعقائدها وعباداتها إنما هو إصلاح النفس وتربية الضمير، واستقامة الخلق! ص ١١٥.

إذ يدفعه الجوع أو العطش إلى الطعام والشراب، وذلك في محيط أو دائرة نفسه، مثلما يتذكر زوجه وأولاده بحكم قربهم منه، وذلك في محيط عائلته، ويتذكر من يشاطرونه المقام في الوطن، وذلك في محيط قومه...إلخ. وهكذا كلما ابتعد الإنسان عن محيطه القريب وعاجله وآجله وحاضره، كان أحوجَ إلى من يُذكره بدوائر انتمائه، وكلما كان وعيه للبعيد الآجل قويا، كان أقرب إلى الكمال، وأرقى روحا وعقلا.

ولذا؛ فإنّ الحلقة النهائية من الحلقات التي يتموضع فيها الإنسان، والدائرة القصوى التي تعد أهم الدوائر، هي تلك التي تحدد موقعه من الكون وخالقه: باعتباره جزءا من الكون أولا، ثم تريه موقعه هو والكون باعتبارهما وجودا عارضا بالنسبة إلى الوجود الأزلي ثانيا، «فيستقر في وجدانه أنه مخلوق لخالق، وخاضع لمخضع، ومأمور لآمر، وضعيف بالنسبة لقوي، ومفتقر لغني عن وجود ولقائم بنفسه وذاته».[1]

تتوسط العبادات في الإسلام إذن بين كلٍّ من العقيدة من جهة، والمعاملات من جهة أخرى. ومرد ذلك أنّ العقيدة الصحيحة هي أساس العبادات، كما أنّ الأخلاقيات والسلوكيات العملية لا يستقيمُ أمرها إلا بعد تمام كلٍّ من العقيدة والعبادة معا. ومن هنا تُـ ـرْزُ وسطية العبادة هذه أهميتَهَا لجهة أنها الوسيلة الأكيدة لإحداث الوعي بالشريعة وصاحبها من ناحية، وربط الدين بالدنيا من ناحية أخرى. ففيما تربِطُ العقيدةُ الإنسانَ بخالقه متجاوزا بذلك روابطه الأخرى: الشخصية القريبة، والغيرية البعيدة؛ تربطُ العبادةُ صاحبهَا برباط آخر: بحياته وواقعه، بإنسانيته وغايته، بمبدأ وجوده ومنتهى بشريته.

يتحصل مما سبق؛ أنّ المؤمن الحقيقيّ هو ذلك الذي يُدرك أنّ بلوغ أرقى مراتب الوعي الإنسانيّ مرتبط – بالدرجة الأولى– بإدراك موقعه من الكون

١– محمّد المبارك، نظام الإسلام: العقيدة والعبادة، الطبعة الرابعة، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ١٦٥.

والحياة، وأنّ جوهر العبادة في الإسلام يجيب بسهولة بالغة عن الأسئلة الثلاثة التي حيرت الإنسانية ردحا طويلا من الزمان، ألا وهي: من أين؟، وإلى أين؟، ولماذا؟ حيث عبرت الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات: ٥٦) عن الغاية الكبرى التي انتدب الله سبحانه الإنسانَ لأجلها، بعد أن عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها وأشفقن منها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.(الأحزاب: ٧٢)

ومما يدل على كون العبادة بمثابة تجديد للعهد مع المولى عز وجل، ما ورد من تأكيد على ضرورة توافر النية لكل عمل تعبديٍّ حتى يكون العبد المؤمن يقظا لكل ما يأتي من تعبد يناجي به ربه من عهود ومواثيق. فبالنية الصادقة «تتجمعُ العزائمُ مع العقائد حتى يصبحا شيئا واحدًا، فلا يكونُ للغفلةِ سبيلٌ ولا سلطانٌ على صاحب النية الصادقة، والوعي الحاضر والعزم المتين»[١] وبذلك نفهم معنى الاستثناء الإلهيّ في قول إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. (الحجر:٣٩-٤٣)

واتساقا مع جميع ما تقدم؛ سنحاول في كتابنا هذا إلقاء الضوء على منظومة «القيم الروحية» التي تتضمنها «العبادات والشعائر الدينية» على أمل أن تنجز مستقبلا دراسات مماثلة حول القيم الروحية للمعاملات الإنسانية .

والله الموفق لما فيه الرشاد.

١- السيد صالح أبو بكر، تأملات مسلم في جوهر العبادات في الإسلام، رقم ٣٩٢ من سلسلة المكتبة الثقافية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥)، ص ١٠.



الفصل الأوّل

الدين مصدر القيم الروحيّة والأخلاقية

ليس من قبيل المبالغة القول: إن الدّين، أي دين، هو في جوهره عبارة عن نسق قيمي في الأساس. فمن المعلوم أنّ التدين كقيمة له أثر عظيم في المجتمع بوجه عام، لأنه يعمل على توحيد أفراد الأمة والأخذ بهم إلى حياة روحية سامية، مع ما تقتضيه هذه الحياة الروحية من نبل وتضحية وإيثار.

ويكفي للتدليل على ذلك، أنّ المنظومة العقائدية المتعلقة بكل من: «الثواب»، و «العقاب»، و «الآخرة» - والتي تعدُ بمثابة جوهر الالتزام الديني- يمكن النظر إليها بوصفها البنية الأساسية التي تتضمن المسوغات والمبررات الإنسانية للتدين وفق نسق عملي؛ فضلاً عن أنّ جهاز «الشريعة» الفعال الذي ينفرد به الإسلام هو في جوهره عبارة عن استراتيجية لتنفيذ منظومة هذا النسق القيمي.

ومن المعلوم أيضا أنّ الدين عادة ما يشتمل على جانبين رئيسيين: أولهما مجموعة الاعتقادات التي تشكل أصوله، وثانيهما مجموعة الشعائر التي تمثل رسومه. وكلا الجانبين لا ينفصل في الواقع عن الآخر؛ فالشعائر والعبادات مجرد أوضاع يُقصد بها التقرب إلى الله تعالى الذي لا يقبل عبادة نؤديها إلا إذا ألحقنا الأداء لصورتها بالتطبيق العملي لعهودها ومقتضياتها، بيننا وبينه أولا، ثم بيننا وبين الناس فيما يصلنا بهم وفيما يفصلنا عنهم. وبذلك تكتسب العبادات معنى جديدا يتضمن تجديد العهد مع الله سبحانه وتعالى، بحيث تكون وقفات وأوضاع التعبد كلها — ركوعا وسجودا وتسليما وطوافا وإفاضة...إلخ- بمثابة المناسك التي تقوم مقام العهود التي يأخذها العبد على نفسه تجاه ربه، وتجاه الناس أيضا.

ونتيجة لذلك؛ تصبح تلك العهود واجبة التنفيذ في سلوك العبد كله بمجرد الفراغ من أدائها «وبذلك يتقلبُ المؤمنُ بين تجديد المعاهدات وتطبيقها، ويكون موصولا طوال حياته بربه الذي خلقه لعبادته، ... (وبهذا تصبح) العبادة التي كلفنا الله بها، وخلقنا من أجلها وهو غنيٌ عنها، كالشجرة

المثمرة لا تُقدَّرُ قيمتها إلا بقدر ما تثمر وينتفع الناس بثمارها»[1] ولعل ذلك هو ما قصده الإمام محمد عبده حين أكد على أن الدين لا يخرج معناه عن «إذعان النفس لإلهها مع الخضوع له وامتثال أوامره فيما يطلب منها».[2] فالإسلام مبنيٌّ على أصلين رئيسين هما: أن لا نعبد إلا الله، وأن نعبده بما شرع سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. (الكهف: ١١٠)

ولهذا كانت أصول الإسلام المتفرعة عن هذين الأصلين العظيمين تدور – بحسب البعض- على أحاديث ثلاثة:

أولها: قول النبي ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».[3]

ثانيها: قوله ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد».[4]

ثالثها: قوله ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بين، وبينهما مشبَّهَات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبَّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى،

١- السيد صالح، تأملات مسلم، ٤.

٢- محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم محمد عمارة، ، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشروق ومكتبة الإسكندرية، ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦م)، الجزء الخامس، « في تفسير القرآن»، ص ٤٨٥.

٣- البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسنته وأيامه، تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الأولى، (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ)، ص١.

٤- وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، وفي الصحيح وغيره أيضا يقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ مَن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء؛ وهو كله للذي أشرك». قارن بـ ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٥م)، المجلد الأول، توحيد الألوهية، ص ٣٣٤.

ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحَت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».[1]

أولا: الدين باعتباره نسقا قيميا

مما لاشك فيه أنّ النظر إلى الدين – من حيث هو قيمة ملزمة– لا يستطيع أحد أن يماري فيها، وحتى المناهجة الذين ينكرون العقائد الأخلاقية فإنهم – على الرغم من ذلك– لا ينكرون قوة الدين هذه. وكذلك البراغماتية التي تفاعلت تاريخيا في طرح ثري مع القوة الإلزامية والفعلية والقيمية التي يمتكلها الدين، وأفسحت المجال له في الحياة الواقعية.ويمكننا من خلال هذه الزاوية النظر إلى الوظيفة الدينية في ثلاثة عناصر رئيسية تصب جميعا في المنبع القيمي؛ ألا وهي:

(١) الالتزام القيمي.
(٢) الإشباع النفسي والتوازن السيكولوجي.
(٣) قدرة الدين على تشكيل قوة تماسك فكري وثقافي.

والمقصود بالفكري هنا: شبكة القيم والأفكار والمصالح والأهداف والمعايير التي تمثل جمعية الجماعة ، أي تجعل الناس أكثر من عدد الأفراد[2]

١- رواه البخاري في صحيحه (٥٢/كتاب الإيمان)، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩/المساقاة)، من حديث النعمان بن بشير، رضي الله عنه. قال بعض الشراح في هذا الحديث إنه يمثل ثلث الإسلام، وقال فيه الحافظ بن حجر: «هذا الحديث حديث عظيم، وهو أحد الأحاديث التي مدار الدين عليها، وقد قيل: إنه ثلث العلم أو ربعه». ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، الطبعة الثالثة، (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٤٠٧هـ)، ١١٦/١. وانظر بـ محمود علي قراعة، الأخلاق في الإسلام من أحاديث الرسول ومن فتاوى ابن تيمية، الحلقة ١٨ من سلسلة الروح الجامعية، (القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٦٤م)، ص ٩.

٢- يمنى طريف الخولي، القيم والدين في القرن القادم، ضمن كتاب، الفكر الديني ومستقبل القيم على مشارف القرن القادم، أعمال الندوة التي نظمها منتدى حوار الحضارات بالهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية يوم ١٩ مايو ١٩٩٩، تحرير القس/ أندرية زكي، دار الثقافة، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص١٣.

فعلى الرغم من تعدد التعاريف المتعلقة بلفظة «دين»، إلا أنها تتفق جميعا على أهمية عامل التدين في الحياة العامة ودوره في صياغتها؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين ينكرون أمره بالكلية! والدين بهذا المعنى لا ينحصر في «التوجه نحو اللامشروط» بحسب تعبير بول تيليش [1]؛ وإنما يمثل المُحصلة الكلية للأفعال الروحانية الموجَهَةِ نحو الاستحواذ على ذلك الكُنه المُطلق للمَعنى -على حد تعبير الفلاسفة - خاصة إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أنّ الديّن «لا يعني فقط مجموعة من التمثلات والمعتقدات والممارسات الطقوسية والثقافية، وإنما هو أيضا (عبارة عن) مؤسَسة اجتماعية، فضلا عن أنه تنظيمٌ ماديّ (وروحاني) لمجموعة بشرية...».[2]

يترتب على ما سبق مجموعة من الأمـور المهمة، في مقدمتها أمـران رئيسان:

أولهما: أن الدّين - من حيث كونه معبرا عن نسق من المعتقدات الفكرية- يمتلك قوة قيمية بحد ذاته! ولعل ذلك هو ما يفسر سبب نجاحه في - وقدرته على- التوحيد الفكري للجماعات المؤمنة به، وذلك عن طريق إرضاء حاجاتهم النفسية، والشعور بالتماسك والمصير المشترك.

ثانيهما: أنه تبعا لذلك يمكننا فهم أسباب تلك القدرة الفائقة للأديان على «التعبئة الروحية» وتحفيز المجتمعات المتباينة على الانخراط في منظوماتها القيمية التي يتوجب على تلك المجتمعات أن تتوجه بمقتضاها في أخلاقها وسلوكياتها العملية.

ففي القرآن الكريم نلاحظ - على سبيل المثال- أن ثمة تأكيدا واسعا على مركزية عمق الوازع الإيمانيّ وأصالته في النفس الإنسانية، وتقريرا بأنّ هذا

١- بول تيليش، الدين.. ما هو؟، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة دار الكلمة، ٢٠٠٤م)، ص٧٥.

2- Michele Bertrand, Le Statut de la Religion chez Marx et Engels, Editions Socials, 1979, p.31.

الإيمان مُصاحب لها منذ بداية خلقها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾. (الأعراف: ١٧٢) وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ﴾ (الرعد:٢٠) أي لا ينقضون ميثاق الأزل، الميثاق الأول، وقت أن قالوا: «بلى»، إنه لا رب لهم غيره، فلا يخافون غيره، ولا يرجون سواه، ولا يسكنون إلا إليه.

ولاشك أنّ الإيمان باللّه سبحانه وتعالى - مع ما يقتضيه ذلك الإيمان من مراعاة للحقوق والواجبات-، يعد من أفضل الطرق لتهذيب النفس البشرية وتنقيتها من أدرانها، وذلك عن طريق تصفية ملك الجوارح (القلب) الذي إذا ما تزكى تبعته الأعضاءُ كافة (عَسْكَرُهُ المُطيعُ لأوامره ونواهيه). ولاشك أيضا أن رأس الأمر كله في تزكية النفس الإنسانية هو الإيمان باللّه، ومن أجل ذلك كان من رحمة اللّه عز وجل بالخلق أن بعث فيهم أنبياء ورسلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. (الجمعة: ٢)

وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية الكريمة يجد سندا له في كتب الأولين، فعن عبد اللّه بن عمرو أنّ رسول اللّه ﷺ صفته في التوراة: «إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين. أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ... ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا بأن يقولوا: لا إله إلا اللّه».(متفق عليه)

لقد جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق ويعممها على الفرد والمجتمع، حاكما أو محكوما. وفيما كان أرسطو ينكر علم اللّه بالعالم، كان فكره متجها إلى عالم الطبيعة، ولم يكن يتصور أن ثمة عالما أشرف وأكبر وأشد

وطئا وأقوم نظاما، هو عالم الحياة والشعور والروح. لم يكن يدري أن أكبر وأصقل مرآة ترى فيها آثار الخالق هو قلب الإنسان، لا الماء والتراب، ولا المريخ أو زحل. وحتى عندما كان يدرس ويكتب في الأخلاق، كان يفكر في أن يضع ضوابط وقوائم للمجاملات عند الملوك والطبقة الأرستقراطية، ولم يكن يستشعر بأنه يتعرض في طريقه إلى علم ما وراء الطبيعة، أو إلى علم النفس كما فعل فلاسفة الإسلام فيما بعد.

لم يدرك أرسطو - رغم علو قامته- أن علم الأخلاق وفلسفته، بخلاف العلوم الطبيعية، لا يمكن أن يتم أو يتحقق إلا عن طريق الإيمان بالله وبصفاته، وبخلود النفس، وبالدار الآخرة، وبأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وذلك بحكم أنه كان في الواقع يدين بدينين:

أحدهما: يوناني وثني أساطيري يتخيل له ولقومه أن الآلهة تتمثل في أبكر وأكمل فرد للنوع، فكانوا ينسبون إليها الغرائز والنقمة والحسد...إلخ.

ثانيهما: دين فلسفي يعتقد بالإله كاعتقاده بالأنواع والأجناس، أي جنسا فوق الأجناس. وإذا كان كذلك فلا حق له في أن يكون مظهر حب أو مبدأ نظام أو ناموس.

وهكذا كان الإله فوق قمة الجبل ينازع الناس في حب زوجاتهم ويسلبهن من جحورهن. أما في الملأ الأعلى، أو في سماء عقيدتهم، فليس ثمة إلا سكر وعربدة وتنافس على النساء الراقصات! ولاشك أن آلهة كهذه لا يتصور لها إطلاقا أن تكون مصادر لمبادئ ومثلا للأخلاق وللحقوق والواجبات. ولهذا نرى أرسطو في كتابه «علم الأخلاق النيقوماخية» لا يشير إليها، ولا يتكئ عليها بحال من الأحوال.[١]

١-صلاح الدين السلجوقي، أثر الإمام الغزالي في الأخلاق، ضمن كتاب: أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، (دمشق: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م)، ص٧٢-٧٣.

أما بمجيء الإسلام؛ فقد ارتفع مقام الغيب والماورائيات عن جبل أوليمبس، وعن آلهة ذات غرائز جامحة، إلى حظيرة مقدسة كان سورها: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. (النور: ٣٥) وقفلها: سورة الإخلاص، لكنها من جهة القلب أقرب إلينا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد.

ليس غريبا إذن، والحال هذه، أن يعتبر الإسلام «النفس» أو «القلب» محور الشخصية الإيمانية؛ والتي إذا صَلُحَتْ وطهُرَتْ كانت مكينة قوية، وإذا فسدَتْ أو خبُثَتْ ضعفت وانحرفت عن جادة الصواب. وفي ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٧- ١٠) ويقول ﷺ: «ألا إنّ في الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد القلب كله، ألا وهي القلب». إذ لا حياة للقلب إلا بفراغه من حبّ الدنيا وموت النفس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:)، «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال».(١)

وحب الحصيد؛ إن غاية الأخلاق عند متمم مكارم الأخلاق تعد من أكمل وأتم ما يكون، لأن كل مفهوم إذا كنا نقابله من جانب العمل يسمى فنا، وحينما توضع القوانين وتُستنبط الكليات من الجزئيات يسمى علما، وإذا تُقاس الأمور من المبادئ والمثل الميتافيزيقية وتُعامَل مع القدم والوجوب واللامتناهي تسمى فلسفة. ومنظومة الأخلاق المحمدية تتضمن الأنواع الثلاثة بل وتجد ممثلا لها في الواقع.

وبيان ذلك: أن أمة الإسلام لا تخلو من طبقة عامية لا تعرف إلا فن

١- تمام الحديث بحسب رواية أبي هريرة: «والذي نفسي بيده لا يدخل عبد الجنة إلا بعمل يتقنه. قالوا: يا رسول الله، ما يتقنه؟ قال: يحكمه». انظر ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ)، ٥٤٨/٧. وانظر أيضا بـ ابن القيسراني، ذخيرة الحفاظ المخرج على الحروف والألفاظ، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار السلف، ١٤١٦هـ)، ٢٠٢١/٤.

الأخـلاق، ومن طبقة عالمة تستنبط الكليات من الجزئيات، والنتائج من المقدمات، ومن جماعة عارفة راسخة تفهم حقائق الأشياء.[1] ومن ثم؛ ينبغي أن تحوز المدرسة المتممة للأخلاق:

١) كل مظاهر المفهوم الخلقي – فن الأخلاق-، كما في هذه الآيات البينات: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(لقمان: ١٨)، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(الإسراء: ٢٣)، ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾(لقمان: ١٩) وأمثالها.

٢) وعلم الأخـلاق، كما في هـذه الدساتير المقدسة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(هود: ٤١١)، و «الإثـم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه النـاس».

٣) وفلسفة الأخلاق، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾. (الإنسان: ٩)

وتبعا لذلك؛ تمتاز منظومة الأخلاق في الإسلام بأنّ لها ثلاثة أبعاد:

أولها: البعد النفسي، يعني الفرد مع نفسه ومشاعره ومع ربه، وهو المتعلق بصلاته ونسكه.

ثانيها: البعد الاجتماعي، وهو الذي يتعلق بالمجتمع والحكومة ومعاملة الآخرين.

ثالثها: البعد الغيبي، وهو الذي يتعلق بإطار العقيدة والمبادئ والمثل والمعارف.

أضف إلى ذلك أيضا؛ أنها ليست محصورة بالأوساط وبقائمة من الفضائل الفردية، بل هي عبارة عن مجموعة من الفضائل العقلية

١- السلجوقي، أثر الإمام الغزالي، ٧٧.

والعملية، الفردية والاجتماعية، إلى جانب أنماط من العقائد والعبادات والمعاملات.

وبحسب ابن تيمية؛ فإنّ القلب لن يستغني عن جميع المخلوقات «إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ... فكلما قوي إخلاص دينه لله.. كمُلتْ عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك».[١] ولذلك كان أحد المشايخ ينصح أتباعه بالقول: «كونوا –يرحمكم الله– على ما يُميتُ نفوسَكم ويُحيي قلوبَكم، فأصلُ المَحاسن – من حيث هي هي– من فراغ القلب من حُبِّ الدُنيا، كما أنّ أصل القبائح – من حيث هي هي– عمارتُهُ لحبها».[٢]

وعلى ذلك؛ فخطورة القلب تكمُنُ في كونه مصدرًا للخواطر، أي ما يَعْرض فيه من الأفكار والأذكار، والتي تكون على ضربين:

١) ضربٌ يدعو إلى الشر، وهي ما يضرُ بضرر لا ينتج خيرا أقوى منه.
٢) وضربٌ يدعو إلى الخير، بحيث لا ينتج ضررا لاخير فيه أزيد من ضرره.

فالخاطر المحمود الداعي إلى الخير يُسمى «إلهاما»، والذي يدعو إلى الشر بوساطة الشيطان يسمى «وسوسة». وكذلك «اللطف» الذي يتهيأ به القلبُ لقبول الإلهام يُسمى «توفيقا»، والذي يتهيأ لوسوسة الشيطان يُسمى «خذلانا». وفيما يُيَسِرُ الأولُ إفاضَة الخيرات، لاينتجُ عن الثاني سوى الشر والأمر بالفحشاء والتخويف عن الهمّ بالخير بالفقر، وهو ما نجد سندا له في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ

١- ابن تيمية، مجموع فتاوى، ١/١٩٨.

٢- العربي الدرقاوي، مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي الحسني، تحقيق: بسام محمد بارود، رقم ١ من سلسلة رسائل مغربية، (أبو ظبي: إصدارات المجمع الثقافي، ١٩٩٩م)، ص ٨٠.

يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾. (البقرة: ٢٦٨)

ومن ثم؛ فإنّ إشكالية القلب إنما تكمن في كونه متجاذبا بينهما على الدوام، ومن هنا كانت المصيبة فيه أخطر من المصيبة في البدن، لأنه موضع الذكر والإيمان، وهو ما عبّر عنه ابن عطاء اللّه الحنبليّ في تفسيره لقول اللّه عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢)، بالقول: «أوَمَن كان ميتّا بحياة نفسه وموت قلبه، فأحييناه بإماتة نفسه وحياة قلبه، وسهلنا عليه سُبُلَ التوفيق، وكحلناه بأنوار القرب».[1]

أما ابن عطاء اللّه السكندريّ؛ فقد نحى في كتابه «لطائف المنن» إلى تأكيد: «أنّ أولياء اللّه تعالى حكمهم في بداياتهم أن تُسلط الخلق عليهم ليطّهَروا من البقايا، وتتكمُل فيهم المزايا، وكيلا يساكنوا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومَن آذاك فقد أعتقكَ بأذاه من رقّ إحْسَانه، ومَن أحسَن إليك فقد استرقكَ بجود امتنانه».[2] وينقل عن الشيخ أبي الحسن نصحَهُ أتباعه بالهرب من خير الناس أكثر مما يهربون من شرهم، وحجته في ذلك: «أنّ خيرهم يُصيبُك في قلبك، وشرهم يُصيبُك في بدنك،

١- الآدمي، تفسير أبي العباس، تحقيق بولس نويا اليسوعي، رقم ٧ من سلسلة "بحوث ودراسات"، (بيروت: معهد الآداب الشرقية، ١٩٨٦م)،ص: ٥٠. وقيل: كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم. وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يُحيي بالعلم ميتا ... فليس له حتى النشور نشور

والنور: عبارة عن الهدى والإيمان. وقال الحسن: القرآن. وقيل: الحكمة. وقيل: هو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ (الحديد: ١٢)، وقوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾. (الحديد: ١٣)

٢- ابن عطاء اللّه السكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن، تحقيق: عبد الحليم محمود، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤١١هـ- ١٩٩١م)، ص ٢٠٠.

ولأنْ تُصابَ في بدنكَ خيرٌ لك من أن تُصَاب في قلبك، ولعدُّوٌ تَصِلُ به إلى اللّه خيرٌ لك من حبيب يقطعُكَ عنه». [1]

نخلص مما سبق إلى أن «القيم الروحية في الإسلام» ترجع إلى عدة أصول عقدية في مقدمتها: «الإيمان باللّه وبالآخرة». فمن المعلوم أنّ الالتزام بقيمة الإيمان بالذات يحتاج إلى قوة روحية دافعة يشعُرُ بها الإنسانُ في طواياه، تُحرضهُ على فعل الخير وتحذره من فعل الشر «النفس اللوامة»، وهي ما يتعارفُ عليها الناس في العصور الحديثة باسم «الضمير»، فيما أطلق علماؤنا قديما ألفاظا من مثل: «مراقبة اللّه» و«محاسبة النفس» [2]

فإذا علم المسلم أنّ للأعمال – بدنية كانت أو قلبية- تأثيرا في التوفيق والخذلان، وتأثيرا في الإلهام وقبوله، والوسوسة وقبولها، أدركَ من فوره أهمية الاشتغال بمحاسبة النفس وتفهم آثار الأعمال. وبديهيٌ أنّ العبد إذا ما واظب قلبَهُ وراقبَ ربَهُ، أنْ يصل إلى مرحلة يسّتشعر فيها أثرَ تلك المراقبة في قلبِه وبدنِه وعمله، خاصة وأنّ الغاية الكبرى من فرائض الإسلام إنما تكمُنُ في «تحقيق العبودية للّه، وحفظ الإنسان ورعايته والعناية به، وحفظ عقيدته، وتزكية قلبه، وتطهير روحه وعقله، وحفظ ماله وعرضه، وتقوية الروابط الإنسانية، وإقامتها على أساس متين من الحب والرحمة والأخوة والمساواة والعدل». [3]

١- المصدر السابق، ص ٢٠١.

٢- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) يقول ابن عطاء اللّه الأدمي: أي ما أبرئ نفسي بنفسي، إنما أبرئ نفسي بربي. فالنفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، والنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة. فمن أعرض عن الجهود (المجاهدة)، فقد أطلق عنان النفس وغفل من الرعاية، ومهما أعانها فهو شريكها في مرادها، لذلك قال الجنيد: مَن أعانَ نفسه على هواها، فقد أشرك في قتل نفسه؛ لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب. تفسير أبي العباس ابن عطاء،٦٣.

٣-محمد عبد اللّه الخطيب، العبادة في الإسلام، جوهرها وآفاقها، رقم ٧ من سلسلة نحو النور، (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٨٩م)، ص ٧.

والـواقـع أنّ استشعار الرقابة الإلهية وتمثلها في الضمير الإنسانيّ تبدو أكثر ما تبدو في عبادة الصوم. ذلك أنّ تجربة الصوم – على وجه الخصوص- تجعل من مراقبة اللّه – عز وجل- حاضرة على الدوام في ظل غياب البشر، وهنالك يمتنع الصائم – مهما اشتد به الجوع أو العطش- عن أن يَمُدَ يدَهُ إلى طعام أو شراب يسُدُ به رمقه، أو يُطفئ به ظمأه – لا خوفا أو حياءً من رقيب- ولكن خضوعا لرقابة المولى القدير الذي: «يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ» (غافر: ١٩)، و ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ (الأعلى:٧)، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (إبراهيم: ٣٨)، أي «عالمًا بما تُضْمرهُ في سِرّكَ وما تُخْفيه من خواطرك، فراقبْ مَنْ هو الرقيب عليك (في سرّك وجهرك على السواء)».(١) ولهذا ورد في الحديث الشريف: «الصيّامُ لا رياءَ فيه. قال اللّه تعالى: هو لي وأنا أجْزي به، يَدَعُ طعامَهُ وشرابَهُ من أجلي».(٢)

ولاشك أنّ الإنسان لا يستطيع أن يصوم أمام الناس ثم يفطر في خلوته، إلا إذا انخلعَ عن إيمانه برقابة اللّه عليه وخوفه منه، وعند ذلك يكون ممن أدخلوا أنفسهم في دائرة العذاب. أما العبد الذي تعوَّد رقابة اللّه في السرّ والعلن؛ فإنه يصبح من المؤمنين إيمانا عمليا بأنّ اللّه سبحانه وتعالى يعلم ما في الصدور، وأنه أراد من صيامه هذا أن يتعوّدَ على طاعة أمره، وعلى ترك محارمه مدى الحياة: فحرّمَ عليه الطيبات في نهار رمضان، ليكون أشدَّ امتناعا وبعدًا عن الحرام في كل الأوقات، وحرّم عليه أن يأكل من كسْبِهِ الحلال في نهار رمضان، ليكونَ أشدَّ امتناعًا عن الأكل من الكسْب

١- تفسير أبي العباس بن عطاء، ص ٤٥.

٢- يعلق ابن حجر الهيتمي على هذا الحديث بالقول: والمراد بكونه لا رياء فيه أن ذاته التي هي الإمساك بالنية، لا يمكن الإطلاعُ عليها من حيث هي، وإنما يطلع عليها بالإخبار عنها، بأنا صائم أو نحوه. وحينئذ فالرياء إنما هو بهذا القول لا بالصيام، فظهر أن الصيام لا رياء فيه. انظر ابن حجر الهيتمي، إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام، قدّم له وعلّق حواشيه: محمود النواوي، صححه وقابل الأصول: محمد الديوي، (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة: مطبعة الفجالة الجديدة، ١٣٨٠ هـ- ١٩٦١م)، ص ٨. وانظر بـ فتح الباري، ١٢٩/٤.

الحرام في كلِّ الأوقات، وهكذا بالنسبة لكل مُفْطر حلال تدريبًا له على ترك الحرام، وعدم الاشتغال به، والبُعد عنه باستمرار.

صحيح أن استشعار الرقابة الإلهية وتمثلها في الضمير الإنساني ليس وقفا على شهر رمضان فحسب؛ ولكن شهر رمضان هو الذي يمنح التجربة ويقدم المثل الأروع على ذلك. فالعبادات الإسلامية بأجمعها، ما هي في جوهرها إلا «تكليف لضمير الإنسان وحده، لا يتوقفُ على توسيط هيْكل أو تقريب كهانة. (بل المسلم) يُصلي حيث أدركه موعدُ الصلاة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥)، ويصومُ ويفطرُ في داره أو في مَوْطن عمله، ويحجُّ ليذهبَ إلى بيت لا سُلطانَ فيه لأصحاب سدانة، ولا حق عندهُ لأحد في قربانه، غيرُ حقّ المساكين والمعوزين. ويذهبُ إلى صلاة الجماعة، فلا تتقيَدُ صلاتُهُ الجامعة بمراسم كهانة أو إتاوةِ محراب، ويؤمهُ في هذه الصلاة الجامعة مَنْ هو أهلٌ للإمامة... إنهُ الدّين الذي نتعلمُ فيه أنّ الإنسانَ مخلوقٌ مُكلف، لاجرمَ تقومُ عباداتهُ على رعايةِ حقّ الضمير واستقلالهِ بمشيئتهِ أكرم رعاية».[١]

ومن هنا؛ يتعين على المسلم أن يؤمن تمام الإيمان ويوقن تمام اليقين بأنه خاضع على الدوام لرقابة عليا لا تخفى عليها خافية، وأن يستشعر هذه الرقابة في ضميره، فيقيم منها رقيبا على نفسه إذا ما اختلى بها مبتعدا عن الناس، ممتنعا عن إتيان أمور هي قوامُ حياته، متخذا من ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى. وفي كل الأحوال؛ فإن بإمكان الإنسان أن يصبح رقيبا على نفسه، أمينا على حدود الله، محافظا على حقوق المجتمع، من دون أن يخضع في ذلك لسطوة القانون وعينه الساهرة. خاصة وأن القانون بمواده ونصوصه – مهما تكن سلامتها وسمو مبادئها–

١- عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٥٧م)، ص ١١٢- ١١٣.

لا يكفل تحقيق الرقابة الذاتية على النحو الذي يوفره أنموذج «المراقبة والمحاسبة».

صحيح أنّ ثمة أجهزة للرقابة وتنفيذ القانون، «ولكن هذه الأجهزة نفسها لابد لها وهي تقوم على تنفيذ القانون من رقابة الضمير، وإلا اختلّ في يدها الميزانُ (على ماهو شائع ومشاهَد!) وتحوّل القانون إلى أداة تميلُ بها الأهواءُ حيث تشاء. وكذلك أفراد المجتمع ليسوا دائما وفي جميع الحالات تحت أعين أجهزة الرقابة أو في متناول قبضة القانون... ولهذا كانت رقابة الضمير هي السند لسلطان القانون على الناس، والضمان الأكيد لاتباع أوامره واجتناب نواهيه».[1]

الدّين بهذا المعنى يهَبُ الإنسانَ كرامتهُ الموفورة حين يُوقظُ فيه ضميرَه، بل ويجعلهُ حكمًا فيما يعرضُ له من أمور الناس. ومن هنا نستطيع أن نفهم حديث رسول الله (ﷺ): «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك»[2] وقوله: «البر

١- محمد كامل حته، القيم الدينية والمجتمع، رقم ٣٨٦ من سلسلة إقرأ، (القاهرة: دار المعارف، يوليو ١٩٧٤م)، ص ٩٤. هذا ويسوق المؤلف مثالا على الرقابة الذاتية بالمرأة التي أتت إلى رسول الله، ﷺ، تخبره بأنها حملت سفاحا فإذا به يردها ثلاث مرات فيمهلها حتى تضع حملها، وتفطم رضيعها، ولما أقام عليها حد الزنا فلتت من خالد بن الوليد كلمة نهره على قولها حيث قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله، أتصلي على امرأة زانية؟ فغضب الرسول، وقال: مهلا يا خالد! وأخذ يثني عليها مؤكدا أنها تابت من ذنبها توبة لو وزّعتّ على أهل الأرض لوسعتهم جميعا! لماذا؟ لأنه كان بإمكانها ألا تفضح نفسها، ومع ذلك أتت إلى النبي راغبة في التطهر من ذنبها في الدنيا، خشية عذاب الآخرة!

٢- رواه أحمد في مسنده، والبخاري في تاريخه، والدارمي في سننه، وحسنه النووي في رياض الصالحين بلفظ: «استفت نفسك وإن أفتاك المفتون». وعند أبي نعيم في حلية الأولياء عن وابصة بن معبد قال: أتيت النبي ﷺ وأنا أريد لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه، فجعلت أتخطى فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله، فقلت: دعوني أدنو منه فإنه من أحب الناس إليّ أن أدنو منه، فقال: ادن يا وابصة، فدنوت حتى مست ركبتي ركبته، فقال: يا وابصة! أخبرك عن ما جئت تسألني عنه؟ فقلت: أخبرني يا رسول الله! قال: جئت تسألني عن البر والإثم، قلت: نعم، قال: فجمع أصابعه فجعل ينكت بها في صدري ويقول: يا وابصة! استفت قلبك، استفت نفسك، البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك». أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ)، ٢٧٥/٦.

ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في الصدر وكرهْتَ أن يطّلعَ عليه الناس».[1] خاصة إذا علمنا أنّ المراد من حقيقة الشريعة في الإسلام هو إقامة العبودية على الوجه المراد والمطلوب إخلاصا واتباعا.. ومصداقُ ذلك نجده في قوله ﷺ لحارثة: «كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ مؤمنا حقا. قال: لكلّ حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: يا رسول اللّه، عزفت نفسي عن الدنيا فأسْهَرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري وكأنّي أنظرُ إلى عرْش ربي بارزًا، وإلى أهل الجنة يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون. فقال عليه السلام: عرفت فالزم».[2]

فحقيقة الشريعةُ يجمعها كلمتان في قوله تعالى: «إيّـاك نعبد وإيّـاك نستعين» ولذلك روي عنه (ﷺ) أنه قال: «العلم علمان: علم باللسان، وعلم بالقلب؛ فأما علم اللسان فهو حجة اللّه للعباد، وأما علم القلب فهو العلم الأعلى»[3] الذي لا يُخشى اللّه إلا من خلاله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾. (فاطر: ٢٨)

يقول صاحب الظلال في تفسير «إياك نعبد وإياك نستعين» ما نصه: «وهذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة. فلا عبادة إلا للّه، ولا استعانة إلا باللّه. وهنا كذلك مفرق طريق: مفرق طريق بين التحرر المطلق من كلّ عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد!

١- رواه أحمد عن وابصة بسند حسن، ومسلم والترمذي عن النواس بن سمعان، والبخاري في الأدب المفرد.

٢- ابن حبان، المجروحين من المحدثين، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، الطبعة الأولى، (الرياض: دار الصميعي، ١٤٢٠هـ)، ١٦٤/١. وأيضا محمد بن محمد الغزي، إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن، الطبعة الأولى، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ)، ٣٥٥/١.

٣- رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن، وابن عبد البر في كتاب العلم عن الحسن مرسلا بإسناد صحيح، ورواه عن أنس الديلمي في مسند الفردوس، والبيهقي عن الفضيل بن عياض من قوله غير مرفوع.

وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشريّ الكامل الشامل. التحرر من عبودية الأوهام، والتحرر من عبودية النُظم (الاستبدادية)، والتحرر من عبودية الأوضاع. وإذا كان اللّه وحده هو الذي يُعبد، واللّه وحده هو الذي يُستعان، فقد تخلص الضميرُ البشريّ من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات».[1]

ومما يؤكد هذا الأمر؛ ما روي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «ضرب اللّه مثلا صراطا مستقيما وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تتفرقوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه».[2]

فالصراطُ هو الإسلام، والسوران حدود اللّه، والأبواب المفتحة محارم اللّه، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب اللّه، والداعي من جوف الصراط هو واعظ اللّه في قلب كل مؤمن. ولعله هو الواعظ ذاته الذي سماه المولى عز وجل «برهانا» في قصة يوسف عليه السلام حين قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. (يوسف: ٢٤) وهو الصراط ذاته الذي تحدثت عنه سورة الفاتحة بعد الإقرار بإفراد اللّه بالعبادة والاستعانة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. (الفاتحة: ٦-٧)

وفي ذلك يقول صاحب الظلال: «وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م)، ١/٢٤.

٢- المنذري، الترغيب والترهيب، تحقيق: محمد السيد، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الفجر للتراث، ١٤٢١هـ)، ٣/٢٤٣. وانظر ابن تيمية، جامع الرسائل، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار العطاء، ١٤٢٢هـ)، ٢/٩٧.

الواصل ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته: فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية اللّه ورعايته ورحمته، والتوجه إلى اللّه في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وَحْدَهُ المُعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يَطلبُ المؤمنُ من ربه العون فيه. فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين .. وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس اللّه الذي يُنسّقُ بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى اللّه رب العالمين».[1]

ومما له دلالة في هذا السياق؛ أن لفظة «الصراط» وردت في القرآن الكريم في خمسة وأربعين موضعا.[2] وفي أغلب هذه المواضع يرتبط لفظ «الصراط المستقيم» بالهداية كما في آيتي الفاتحة، وكما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢).

كما ترتبط لفظة «الصراط» بكلّ من العبادة وقيمة العدالة على وجه الخصوص. فمن الآيات الدالة على الأمر الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: ٥١)، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. (يس: ٦١) ومن الآيات الدالة على ارتباط الصراط بالعدالة قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: ٧٦)، وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾. (ص: ٢٢)

١- في ظلال القرآن، ج١، ص٢٧.

٢- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ص٥٠٠-٥٠١.

وفي كل الأحوال؛ فإن مما يؤسف له أشد الأسف في عصرنا هذا أنّ الوازع الديني قد ضعف في نفوس طائفة من المسلمين، لأن نور الإسلام قد انكفأ في القلوب، وانطفأ في الضمائر، إلا من رحم الله، فلم يعد الالتزام التزام الصدر الأول، الذي فتح الدنيا في عهده وأضوى العالم إلى كنفه، وإنّما أصبح خليطا عجيبا من العقيدة السالفة، والصوفية الزائفة، والأساطير الموروثة والتقاليد الدخيلة، بحيث يوهمُ معتقديه أنّ الإسلام ليس من شأنه الدّنيا، وأنّ المسلم ليس من همه المادّة، وأنّ ما هم عليه من رتق العقيدة وظلام الفكر وخدر الشعور، إنّما هو روح الدّين ورضا الله وطريقُ الجنّة! ثم لا يعدمون أن يجدوا مصداقا لما يتوهمون، في بعض ما يسّمعون أو يقرأون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصّنوعة والآراء الملفقة.

ومن ثم؛ فإننا في أمسّ حاجة اليوم إلى تجديد ديني يقوم في جوهره على «تحرير العقل من الاقتداء العاجز والمتابعة المُسلّمة، وتطهيرُ السُنة من الأحاديث المكذوبةِ والأقوال المشوبةِ، وتطويرُ الفقه في حدود ما أنزل الله وبلغ الرسولُ، ليطابقَ مقتضيات العصّر ويجابهَ مشكلات الحضارة، ثم عرض هذا الإسلام الصادق الصافي على الناس في معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم». [1]

على أنّ تحقق القيم الروحية يستلزم لامحالة المزج ما بين تكوين الاعتقاد

---

١ ١٣٨٠هـ–

أكتوبر١٩٦٠م، الجزء الخامس، المجلد الثاني والثلاثون، ص ٤٠٨–٤٠٩. ويقصد بالثورات الثلاث: الثورة السياسية التي تحقق الحرية، والثورة الاجتماعية التي تحقق المساواة، والثورة الاقتصادية التي تحقق العدالة الاجتماعية. وفي عدد يوليو ١٩٦١م كتب مقالا آخر بعنوان، «ليس لفظ الثورة نابيا عن معنى الدين»، جاء فيه: إن الإسلام في حقيقته وطبيعته ثورة مستمرة، ثورة على الفساد والشر، وحرب على البَغْي والعدوان، وما دامت هذه الكبائر في الأرض، فالثورة دائمة والحرب قائمة، وإنما نريد إذكاء شعلتها وإعلاء سناها، لتجد فيها ثورتنا العامة، القبس الذي يحييها بحرارته ويهديها بنوره! ص ١٣٠.

السليم من جهة، وتكوين الثقافة الروحية الواسعة من جهة أخرى، خاصة إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أنّ غرس التديُن - الذي هو أساسُ القيم الروحية- لا يكون إلا:

(١) عن طريق إعمال النظر في الذات الإنسانية أولا، وذلك من خلال البحث والتأمل مصداقا لقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾. (الطارق:٥) وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾. (الذاريات:٢١)

(٢) أو عن طريق تأمل كتاب الله المكنون (الكون) ثانيا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾. (الذاريات: ٢٠)

وبطبيعة الحال؛ فإن من الحقائق التاريخية الثابتة أنّ الإنسان لن يصل إلى وضع ينعدم فيه تأثير الدين في الأخلاق أو السياسة والعكس إلا بانزواء الدين وانسحابه كليا من هموم الدنيا، أي من مسرح الحياة والكيان الإنسانيّ؛ وهو أمر بعيد المنال- إن لم يكن مستحيلا أصلا- «فالدين قوة روحية ثقافية اجتماعية والسلطة الدينية سلطة روحية ثقافية اجتماعية. ولذلك تكتسبُ العقيدة الدينية، حتى في الدول المستقلة من الدين، موقعا يضارع الموقع الذي تحتله العقيدة الأيديولوجية».[١]

ومن هنا كان هنري برجسون محقا عندما لاحظ تلازُم عنصر التدين مع تطور المجتمعات الإنسانية جميعها من دون استثناء، وهو ما دفعه لأنْ يتساءل: كيف يطردُ ذلك مع نمو العقل البشري؟! منتهيا إلى تقرير أنّ الأديان ضرورة حيوية، بل إنها ملازمة للحياة نفسها، كونها جزءًا من «النزوع الحيوي» للكائن البشري. وبحسبه؛ فإنه إذا كان الحيوان ينقادُ اجتماعيا بغريزته وحدها، فإنّ الإنسان ينقاد بعقله إلى التدين، أما إذا خشي المجتمع أن ينحرف العقل إلى النوازع الفردية فيعوق مسيرته، فإن

١- ناصيف نصار، منطق السلطة- مدخل إلى فلسفة الأمر، الطبعة الثانية، (بيروت: دار أمواج، ٢٠٠١م)، ص ١٨١.

الديانة تصبح آنذاك خير رادعة له، رادة إياه إلى الطريق الاجتماعي السليم «الصراط المستقيم»![1]

يترتب على ما سبق أنّ الإنسان متدين بالطبع؛ ولذا «فإنّ الوظيفة التقديسية عنده وظيفة أزلية، (كما أنّ) التجربة الإنسانية السابقة للتاريخ كانت حتما متدينة قبل كل شيء، متدينة بأيّ شيء... وحتى الشك في الدّين هو في النتيجة نوعٌ من التديُّن، لأنه في غالب الأمر محاولة لتعويض آلهة بآلهةٍ أشدّ، والوصولُ إلى الإله الأقوى».[2]

أما الإسلام كدين؛ فإنه يعبر في جوهره عن الفطرة الإلهية الموجودة لدى جميع الخلق. وهذا المعنى يشدد على تأكيده القرآن الكريم في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.(الروم: ٣٠) خاصة وأن الإسلام ليس فلسفة؛ وإنما هو عبارة عن «نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية. وإنك لترى هاتين الوجهتين في تعاليم الإسلام تتفقان في أنهما لا تدعان تناقضا أساسيا بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلا أمر يؤكده

١- لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن بهنري برجسون، منبعا الأخلاق والدين، ضمن: الأعمال الفلسفية الكاملة، ترجمة: سامي الدروبي، وعبد الله الدائم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٦م). وانظر له أيضا، الطاقة الروحية، ترجمة: علي مقلد، الطبعة الأولى، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤١١هـ- ١٩٩١م).

٢- عزة النص، « التاريخ بين القومية والإنسانية»؛ ضمن: محاضرات الموسم الثقافي ١٩٥٩-١٩٦٠، (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٠م)، الجزء الثاني، ص١٢٩-١٣٠.

الإسلام، إذ يراه الأساس الطبيعي للحياة».[1]

صحيح أن هذا الصوت الفطري قد يخفت في النفس، أو يكبته صاحبه عمدا في ساعات الرخاء والدعة؛ لكنه ما أن تنزل به نازلة أو يمر به حادث مرير حتى يهتز وجدانه أمام الشدائد القاسية فيتجه من فوره صوب الخالق سبحانه ضارعا خاشعا، راجيا خاضعا، منيبا متوسلا أن يُذْهِبَ الضُّرَ عنه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ (الزمر: ٨).

ومن هنا؛ كان تأكيد علماء التزكية على أنه ليْسَ بخالص لله تعالى مَنْ لا يكونُ في حالة الرخاء مع الله كحال الشدة، حيث المحنة والمنحة سواء، وأن مَن يلتجئ إلى غيره في أحوال الشدائد، فهو من العبيد السوء الذي لا يقومه إلا الأدب![2]

يتحصل مما سبق إذن؛ أنّ القيمة ليست شيئا مجردا مستقلا في ذاته بعيدا عن سلوك الإنسان؛ وإنما هي مندمجة في السلوك نفسه، بحيث يمكن أن تتخذ من سلوك فرد ما دليلا على القيمة التي يؤمن بها. ومن هنا؛ كان جوهر العبادة في الإسلام طريقا لتزكية النفس من جهة، وسبيلا للتضامن الاجتماعي من جهة أخرى: فالكونُ محرابُ المؤمن، وكلُّ حركة تصْدُرُ عنه في ليله أو نهاره تدخُلُ في صميم العبادةِ إذا ما أحْسَنَ النيّة وأخلص العمل ووافق السنة.

١- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، نقله إلى العربية: عمر فروخ، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥١م)، ص٢٠. ويقول في موضع آخر: «ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير أن يُضيّعَ اتجاهَهُ الروحيُّ دقيقة واحدة. وهذا يختلف كثيرا عن وجهة النظر النصرانية... (التي تؤكد) أن النفس ملك المسيح ولكن الجسد ملعب للمؤثرات الشيطانية، وأن عالم المادة شيطاني في أساسه، بينما عالم الروح إلهيٌّ خيّر». المصدر نفسه، ص ٢٦.

٢- تفسير أبي العباس بن عطاء، ٧٧.

وعلى ذلك؛ فمَن وقرَ في قلبهِ هذا المعنى فقد حقّقَ الغاية من وجوده، ومن قصّرَ في فهمه فقد أبطلَ غاية وجوده، وأفرَغَ حياتَهُ من كلّ قصْدٍ نبيل، وهنالك تصبح نفسه «أوهنَ من بيّت العنكبوت»، فإذا بها تقع فريسة لأضعف الإغراءات، وإذا بها تُسْتَعْبَدُ من قبل توافه الأمور!

وإذا ما بلغ الإنسان تلك الدرجة المشؤومة؛ أصبحَ عارا على الإنسانية غير مستحق لتكريم الخالق عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ (إبراهيم: ٢٨-٢٩)، ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.(الأعراف: ١٧٥- ١٧٦)

الإنسان إذن - وفقا لما سبق- «حاملُ قيمةٍ» ينبغي أن تتجلى في أعماله كافة: في سعيهِ إلى الرزق، وفي بحثه عن العلم، وفي اكتشافه للظواهر العلمية المفيدة للإنسانية داخل مختبره ومعْمَله، في سهره على راحة أسرته: «كفى بالمرء إثمًا أنْ يُضيّعَ مَنْ يقوت»[1]، في حمْلهِ الرضيع الصغير وضمه إليه، في مساعدته زوجه في إنجاز بعض أعمال البيت ...إلخ.

وما كل أولئك بخارج عن معنى العبادة في الإسلام، التي تطلق على نوعين من الأعمال:

أحدهما: أنشأ الشارعُ حقيقتَهُ وصورته، فليْسَ يُعْرَفُ إلا عن طريقه، ولا يصح الزيادة أو النقص فيه، أو الابتكار والابتداع.

والآخر: يشمل أنواعَ النشاط الإنسانيِّ كلها، إذا ما وقعت بين ضابطين

١- المنذري، الترغيب والترهيب، ١٠٩/٣.

من «حُسن القصد، وشرف الغاية» وهـذا النوع يتشابك فيه الدين مع بعض الفلسفات الخلقية والاجتماعية التي تتعرض لأحوال الإنسان وشؤون حياته[1]

ثانيا: معضلة التقدم .. وأزمة القيم.

القيم الروحية، وفقا لما سبق، تلهم العقل وتهديه سواء السبيل؛ خاصّة وأنّ العقل يُدرك الأمور على ما هي عليه، أمّا لماذا يؤثرُ طريقا دون آخر، ولماذا تتحركُ النفسُ في اتجاه دون آخر؟ فمرَدُّ ذلك إلى «منظومة القيم» التي تُضيءُ له السبيلَ فيتعرّفُ من خلالها الحقّ من الباطل. وهذا الأمرُ تزْدَادُ الحاجةُ إليه في ظلِّ التقدُم التقنيّ الهائل الذي استولى على مجامع الإنسان المعاصر؛ فإذا به يتحولُ بدورِهِ إلى آلةٍ من الآلات، وإذا بمسخ «فرانكشتاين» يتغول على صانعه.

ولعلّ ذلك هو ما يفسر لنا – في جانب من جوانبها- حركة النقد العلمية التي تتعاظم يوما بعد يوم من داخل بنية النسق العلمي الغربي متسائلة عن سبب المعضلة الحضارية، وما إذا كانت ترجع إلى طبيعة الحضارة ذاتها، أم إلى فساد في منظومة القيم والمثل التي ترافقها؟! فقد أثرت الآلة في كلّ جانب من جوانب الوجود البشري الحديث والمعاصر، مخلفة وراءها أصداءً عميقة في نظرة الإنسان إلى الوجود، وفي سبل ممارسته للحياة، وطرائق عيشه المتجدد باستمرار.

ومما يؤكد ذلك؛ ما يقرره البعض من أنّ الآلة الأولى التي أبدعها الإنسانُ لم تكن الفأس ولا المنجل ولا العصا ولا المحراث، وإنما كانت (الفخ) الذي نصبَهُ الإنسانُ في رحلةِ الصيد لقنص الحيوانات وأسرها! ثم سرعان ما تطور علم الإنسان «حتى وصل إلى معرفة قوانين الخليقة، وبرع في استخدامها

١- محمد الغزالي، هذا ديننا، الطبعة الخامسة، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م)، ص١٠٠.

للسيطرة على القوى الكونية، إلى أنّ قَهَرَ المادة، وركب منكب الفضاء وجاوز الجوزاء... ونحن جميعا ندرك اليوم أنّ عالمًا قديمًا يموتُ وآخر يُولدُ من جديد، وقد غدونا الآنَ مُرْهقي الحِسّ، شديدي التأثر والانفعال حيالَ كلِّ ما يتّصِلُ بشرْط وجودنا الماديّ والمعنويّ في هذه الحياة»[1]

ولا أدلَّ على أزمة القيم الغربية المعاصرة من التأثيرات السلبية المتعلقة بفكرة «الزواج وتكوين الأسرة» هناك. ففيما كان هذا الأمر في الماضي عبارة عن مصاهرة تتم بين أسرتين، أو عشيرتين، أو عرشين، أو مملكتين، وكان الزوجُ يفيدُ من الزواج مزيدًا يحميهِ من خصومه ويوسّعُ نطاقَ نفوذه الاجتماعيّ، ويُخففُ عليه شدّة الصدمةِ في أحوال النكْبَةِ المُباغتةِ والمرض العضال، والقحط والغزو والغارات؛ إذا به في الحضارة الحديثة لا يخرُجُ عن كوْنِهِ عقدًا يُعْتَرَفُ به في المجتمع بين شخصين مستقلين يتكاملان بالجنس من حيث رغبتهما الخاصة، وعاطفتهما المتبادلة!

وفيما كانت الأسرة قديمًا مدرسًة ومعْمَلا ومعْبدًا ومحْكمًة معا؛ إذا بها تفقِدُ اليومَ جُلَّ وظائِفها حين اضُطّرت المرأةُ إلى العمل خارج المنزل، وأنيطت الوظائف الأسرية بمؤسساتٍ وهيئاتٍ مختلفة لم تُبْقِ المرأةَ مُمرضًة ترْعى شيخوخة بَعْلِهَا كما حسِبَ «سُقراطٌ»! بل صارت الدولةُ راعيًة للشيخوخةِ وباتَ الضمانُ ضمانا اجتماعيا عاملا في كفالة الدولةِ أو النقابةِ أو في ريع استثمار الثروة في الأسهم والسندات!

كانت الأسرة قديمًا تتكونُ من زوج وزوجة وأبناء، فإذا بالنموذج العصري يكتفي بعنصريّ المعادلة الأول مستبدلا العنصر الثالث بمخلوقات أخرى أنيسة وأليفة، أما إذا بلغ الأب أو الأم مرحلة الشيخوخة فما من حل، لدى العديد من الأسر، سوى إيداعه دارا لرعاية المسنين والمسنات، ولا ضير

١- عادل العوا، « الحضارة الحديثة وأثرها على القيم الأخلاقية»، ضمن: محاضرات الموسم الثقافي ١٩٥٩-١٩٦٠، ص ٦٣.

من زيارته مرة في السنة في أعياد الميلاد!! وللأسف الشديد فإن بعضا من الدول العربية أخذت تنتهج نفس النهج تقريبا؛ ففي مصر – على سبيل المثال- يوجد عشرات من دور المسنين تنتشر في القاهرة بالذات.

وهكذا لم تعد النظم مستقرة والعقائد ثابتة، وإنما تزعزعت وتأرجحت وتهافتت بفضل ضغوط الحياة، وبينما كان الإنسان يطمح إلى أن يعيش أحفاد أحفاده في رغد من العيش – ولذا يوقف من أجلهم الأوقاف- إذا به لا يفكر إلا في حدود نفسه أو أسرته على أبعد تقدير! بعد أن تغيّرَ وجه الحياة في العالم الحديث، وصاحب كلَّ تغير مادي تبدلٌ في نظرة الإنسان.

والواقع الذي لاشك فيه أنّ الأزمة في عنفوانها هي عبارة عن «أزمة انقطاع الاتزان بين ما يخلق الإنسان، وبين الأهداف المثلى التي يترتب على البشر التزامها فيما وراء الاختراعات، أزمة خوف وحيرة وقلق وهلع، إنها أزمة انخلاع القلب والعقل، وهي تفرض على إنسان اليوم أن يعيش عيش إبليس، يحيا بانتظار الموت، ويرقب، وهو مشتت اللب، خائر الفؤاد، فاقد الرجاء، أطباق موت ذري ينزل عليه ويحيق به كالقدر المحتوم، فيمحو كيانه وحياته، ويمحو كل كون وحياة».(١)

١- العوا، الحضارة الحديثة وأثرها، ٦٧-٦٨. لذا يتساءل كبار المفكرين اليوم عن سر المأساة الفاجعة التي جعلت الشجاعة الحديثة عبارة عن شجاعة عناد، والذكاء ذكاء يأس، والتفاؤل تفاؤل الحماقة الأخيرة: حماقة الأمل! نعم حماقة الأمل التي تعبر عن أقصى شعور يمزق وجود الإنسان في المجتمع الحديث، ففي الوقت الذي تغلّبَ فيه الإنسان بجدارة على الطبيعة أطلقَ المارد من قمقمه فأخذته عزة الخلق بالإثم، وكبرياء الإبداع بالجهالة، ونمت قدراته المادية على حساب إيمانه الروحي، بعد أن أوقعت الآلة/الفخ في شراكها الإنسان. بمعنى آخر: لقد اصطادت الآلة ربها! وجعلت فريستها الإنسان حتى غدت أزمة الإنسان المعاصر هي أزمة الآلة التي اخترعها لتحل محله وتقوم نيابة عنه بكافة الأشياء التي من المفترض أن يقوم بها بنفسه. ونتيجة لذلك؛ أصيبت القيم الدينية والأخلاقية في مقتل حين شابها التخلف والجمود، ولم تكن وحدها بطبيعة الحال من مات وإنما سارع نيتشة «المجنون المحترم» بإعلان وفاة الإله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وموت الفلسفة، وتبعه آخرون من أنبياء الفجر الكاذب مبشرين بنهاية التاريخ وموت الإنسان!! انظر مقالنا، « قلق الفلسفة: من إثارة السؤال إلى البحث في المآل»، جريدة الحياة اللندنية، السبت ١٨ سبتمبر ٢٠١٠.

صحيح أنّ الرأي السابق قد يراه البعض معبرا عن فئة العقائديات المتشائمة في مقابل فئة الفلسفات المتفائلة، إلا أنّ الأخيرة هي الأقل حظا وذيوعا وعمقا في آن معا. وفي كلّ الأحوال فإن أحدا لا ينكر حقيقة أنّ التقدم التقني الهائل ييسر رفاه الإنسان من الناحية المادية، لكنه – وفي الوقت نفسه- يُشكلُ عاملَ ضغط مستمر على قيمه وحياته الروحية لدرجة أنّ منظومة عادات الهِمّة والدَأب والنشاط فسدتْ برُمتها إزاءَ هذا الضغط المتنامي والمستمر. فالآلات، إذ تلبي احتياجاتنا تلبية إجمالية رتيبة، تقتلُ في الوقت نفسه إمكانات الإنسان الإبداعية، وتفرض علينا أن نعيش متماثلين بحيث لا يتميز إنسان على آخر بأصالةٍ أو إبداع، فضلا عن أنها تردينا من حيث تزعُمُ أنها تنْهَضُ في خدمتنا على الدوام!

وبحسب توماس كارليل؛ فإنّ المعامل الحديثة حلت محل المعابد القديمة، ومن أجل تجاوز هذا الأمر لابد وأن ننزل إلى قرارة أنفسنا ونبحثُ فيها عن سؤر من الروح، وبانتظار ذلك لا نستطيع أن نفعل أي شيءٍ على الإطلاق! وهو ما يعكس تناميا في وتيرة الجدل الدائر حاليا بشأن غائية العلم وقيمته من زاوية الخير والشر، زاوية الأخلاق. فما من شك «أنّ علماء الكيمياء العضوية كانوا يهدفون باكتشافاتهم إلى النفع الذي سيجنيه الناس في حقل الطعام والغذاء والدواء؛ غير أنّ المعامل الكيميائية ذاتها هي التي أنتجت الغازات السامة الفتاكة، وهي التي تهددنا بحرب الجراثيم».[١]

وهنا نجد أنفسنا إزاء تساؤل يفرض نفسه بقوة، وهو: هل يكون في الرجوع إلى القيم الروحية التي تحملها العقائد الدينية مخرجا من أزمة العلم الحديث والمعاصر؟ وكيف يمكن لهذه المنظومة القيمية أن تعيد للإنسان توازنه المفقود قبل أن يأتي على كل إبداعات البشرية بضغطة زر واحدة؟ قبل أن نجيب على هذه التساؤلات علينا أن نؤكد أولا أنّ العلم سلاح ذو حدين: فالتفجير بالديناميت والتفجير بالذرة كلاهما يصلُح للخير

١- العوا، الحضارة الحديثة وأثرها، ٧٣.

والشر. ومن هنا نفهم كيف بنى الاتجاه اللاهوتي البروتستانتي في القرن التاسع عشر، خاصة لدى ألبرت ريتشل، دعوته اللاهوتية على أسس فلسفية بهدف حماية الدين من هجمات العلم تحت شعار: «الدين للقيم والعلم للظواهر والحقائق» وإن كانت نظرته هذه قاصرة لأن القيم متوشجة في صميم كل ممارسة وفاعلية إنسانية.[١]

يترتب على ما سبق نتيجة مهمة مفادها: أنّ مشكلة الحضارة الغربية تكمن في مشكلة «المدنية» بالذات، أي إنها مشكلة «السبب» لا «النتيجة»، مشكلة «الغاية» لا «الوسيلة»، مشكلة «الإنسان» لا «المادة»، مشكلة «الإرادة الفاعلة»، مشكلة «المسؤولية والاختيار». وبالتالي فإنه لا مناص من أن يتحول الإنسان من إنسان «الغريزة والطبيعة» إلى إنسان «المدنية والأخلاق» خاصة وأن مشكلته الأساسية هي مشكلة «الحرية»: حرية الإنسان في أن يفعل أو لا يفعل، وهي مشكلة «أخلاقية» بالدرجة الأولى. على أن تحديد موضع المشكلة يعد بمثابة نصف العلاج وليس العلاج كله، خاصة وأن ذلك يدخلنا مباشرة في أتون صراع وجدال من نوع آخر تماما يتمحور حول القيمة الأخلاقية بحد ذاتها: وما إذا كانت مطلقة أم نسبية...إلخ؟!

١- يمنى طريف، القيم والدين في القرن القادم، ١٣-١٤. ومن المعلوم أن المنهج العلمي منذ جاليليو يسير في طريق الفصل القاطع ما بين المعرفة العلمية ونظيرتها الخلقية، أي النظر إلى النسق العلمي في حد ذاته باعتباره منظومة من العبارات والفروض والظواهر والنظريات التي يضطلع بوصفها وتفسيرها ولا شأن له بالقيم!! على الرغم من بديهية أن هذا النسق العلمي لا يتقدم ولا ينفتح له المجال أصلا مالم ينشأ في بيئة ثقافية متكاملة تملك بواعث التقدم في المجالات كافة. ومع أن القيمة قد تغيب أحيانا عن تفسيرات العلم؛ إلا أنها لا تغيب ألبتة عن المجتمع العلمي الذي أنتج هذه التفسيرات. ولذلك تُطلِقُ الفلسفةُ على مبحث القيم اسم Axiknowlogy والذي يقسم إلى ثلاثة أقسام هي: الحق، والخير، والجمال. ومن المعلوم أن الحق يرادف كلا من المنطق والصواب والاتساق والمصداقية، والعلم هوعبارة عن نشاط إنساني هدفه تعقُّب المزيد من الصدق. أما الخير؛ فمعلوم أن المجتمع العلمي يستند على أخلاقيات راسخة كالذمة والأمانة وعدم الانتحال...إلخ. أخيرا تتداخل قيم الجمال أيضا مع فلسفة العلم فيما بات يُعرف باستاتيقا العلم حيث تستند النظريات العلمية والتفسير الرياضي على مكونات جمالية بحتة، كالاتساق والاتصال، ومن هنا يظهر خطأ المفهوم الشائع بأن لا علاقة للعلم بالقيم.

وفي المحصلة؛ يمكننا القول إنّ القيمة إنسانية بطبيعتها، بمعنى أنّ الإنسان هو الذي يخلع القيمة على الأشياء وأنها تنبع من الذات وتصدر عنها لا من شيء خارجيٍّ يتسم بطابع إكراهيّ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة: ٢٥٦) وهو ما يترتب عليه أمران رئيسيان:

أولهما: أنّ القيمة تتدرج في وضوحها وقوتها وسلطان هدايتها بمقدار ما يشعرُ المرءُ بذاته.

ثانيهما: أنّ الوعي بالقيمة شرط أساسي في تطور الأخلاق وتهذيب المجتمع.

في ضوء ما تقدم ، نجد أنفسنا إزاء تساؤل يفرض نفسه هو الآخر، يتعلق بموقع القيم الدينية من هذا الصراع/الجدال؟! خاصة إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أنّ القيمة في الأساس هي عبارة عن ترجيح عاشه الإنسان منذ أن قام بتغيير ما في نفسه، وما في الأفق المحيط به. ومن ثم؛ فإنّ البحث في القيم بحث في الإنسان الفاعل بوصفهِ الفرديّ والاجتماعي، حيث «انتقل الإنسان من عيش أفعاله إلى وعي هذه الأفعال، وميز الوسيلة عن الهدف، وتذرع بالمعرفة طلبا لتحقيق الغاية المرموقة، وأنجب في دروب بحثه عن المعرفة العلوم الوضعية كافة، وما برح يتطلع إلى تعمق هذه المعرفة ملحفا على جانب علاقة النشاط الإنساني بالأهداف والغايات، أي بالقيم التي إن استطاع الإحاطة بجوهرها استطاع استكمال معرفته بمعنى نشاطه في جميع المجالات».[١]

١- الربيع ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، تقديم: عادل العوا، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م)، ص١١.

على أنّ مسار الارتباط بين القيم والتقدم لم يمض على هذا النحو المتفائل، وإنما على العكس من ذلك تماما أخفقت القيم الأخلاقية، وانهزمت، وتم سحقها وبهزيمتها انتصرت حضارة الآلة/الفخ، وانحدرت كرامة الإنسان: فمن نبالة السمو بالروح والقيم إلى حطة الغريزة وخسة البطش بالقوة والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى أبرزها الاحتلال والحروب الفتاكة في العديد من بقاع العالم .

وبالعودة إلى برجسون مرة أخرى؛ نجده يؤكد على أن البشرية استطاعت أن تستكمل أدواتها خلال القرن الأخير بأحسن مما عملت خلال آلاف السنين، ولكن روحها – الروح الفردي والاجتماعي- لم يستطع أن يكتسب بعد ضميمة من القوة تمكنه من حكم الجسد، هذا الجسد الذي ازداد سعة وحجما بصورة مباغتة! وعلى العلوم الأخلاقية يقع عبء الرسالة، رسالة إعادة الاتزان والتوازن للإنسان المعاصر. فكيف يمكن للأخلاق والقيم أن تمارس دورا مهما – وحتميا- كهذا؟

ثمة من يؤكد أنّ الأمر بسيط جدا، وفي متناول حضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص، خاصة وأنّ القيم الإسلامية لا تضيق بالتقدم العلميّ، ولا تنافي الإبداع والابتكار. وفي كل الأحوال؛ يبدو أنه لا سبيل إلى علاج المثالب الحضارية الراهنة إلا «بفلسفة روحية قيمية، هي الفلسفة التي لا ترى الحضارة هدفا، حضارة الآلة والعلم، بل تجعل المدنية، أي تجعل الأخلاق، هي الغرض والهدف (من كل تحضُّر)، وتعمل بصدق وإخلاص على تحويل الرقي المادي إلى رقي خلقي، وتطوير الواقع ليمسي واثقا بالروح. لقد أصاب الإنسان نصرا على المادة لا يضارعه نصر، ولكنه يحتاج إلى نصر آخر، نصر أسمى، نصر على نفسه وطبيعته، وذاك هو الجهاد الأكبر المستديم»[١]

١- العوا، الحضارة الحديثة وأثرها، ٧٦.

فهل ثمة ثغرة في الحضارة الحديثة لم تُسد بالفعل تمكننا من أن نتقدم كمسلمين لسدها، وهل ثمة جانب مهدوم لم يلتفت أحد إلى بنائه يمكننا أن نتقدم نحن لبنائه؟ وهل عندنا ما نقدمه لهذه الحضارة مما قد ينقصها، وهي في أمس حاجة إليه؟ وهل في اتجاه هذه الحضارة وخط مسيرها انحراف يمكن أن نصححه؟!

واقع الأمر الذي لا لبس فيه، أنه للإجابة على هذه التساؤلات لابد من معرفة هدفنا البعيد وموقعنا من الحضارة في مصيرها المتحرك وخط اتجاهنا ونوع الحضارة التي نستهدفها ودورنا الممكن في تكوينها ورسالتنا فيها، خاصة وأنّ هذه الحضارة ليست مغانم خالصة من المغارم، ولا مكاسب مبرأة من الخسران، ولا كمالا منزها عن النقصان.(١)

في هذا السياق يبرز ما قاله برتراند رسل من أنّ عناصر الحياة ثلاثة هي: الغريزة، والعقل، والروح. وأنّ الحضارة الغربية اهتمت بالعنصرين الأولين ولم تهتم مطلقا بالروح. ومع أنّ بإمكان العقل أنّ يهدينا لفعل الخير والامتناع عن فعل الشر، إلا أنّ عنصر الروح وحده هو الذي يُمكّنُنا من أن نشعر شعورا إنسانيا عاطفيا قلبيا، وأن نحس بإحساس الآخرين. ويتابع رسل: إنّ العقل والغريزة لا يحلان المشكلة؛ ولذلك فإنه لابد من انسجام العناصر الثلاثة وتنميتها تنمية قائمة على الانسجام حتى تسير الحضارة على طريقها المستقيم.

ليس غريبا إذن، والحال هذه، أن يؤكد البعض بأن الغرب الحديث «يعبد الحياة بالطريقة نفسها التي يعبدُ بها النهمُ طعامَهُ: إنه يلتهمه ولكنه لا يحترمه. أما الإسلام؛ فإنه ينظر إلى الحياة الدنيا بهدوء واحترام. إنه لا يعبد الحياة، ولكنه ينظر إليها على أنها دار ممر في طريقنا إلى وجود

١- انظر محمد المبارك، « الصعيد العربي ملتقى المثل الروحية»، ضمن: محاضرات الموسم الثقافي ١٩٥٩-١٩٦٠، ص ١٧٥-١٧٨.

أسمى. ولكن بما «أنها دار ممر» ضرورية، فليس من حق الإنسان أن يحتقر حياته الدنيا ولا أن يبخسها شيئا من حقها. من أجل هذا كان لحياة الإنسان قيمة عظمى، ولكن يجب ألا ننسى أنها قيمة الواسطة إلى غاية فقط».[١]

وإذا تقرر أنّ في الغرب أزمات وقلقا نفسيا واضطرابا في مجرى الحياة وضعفا أو تدهورا في الخلق والعواطف وترديا في النفس الإنسانية وإخفاقا في محاولات الإصلاح الكبرى، وفوق هذا وذاك ثمة حاجة شديدة إلى بروز أهداف جديدة وغايات إنسانية وقيم روحية عميقة...إلخ. إذا تقرر ذلك؛ اتضح لنا حجم الدور والمسؤولية الأخلاقية – الإنسانية والدينية بالدرجة الأولى- الملقاة على عاتق كل إنسان أخلاقيّ حرٍّ للعمل ورسم الخطط لنهضة روحية إنسانية شاملة، تبعث فينا العواطف الإيمانية وتخرجنا من حمأة المادية المتوحشة.

ومما يعزز من هذه الفرضية؛ حقيقة أنه على الرغم من أن الرقي المادي ونظيره الروحي لا يعارض أحدهما الآخر كما يرى الإسلام؛ إلا أنهما وجهان من الحياة الإنسانية مختلفان تماما، وليس لأحدهما بالآخر علاقة ما، لا سلبا ولا إيجابا، وقد يمكن أن يوجدا أو لا يوجدا معا.وهذا الأمر يبدو بوضوح تام حين نقارن ما بين الإسلام وروح الغرب؛ فإذا كان الاتجاه

١- أسد، الإسلام على مفترق الطرق،٢٧-٢٨. ويقول في موضع آخر: «إن الأوربي العادي يعرف دينا إيجابيا واحدا هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من ظلم الطبيعة». إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص ... وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات »، ص ٤٥-٤٦. ونستحضر هنا الملامة التي وجهها الإمام محمد عبده تجاه ما يراه في المسيحية من تهرُّبية Escapism ومعتقد أخرويٍّ غير مبال بانتهاكات الطواغيت، ومن أنها تخلق في هذا العالم ثنائية غير سليمة وذلك عبر تكريسها الروحَ لله وتمكينها قيصر من حكم الجسد والمجتمع! انظر محمّد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، (القاهرة: دار المنار، ١٣٧٣هـ)، ص ٢٤-٢٥. ولمزيد حول هذه النقطة راجع تيم وينتر (عبدالحكيم مراد)، «عيسى ومحمد: نقاط التقاء جديدة»، مجلة المحجة، (بيروت: معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، العدد التاسع عشر، ٢٠٠٩)، ص١٥.

الديني مبنيا دائما على الاعتقاد بأن ثمة قانونا أدبيا مطلقا شاملا، يجب الخضوع إليه؛ فإن المدنية الغربية الحديثة لا تقر بالحاجة إلى خضوع ما إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية بحتة «إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه الرفاهية. وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها من طريق الرغبة في القوة، وكلا هذين موروث عن المدنية الرومانية القديمة».[1]

ختاما؛ إذا كان هنالك مَن يُعرف الأخلاق بأنها عبارة عن «طراز من النظر إلى جهد الإنسان في الإعراب عن ذاته في العالم. وأنها رغبة تتطلع إلى النظام وإلى الاتساق، وتهدف إلى فهم السلوك البشريّ فهمًا باطنيًا»[2] فإن القيمة الروحية تبدو دائما وأبدا حاضرة في سلوك الإنسان، لأنها هي التي تحدد اتجاه هذا السلوك، مثلما ترسم مقوماته وتعين بنياته. ولذا يمكننا أن نعرف القيمة تعريفا عاما بأنّها: «بنيةُ الواقع التي تُلازمُ عملنا، أو أنّها طراز الشروع في العالَم ووسْمِهِ بسمات مَطالبنا الدائمة أو الموقوتة»[3]

وفي كل الأحوال؛ فمما لاشك فيه أننا أصبحنا اليوم في أمسّ الحاجة إلى استعادة دور القيم الروحية والتزكية الشاملة في حياتنا العامة، خاصة وأنه، نظرا لما تتضمنه قيم الإسلام من نزعة إنسانية عامة، فهي مرشحة بالفعل لتمثيل دور مهم في المستقبل المنظور على المستوى العالمي .ومما يؤكد

١- أسد، الإسلام على مفترق الطرق،٣١-٣٣. ويؤكد في موضع آخر: «إن المدنية الغربية لا تجحد الله ألبتة، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي... وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك الميل الأوربي إلى نسبة الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التي يُنتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة)، فإن العقل الأوربي يميل بداءة إلى إسقاط «الله» من دائرة اعتباراته». ص ٣٧.

٢- عادل العوا، القيمة الأخلاقية، (دمشق: الشركة العربية للصحافة والطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ١٩٦٥م)، ص ٣٦.

٣- المصدر السابق، ص ٣٨.

هذا الاحتمال أن البشرية باتت تشعر بالتهديد في كيانها المادي والروحي بسبب الضغط الذي يمارسه التقدم التقني على النفوس، وبسبب الفجوة التي أحدثها هذا التقدم في التوازنات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي الصحة النفسية للأفراد والجماعات!

ومما يزيد من أهمية استعادة هذا الدور أيضا أن القيادات الداعية للإصلاح والنهضة (خلال النصف الثاني من القرن العشرين) قد غفلت عن الاهتمام به، مقارنة مع رواد الإصلاح والتجديد كمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، مكثفة جهودها على الجوانب العقلية والسياسية والتكنولوجية، ظنا منها أن التمكن من تلك الأمور، وامتلاك ناصيتها، كفيل بتحقيق النهضة المنشودة! وهو أمر أقل ما يقال عنه إن الوقائع التاريخية قد بينت ضعفه.

ولعل أكبر دليل على ذلك؛ أن الغرب الذي يقود العالم كله في تلك النواحي يعاني أزمة روحية عميقة، وخواء نفسيا كبيرا، وهو ما ينعكس في اهتمامه المتزايد بأشعار جلال الدين الرومي، ومذاهب الروحية الحديثة، والظواهر الباراسيكولوجية (الخارقة للعادة كالتواصل عن بعد).. إلخ. أضف إلى ذلك أيضا أن بعض مجتمعاتنا العربية قد حازت بالفعل أعلى التقنيات الحديثة، ولديها الكثير من الإمكانات المادية الهائلة، والثروات الطبيعية المتراكمة، إلا أنها لا تزال بعيدة كل البعد عن «النهضة» بمعناها الشامل: نهضة العقل والروح معا.

فإلى أي مدى يمكننا أن نصل في سياق دراستنا للقيم الروحية في الإسلام من خلال نموذج الشعائر والعبادات، إلى نتائج مهمة تفضي إلى اكتشاف منظومة الآثار الروحية والعملية ضمن تضاعيف وأعطاف العبادات الدينية؟! هذا ما نأمل بلوغه، والكشف عنه، في الفصول التالية.



الفصل الثاني

الدلالات الروحية للشعائر الدينية

تتميز العبادة في الإسلام بمجموعة من المزايا الفريدة، في مقدمتها: شموليتها، حيث أسبغ الإسلام على جميع أعمال الإنسان - تقريبا- صفة العبادة، شريطة إخلاص النية للمولى عز وجل واتباع السنة. ولعلّ من أبرز الآيات القرآنية التي تبين هذا المعنى بوضوح تام ما قاله سبحانه وتعالى في معرض حديثه عن المجاهدين في سبيله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.(التوبة: ١٢٠-١٢١)

أما فيما يتعلق بالمعنى العام للعبادة؛ فإنه لا يخرج عن إظهار الخشوع والخضوع للّه عز وجل، كما تتضمن معنىً أساسيًّا لا يجوز أن يغفل عنه المؤمن، ألا وهو: أنّ ممارستها تأتي بعد الإيمان باللّه الذي شرّعها، وبرسوله الذي بلغها وبيّن تفاصيلها، وأنّ القيام بها تنفيذٌ لأمر اللّه ورسوله الذي جاءنا من عند اللّه بالعقيدة والعبادة، بالشريعة والشعيرة، بالدين والمعاملة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.(الكهف: ١١٠)

أولا: العبادة مفهوما .. وغاية.

تعني العبادة لغة: الطاعة، فأصل العبودية الذل والخضوع. يقال: تعبّد فلانٌ لفلان، إذا تذلّل له. فكلُّ خضوع ليس فوقه خضوع فهْوَ عبادة، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة. وكلُّ طاعة للّه من جهة التذلل والخضوع فهي عبادة. فالعبادةُ نوعٌ من الخضوع لا يسْتحقُهُ إلا المُنعم بأعلى أجناس النِّعم: كالحيَاة، والفهْم، والسّمع، والبصر. والتعبيدُ: التذليل. يُقال: طريقٌ مُعَبّدٌ،

أي مُمهدٌ للمشي عليه. والتعبُّد: التنسُّك، تفرق بين المعاني بحسب الاشتقاق. والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني.[١]

وإلى جوار المعنى الأصليّ للعبادة في اللغة – وهو غايةُ الطاعة والخضوع–؛ يُبرِزُ ابنُ تيْمِيةَ معنًى آخر لا تتحققُ العبادة إلا به، ألا وهو «الحب»! حيث يقول في رسالة «العبودية» ما نصه: «والدّين يتضمنُ معنَى الخضوع والذُل. يُقال: دنْتُهُ، فدَان، أي أذْللتُهُ فذلَّ. ويُقال: يَدينُ اللّه، ويَدينُ للّه، أي: يعبُدُ اللّه ويُطيعهُ، ويخضعُ له. فدينُ اللّه: عبادتُهُ، وطاعتُهُ، والخضوعُ له. والعبادةُ أصْلُ معناها: الذُّلُّ أيضًا. يُقالُ: طريقٌ مُعَبَّدٌ، إذا كان مُذَلَّلاً قد وَطَّأتْهُ الأقدام. لكنّ العبادة المأمورَ بها، تتضمّنُ معنَى الذُّلِّ ومعنى الحبِّ (معا)، فهي تتضمَّنُ غاية الذُّلِّ للّه تعالى، بغايةِ المحبة له. فإنّ آخرَ مراتبَ الحُبِّ هو التَّتيُّمْ ... يُقالُ: تَيْمُ اللّهِ، أيّ عبْدُ اللّه، فالمُتيَّمُ: (هو) المعبَّدُ لمحبوبهِ. ومَن خضعَ لإنسان مع بُغْضهِ له (كحال الاضطرار) لا يكونُ عابدًا له، ولو أحبَّ شيئًا ولمْ يخْضَعْ لهُ، لم يكن عابدًا له».[٢] وقد تابعه في قوله هذا تلميذه ابن القيم حيث قال: «فأصلُّ العبادة مَحبةُ اللّه، بل إفرادُهُ بالمحبّة، وأنْ يكونَ الحبُّ كلهُ للّه، فلا يُحِبُّ معهُ سواه، وإنما يُحِبُّ لأجله وفيه... وإذا كانت المحبةُ لهُ هي حقيقةُ عبوديتهِ وسِرِّهَا؛ فهي إنما تتحققُ باتباع أمرهِ واجتنابِ نهيه».[٣]

والواقع أنّ مراتب العبادة تضم، إلى جانب هذا الأصل، أصلين آخرين هما: الخوفُ، والرجاء الذي هو عبارة عن: «حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب (وهو اللّه والدار الآخرة) ويطيِّبُ لها السير. وقيل: هو الاستبشارُ

١- انظر ابن سيده، كتاب المخصص، الطبعة الأولى، (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٠هـ)، السفر الثالث عشر، ص ٩٦.

٢- ابن تيمية، العبودية، قرأها وعلق عليها وخرج أحاديثها: أبو عبدالله محمد بن سعيد بن رسلان، (الإسكندرية: دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م)، ص ١٤-١٥.

٣- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين»، ضبط وتحقيق: رضوان جامع رضوان، الطبعة الأولى، (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م)، ١/ ٩٧.

بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياحُ لمطالعة كرمه سبحانه. وعلامة صحة الرجاء: حسنُ الطاعة، والنظر إلى سعة رحمته تعالى».[1]

أما الخوفُ من الله تعالى، فيلازم الرجاءَ كجناحيّ الطائر إذا استويا استطاع أن يتحرك ويطير، وإذا اختل أحدهما حيل بينه وبين ذلك، وهو ما عبر عنه المولى عز وجل حين قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾. (الإسراء: ٥٧) حيث اشتملت الآية على درجات الإيمان الثلاث التي لا يقوم بناؤهُ إلا عليها، وهي: الحب، والخوف، والرجاء. فابتغاءُ الوسيلة إليه يعني: طلبُ القرب منه سبحانه بالطاعة والعبادة. كما اشتملت آيتا سورة الحجر أيضا على عاملي الخوف والرجاء: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩-٥٠) ومعناها: أقم عبادي بين الخوف والرجاء ليصحَ لهم سبيلُ الاستقامة في الإيمان؛ فإنه مَن غلبَ عليه رجاؤُه عطّله، ومَن غلب عليه خوفه أقنطه.[2] ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. (يوسف: ٨٧)

لكنّ الإمام مُحمّد عبده يرى أنّ الذي يُميز العبادة عن غيرها من مختلف ألوان الخضوع وأنماط التذلل وضروب الانقياد الأخرى، ليس هو درجة الطاعة والخضوع - كما يقول اللغويون الذين يرون العبادة هي أقصى درجات الطاعة والخضوع- وإنما العمدة في توضيح ذلك يكونُ بالنظر

١- المصدر السابق، ٤٥٧/٢. وبحسب ما قاله الهروي في منازل السائرين؛ فإن الرجاء على ثلاث درجات: الدرجة الأولى رجاء يبعث العامل على الاجتهاد، ويلد التلذذ بالخدمة ويوقظ سماحة الطباع بترك المناهي. الدرجة الثانية: رجاء أرباب الرياضيات: أن يبلغوا موقفا تصفو فيه هممهم: برفض الملذوذات، ولزوم شروط العلم، واستيفاء حدود الحمية. الدرجة الثالثة: رجاء أرباب القلوب: وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق المبغض المنغص للعيش، المزهد في الخلق». قارن بشرح ابن القيم للدرجات الثلاثة في، مدارج السالكين، ٤٧١/١-٤٧٤.

٢- تفسير أبي العباس بن عطاء، ٧٢.

إلى منشأ هذا الخضوع، فإنْ كان منشؤهُ وسببهُ أمرًا ظاهرًا كالمُلكِ والقوةِ ونحوهما، فلا يُسمى عبادة، وإنْ كان منشؤهُ الإقرارُ بعظمة المعبود وأنه يمتلك قدرًة تعلو على قوى الإدراك والحس معا، فذلك ما يصحُ أنْ يُطلق عليه لفظ «العبادة».

ويتساءل الإمام في تفسير قوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين»[1]: «ما هي العبادة؟ يقولون: هي الطاعة مع غاية الخضوع. وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل، وتجليه للأفهام واضحا لا يقبل التأويل، فكثيرا ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه، ويعرفون الحقيقة برسومها، بل يكتفون أحيانا بالتعريف اللفظي ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها، ... وإننا إذا تتبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لـ «عَبَدَ» وما يماثلها ويقاربها في المعنى كخضَعَ وخنَعَ وأطاعَ وذلَّ، نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي «عَبَدَ» ويحل محلها ويقع موقعها! ولذلك قالوا: إن لفظ «العباد» مأخوذ من العبادة، فتكثر إضافته إلى الله تعالى، ولفظ «العبيد» تكثر إضافته إلى غير الله تعالى، لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى. ومن هنا قال بعض العلماء: إنّ العبادة لا تكون في اللغة إلا لله تعالى، ولكن استعمال القرآن يخالفه».

فعلى سبيل المثال: «يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوا كبيرا حتى يفنى هواه وتذوب إرادته في إرادته، ومع ذلك لا يُسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة، ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء، فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين، فضلا عن سائر العابدين، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة. فما هي العبادة إذن؟!

يجيب الإمام على تساؤله هذا بالقول: «تدل الأساليب الصحيحة،

١- محمد عبده، الأعمال الكاملة، ٣٣/٤.

والاستعمال العربي الصراح على أنّ العبادة ضربٌ من الخضوع بالغ حدّ النهاية، ناشئٌ عن استشعار القلب عظمةً للمعبود، لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها، وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه، فمَن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده، وإن قبّل موطئ أقدامه، ما دام سبب الذل والخضوع معروفا وهو الخوف من ظلمه المعهود أو الرجاء بكرمه المحدود، اللهم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن المُلك قوة غيبية سماوية أُفيضتْ على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، ... وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقية (من دون الله)».

وينتهي الإمام إلى تقرير أنّ لكلّ عبادة من العبادات الصحيحة «أثرا في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه، و(أنّ) الأثر إنما يكون على ذلك الروح والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وُجدتْ صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة (على الحقيقة)، كما أنّ صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا»[1]

١- المصدر السابق، ٣٤/٤. ويضرب الإمام مثلا لذلك بعبادة الصلاة المطلوب إقامتها وليس مجرد الاتيان بها، وما يرتبط بذلك من بيان غايتها على نحو ما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥)، كما توعد سبحانه الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيه، المؤدي إلى غايتها بقوله سبحانه: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ (الماعون: ٤-٧) فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي: توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته، والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه، ثم وصفهم بأثر هذا السهو، وهو: الرياء ومنع الماعون. والرياء ضربان: رياء النفاق... ورياء العادة، وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته وملاحظة من يعمل له ويتقرب إليه به. وهو ما عليه أكثر الناس فإنّ صلاة أحدهم في طور الرشد والعقل هي عين ما كان يحاكي به أباه في طور الطفولة عندما يراه يصلي يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل وليس لله شيء في هذه الصلاة: وقد ورد في أحاديث كثيرة أنّ مَن لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا، وأنّ صلاته تُلّفُ كما يُلَفُّ الثوب البالي ويُضرب بها وجهُه.

أما أبو الأعلى المودودي؛ فيشير هو الآخر- استنادا إلى الاستعمال اللغوي الغالب على مادة «ع.ب.د»-، إلى أنّ مفهوم العبادة الأساسيّ هو: أنْ يُذعِنَ المرءُ لعلاءِ أحدٍ وغلبته، ثم ينزل له عن حريته واستقلاله، ويترك إزاءه كل المقاومة والعصيان وينقاد له انقيادا. وهذه هي حقيقة «العبدية» و«العبودية»، ومن ذلك أن أول ما يتمثل في ذهن العربي لمجرد سماعه كلمة «العبد» و«العبادة» هو تصور العبدية والعبودية. وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتما يتبعه تصور (وجوب) الإطاعة».[1]

وفي السياق ذاته يوضح المودوديُّ أنّ التأله والتنسك، هما عبارة عن حالةٍ تُطلق على العبد الذي لم يقف به الأمر على أنْ يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللا فحسب، بل كان مع ذلك معتقدًا بعلائه معترفا بعلو شأنه، وكان قلبه مفعما بعواطف الامتنان على نِعَمه وأياديه. ومن ثم، يبالغ في تمجيده وتعظيمه، ويتفنن في إبداء الشكر على آلائه، وفي أداء شعائر «العبدية» له. فهذا المعنى لا ينضم إلى معاني «العبدية» الأولى، إلا إذا كان العبد لا يُخضِعُ لسيده رأسَهُ فحسب، بل يُخضِعُ معه قلبه أيضا.[2]

وذلك يعني أنّ الإذعان والخضوع الكليّ هو أصلُ العبادة، وأنّ عبودية القلب أسْمى منزلةً من عبودية الجوارح لأنّها تنقل المُتعبِّدَ من «العبودية» إلى «التنسك»، بمعنى المبالغة في العبادة ظاهرًا وباطنا، ثم إلى «التألُّه» وهنالك ينطبق عليه قول المولى سبحانه: «لا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنتُ سَمْعَهُ الذي يسْمَعُ به وبصرَهُ الذي يُبْصِرُ به ويدهُ التي يبطِشُ بها...».[3]

١- أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله- الرب- العبادة- الدين، تعريب محمد كاظم سباق، (الكويت: الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٥م)، ص٩٧.

٢- المصدر السابق، ٩٧.

٣- البخاري: ٦٥٠٢.

العبادة إذًا اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ وذلك بحكم كونها الغاية المرضية له، والتي خلق الخلق من أجلها، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)، وبها أرسل جميع الرسل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾.(النحل:٣٦) ومن ثم؛ فإن المعنى المحدد الذي طلبه جميع الرسل من أقوامهم لا يخرج عن عبادة الله بهذا المعنى الدقيق الذي يعد قاعدة التصور الإسلامي.

وفي كل الأحوال؛ يمكن القول إن العبادة هي النداء الأول في كل رسالة وعلى لسان كل نبي: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه، ، ونعت صفوة خلقه بالعبودية له ،كما نعت بها أكمل خلقه ﷺ.

فالدّين كله داخل في العبادة، يقال: دنته فدانَ أي ذللته فذل، ويقال: يدين لله ويدين الله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له. وعلى ذلك؛ فالعبادة المأمور بها تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة لله.[1]

ولذلك كانت الصلة بالله صلة عبودية، وليست كذلك بالنسبة لصلات الإنسان الأخرى: فصلته بالأنبياء صلة اهتداء بهديهم واقتداء بسيرتهم وطاعة لتعاليمهم ومحبة لأشخاصهم وأخلاقهم، على حين أن صلته بخالقه هي الصلة العليا التي تربو على كل صلة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.(التوبة: ٢٤)

١- قراءة، الأخلاق في الإسلام، ٢٩٣.

كما أن العبادة – فيما يؤكد فخر الدين الرازي–[1] عبارة عن: «نهاية التعظيم، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام، وأعظم وجوه الإنعام: الحياة التي تفيد المُكْنة من الانتفاع. وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ (مريم: ٩)، وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. (البقرة: ٢٨) وعليه فإنّ «أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى جنسا من النعمة، ألا وهو الله سبحانه، فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله».[2]

يتضمن معنى العبادة في الإسلام إذن الدين والحياة من جهة، وكيان الإنسان ظاهره وباطنه من جهة أخرى. ولعل ذلك هو ما دفع ابن تيمية لأن يضمنها – إلى جانب الشعائر المفروضة– ما زاد عليها من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة واستغفار، ومن أخلاق وفضائل إنسانية جامعة: كصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من ضروب العبادة المشهورة، ومن أخلاق ربانية عالية: كحب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه،...إلخ.[3]

ولعل ذلك أيضا هو ما دفع تلميذه ابن القيم في مدارج السالكين لأن يفصِّل مراتب العبودية وحظ القلب واللسان والجوارح والحواس منها في خمسين مرتبة موزعة عليها، مؤكدا أن رحى العبودية تدور على خمس عشرة

١- فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير، (مصر: المطبعة العامرة بالشرقية، ١٣٠٨هـ- ١٨٩٠م)، ١/١٣٢.

٢- ابن سيده، المخصص، ٩٦/١٣.

٣- ابن تيمة، العبودية، ٨.

قاعدة، مَن كمّلها فقد كمّل مراتب العبودية «وبيانها: أنّ العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح».[١]

وواقع الأمر أن ابن تيمية أضاف إلى جميع ما سبق ذكره فضيلتين أو بالأحرى فريضتين كبيرتين بمثابة السياج لذلك كله، وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين في سبيل الله.[٢] على أنه ينحو في مواضع أخرى من مؤلفاته إلى عدم حصر الجهاد في معناه العسكري، أو الجهاد الأصغر، وإنما يعبر به عن معنى «الجهاد الأكبر» تبعا لحديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «رجعنا من الجهاد الأصغر (القتال) إلى الجهاد الأكبر (جهاد النفس)».[٣]

إذ يتسع معنى الجهاد في الإسلام ليشتمل على أنواع،أو أبعاد، أو جبهات أربع هي:

أولا: جهاد أو مقاومة المحتل الغاشم الذي يبدأ بالعدوان.
ثانيا: نهي الحاكم الجائر، والاستلاب المطلق للأنظمة الشمولية.
ثالثا: مقاومة كلّ تقليد من شأنه أن يؤدي إلى التبعية العمياء للآبائية.

١- انظر تفصيل هذه القواعد الخمس عشرة في مدارج السالكين،٢/١٠٤-١١٣.

٢- العبودية، ٣١. وفي ارتباط معاني العبادة والتوبة والحمد والسياحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول ابن عطاء الله الحنبلي في تفسيره الآية ١١٢ من سورة التوبة ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ...﴾، : اعلم أنه «لا تصح العبادة إلا بالتوبة، ولا التوبة إلا بالحمد على ما وفقت له من طلب طريق التوبة، ولا تصح التوبة (أيضا) إلا بمداومة السياحة والرياضة، ولا هذه المقامات والمقدمات إلا بمداومة الركوع والسجود؛ ولا يصح هذا كله إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصح شيء مما تقدم ذكره إلا بحفظ الحدود ظاهرا وباطنا. فالمؤمن من تكون هذه صفته، لأن الله يقول: «وبشر المؤمنين» الذين هم بهذه الصفة». انظر، تفسير أبي العباس بن عطاء، ص ٥٥-٥٦.

٣- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٩٧/١١.

رابعا: مقاومة/مجاهدة النفس، المعبر عنها في الحديث الشريف بـ«الجهاد الأكبر».

وفيما يلي سنحاول أن نربط هذه الأبعاد الأربعة بمفهوم العبودية حتى تتضح لنا الصورة أكثر فأكثر، ونحيط علما بمدى شموليتها لمختلف مناشط الدين والحياة كافة:

فعلى الصعيد الأول - الجهاد الأصغر (القتال) - نلاحظ أنّ الإسلام يأمر المسلمين بأن يأخذوا بالمسالمة العامة مع كل الفئات المسالمة، من كل الناس الذين يختلفون معهم فى المعتقد، وذلك من طريق الأخذ بأسباب العدل، في معاملتهم وبالإحسان إليهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨) أما الذين يمارسون البغي والعدوان بالقتل والتشريد ومساعدة الأعداء، فلهم وضع آخر، يكشف عنه المولى عز وجل حين يقول: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. (الممتحنة: ٩)

ونفهم من ذلك أنّ الجهاد لم يفرض على المسلمين إلا بعد أن طال بهم أمد الإيذاء من جانب المشركين، فنزلت الآية الكريمة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾. (الحج٣٩ -٤١)

وهذا يدل على أن هذا النوع من الجهاد مرتبط بأسبابه الموضوعية

الخاصة، المتمثلة في حرابة الآخر للمسلمين ومبادرتهم بالقتال.

أما بالنسبة لارتباط العبادة بالصعيد الثاني، وأعني به نهي الحاكم الجائر والاستلاب المطلق للأنظمة الشمولية، فيكفي للتدليل على ذلك أنّ القرآن الكريم قرن عبادة الله في أكثر من موضع من آياته بالتوقف عن عبادة الطاغوت فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾. (النحل: ٣٦) ويكفي للتدليل أيضا ما قاله رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[١] وقوله «أفضل الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله (بسبب ذلك)».[٢]

وفيما يتعلق بارتباط العبادة بالمستوى الثالث – مقاومة كل تقليد من شأنه أن يؤدي إلى التبعية العمياء للآبائية- فيكفي للتدليل على ذلك أنّ القرآن الكريم قد استند في دعوته الكفار والمشركين إلى الإسلام على هدم منظومة التبعية العمياء والدعوة إلى التحرر من قيود التقليد، ووطد لهذا المبدأ الذي يعتبر ركيزة أساسية لبناء المؤسسات الحياتية بمبادئه وسلوكياته القائمة على معيار العقل والمنطق، ومبادئ النظرة الكلية للكون، وقيم النزعة الذاتية التحررية، كما أكد أيضا؛ أنه لا ضرر مطلقا في اعتماد الحوار وسيلة في أكثر الأمور الفكرية تعقيدًا، لأنه أراد أن يفتح الطريق أمام العقول الواعية، لتقرر الأدلة على المعرفة الجازمة التي تنفي كل تقليد يؤدي إلى التبعية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ

١- الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، الطبعة الأولى، (مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٧ هـ)، ص ٣٢٥٦. عن أبي سعيد الخدري. وانظر بالألباني، صحيح سنن أبي داود، الطبعة الأولى، (مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ)، ص ٤٣٤٤.

٢- أحمد بن حجر المكي الهيتمي، الزواجر عن اقتراف الكبائر، (بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ)، ٢/ ١٧٠.

﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾. (الأنبياء: ٥١-٥٤)

وأخيرا فيما يتعلق بارتباط المستوى الرابع، مقاومة النفس، بالعبادة فيكفي للتدليل عليه أن رسول الله ﷺ سماه «الجهاد الأكبر» وهو المقصود بقوله عن الإسلام في موضع آخر: «وذروة سنامه الجهاد»[١] وليس كما يفهمه كثير من المسلمين اليوم بأنه القتال، وإلا: فكيف يكون «الجهاد الأصغر» أعلى مرتبة من «الجهاد الأكبر» بل وذروة سنام الإسلام؟! خاصة وأنّ القصد من الدين -فيما يؤكد الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت- «ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح في الأرض على أساس قوي متين من ربط الإنسان بخالقه»[٢].

على أنّ تلك الارتباطات تدفعنا إلى إثارة تساؤل من نوع آخر، وهو: إذا كان لكل شيءٍ حقيقة؛ فما حقيقة العبادة إذن؟ هل هي تلك الشعائر المفروضة من صلاة وزكاة وصيام وحج؟ أم أنّها شيءٌ آخر يكمُنُ وراءَ ذلك وأعظم منه؟! إنّها بلاشك شيء آخر وراء ذلك وأبعد منه؛ «فالفرائض والشعائر التعبدية جسد حياته الشعائر الروحية، والشعائر الروحية صورة حقيقتها، التذلل للمعبود جلّ جلاله، وخضوع له وامتثال لأمره، ووقوف عند حده، والشعائر التعبدية مظهر، وباطنه توحيد المعبود جلّ وعلا».[٣]

ولعل ذلك يفسر - في ناحية من النواحي- شمولية العبادة في الإسلام؛ خاصّة وأنّ محاولة الوصول إلى الغايات من العبادات يمُثّل بحدّ ذاته جزءًا من العبادة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ

١- الترمذي، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق أحمد محمد شاكر، (بيروت: دار الكتب العلمية، دون تاريخ)، ص ٢٦١٦.

٢- محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام ، تقديم: محمد البهي، الطبعة الثانية، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٠)، ص ١٨.

٣- الخطيب، العبادة في الإسلام، ٢٩.

ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١)، ويكفي أن الرسول ﷺ قد عقّب على هذه الآية بالقول: «ويل لمن قرأها ثم لم يتدبرها».[١]

وهذا الأمر - أعني الجهاد الأكبر، أو تزكية النفس- فضلا عن ارتباطه بالعبادة بالدرجة الأولى، فهو يرتبط بأمرين آخرين؛ ألا وهما: الحكمة والحرية. فالحكمة «جند من جنود الله يقوي بها قلوب أوليائه».[٢] يقول تعالى ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١) ومن ثم؛ فبمقدور المرء أن يطمح إلى أن يكون من جند الله، وذلك بأن «يسعى بأقصى ما في طاقته من جهد في سبيل بلوغ هذه الغاية السامية، لكن الله وحده يعلم جنوده، إن لكل إنسان حرية السعي نحو الدخول إلى سلطان الله».[٣] فوحْدَهُ القلبُ الممتلئ حكمة هو مَن يعرف المعنى الحقيقي للتعاليم الدينية إذ يُعاينها في قلبه، بعد أن تتكشّفَ له طبيعتُها الجوهرية، ومن هنا نفهم سرَّ ارتباط التفقه في الدّين بالتقوى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٢) وكما في قول مصطفاه: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[٤]، وقوله: «مَن عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم».

أما بالنسبة لارتباط «الجهاد الأكبر» بالحرية؛ فيستند إلى الإيمان بأنّ

١- رواه ابن حبان في صحيحه، وابن أبي الدنيا في باب التفكر. ومن هنا تبرز حصافة العقاد الذي عنون أحد مؤلفاته بـ «التفكير فريضة إسلامية».

٢- يحيى بن معاذ، جواهر التصوف، جمع وتبويب وشرح وتعليق: سعيد هارون عاشور، الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٢م)، ص ٢٧.

٣- خالد مدحت أبو الفضل، الاستبداد والمرجعية في الخطاب الإسلامي- دراسة الحالة المعاصرة، ترجمة: محمد صقر عيد، تقديم: أنور إيمان، الطبعة الأولى، (دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م)، ص ٢١.

٤- رواه أحمد والشيخان وابن ماجة من حديث معاوية، والترمذي عن ابن عباس وصححه، والبزار، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه. صحيح البخاري، ٧١.

حرية المرء ليست أمرًا خارجا عن العبودية لله باعتبارها أعلى مراتب الحرية. وهذا المعنى الفريد للعبودية يقترن بمنتهى الطاعة لله، وخلاص السالكين من «رِّق الأَغْيَار» وعبودية ما دون اللّه، إذ لا عبودية إلا للّه. ومعنى ذلك أنّ التحرر من العبودية لا يتم إلا بإحلال «عبودية اللّه» محل «عبودية الإنسان»؛ فالعبودية للّه مشروطة إذن باللاعبودية للسلطان، وفي هذا يكمن معنى شهادة أن لا إله إلا اللّه.

ولعل الاقتران يبدو واضحا هاهنا ما بين العبودية والحرية، فغاية العارف- بحسب الجنيد البغدادي- هي الحرية: «آخر مقام العارف: الحرية»[١]، وفي هذا يقول أحمد بن خضرويه البلخي (ت ٢٤٠هـ): «في الحرية تمام العبودية وفي تحقيق العبودية تمام الحرية» والسر في ذلك أنّ المتجرد للّه لا يصح أن تستعبده الأشياء، فمن: «تفرد باللّه لم يذله سلطان ومن توكل عليه لم يضره إنسان. وأفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ومن لم ترد الشبهة يقينه».

وبعيدا عن التعريفات ذات المنحى التجريدي، نجد أن الحرية وفق هذا المعنى ذات مضمون فاعل في تحقيق التحرر داخل النفس البشرية من عبودية السلطان من جهة، ومن عبودية الشهوات وإطاعة اللذات من جهة أخرى. «ففَرْقُ مَا بينَ المؤمن وغيره: أنّ المؤمن خرج من العبودية لنفسه وللمخلوقين إلى العبودية لربه. خرج من طاعة هواه إلى طاعة اللّه. ليس المؤمن «سائبا» يفعل ما تهوى نفسه أو يهوى له غيره من الخلق. إنما هو «ملتزم» بعهد يجب أن يفي به، وميثاق يجب أن يحترمه، ومنهج يجب أن يتبعه، وهذا التزام منطقي ناشئ من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه».[٢] فمقتضى عقد الإيمان أن يُسْلِمَ المرءُ زمامَ حياته إلى اللّه، وأن يخرج نفسه

١- الجنيد البغدادي، تاج العارفين، الجنيد البغدادي: الأعمال الكاملة، دراسة وجمع وتحقيق سعاد الحكيم، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤م)، ص ١٠٧.

٢- القرضاوي، العبادات في الإسلام، ٥٣.

من دائرة الخضوع لهواه إلى الخضوع لأمر الله، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾. (الأحزاب: ٣٦)

يتحصل مما سبق أنّ الحرية في الإسلام لا تقتصر على ذلك المحتوى المرتبط بالسلوك السياسي داخل الإطار الاجتماعي فقط، وإنما تتعدى ذلك إلى الحرية بمفهومها الروحي المتعالي: فثمة حرية ذاتية، وحرية غيرية، وتحقق هذين الضربين من الحرية يفضي لا محالة إلى تحقق كلا الجهادين: الأصغر والأكبر معا.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفهم الأسباب التي دفعت بابن تيمية إلى توسيع معنى العبودية وبيان شموليتها لكلّ ما فيه صلاح الخلق في العاجل والآجل. ولا أدل على ذلك كله من أنه عدّ الأخذ بالأسباب، ومراعاة السنن الإلهية التي أقام الله الكونَ عليها من العبادة، فقال: «إن كل ما أمر الله به عبادَهُ من الأسباب، فهو عبادة».[1] فعبادته سبحانه وتعالى ليست محصورة في الصلاة والصيام وما يلحق بتلك الفرائض من تلاوة وأذكار واستغفار، كما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا رددوا أذكار الصباح والمساء، وداوموا على أذكار ما بعد كل صلاة، فقد قاموا بواجب العبودية لله كاملا! فمع ما لهذه الشعائر العظيمة من منزلة وأهمية كبيرة في الإسلام؛ إلا أنها تمثل جزءا يسيرا فقط من مفهوم العبادة، وليست هي كل العبادة التي خلق الله لأجلها الإنسان.

وآية ذلك؛ الأحاديث الكثيرة التي ربط فيها رسول الله ﷺ العبادة في الإسلام بمختلف الجوانب الاجتماعية؛ ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟

١- ابن تيمية، العبودية، ٤٤.

قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة» وفي رواية أخرى: لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين!!

أما عيادة المرضى وإطعام المحتاجين وسقاية العطشى بل وضمان حقوق الحيوان[1] وحماية البيئة...إلخ؛ في كل أولئك من الأحاديث والآثار ما يكفي لضرورة إعادة النظر في مفهوم العبادة كما هو شائع لدى كثير من الناس، حتى تتسع دائرتها وتتحقق الغاية منها وتنعكس إيجابا، لا سلبا، على مناشط الحياة كافة.[2]

ولتقريب هذا المعنى من الفهم ، نستشهد بحديث رسول الله ﷺ المتداول على ألسنة الخلق، خاصة في شهر رمضان، والذي يقول فيه: «شرف المؤمن

١- ولذلك حين حدّث النبي ﷺ أصحابه عن الرجل الذي وجد كلبا يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فملأ خفه ماء وسقى الكلب، فشكر الله له وغفر له، قالوا في عجب: أئن لنا في البهائم لأجرا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «في كل كبد رطبة (أي ذات حياة) أجر» (رواه البخاري).

٢- ومنها الحديث القدسي المشهور،: «إنّ الله عز وجل يقول يوم القيامة: يابن آدم مرضت فلم تعدني! قال: يارب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! قال: يارب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟! يابن آدم استسقيتك فلم تسقني. قال: يارب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي». (رواه مسلم) ومن هنا نفهم الحديث القدسي الذي يقول فيه المولى عز وجل: «أنا عند المنكسرة قلوبهم» مع ملاحظة أن لفظة «العبد» وردت في الحديث الأول من دون تخصيص، وهو ما يحمل على العموم لتشمل جميع البشر على السواء مؤمنهم وكافرهم، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا ما مرض جاره اليهودي يذهب لعيادته. وهكذا تتداخل العبادة بمفهوما الواسع في أدق الأمور تفصيلا حيث يروي أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «كلُّ سلام من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة» (رواه البخاري ومسلم). وفي حديث آخر عن ابن عباس: «على كل ميسم من الإنسان صلاة كل يوم! فقال رجل من القوم: هذا من أشدّ ما أنبأتنا به! قال: أمرُك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة، وحملك عن الضعيف صلاة، وإنحاؤك القذر من الطريق صلاة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة» (رواه ابن خزيمة في صحيحه).

قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس»[1] محاولين قراءته وفق المنظور الذي قرأ به ابن تيمية وابن القيم وعلماء الأمة مفهوم العبادة في الإسلام. خاصة وأنّ بعضا من شباب اليوم يفهم مثل هذا الحديث بمعناه الظاهري فقط، فيقيمُ كبيرَ وزن لقيام الليل، مع مخالفته جوهر العبادة وغايتها – وفق المنظور السابق– في كثير من أمور المعاش! ومن ذلك أنّ بعضهم يُجهد نفسه في قيام الليل ثم يعطّل مصالح الخلق أثناء النهار! وبصفة خاصة أولئك الذين يعملون بجهات ووظائف حكومية تقتضي التعامل مع الجمهور، فهل من الإسلام أن تحول العبادة الفردية دون إتمام مصالح الخلق الجماعية؟

أين ذلك السلوك من دعوة المصطفى عليه السلام أمته إلى إتقان العمل حين قال: «إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[2] ونهيه عن أنماط الغش كافة حيث قال: «من غشنا فليس منا»؟![3]

خاصة وأنّ إتقان العمل والمحافظة عليه ليس عبادة فحسب؛ بل هو جهاد في سبيل الله؛ لما روي عن كعب بن عجرة قال: مرّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله!! (أي في جهاد الكفار إعلاءً لكلمة الله، وكان أفضل العبادات عندهم) فقال: إنْ كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج

١- تمام الحديث: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعلم أنّ شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس. قارن بالمنذري، الترغيب والترهيب، ١/ ٢٩٤، ٢/ ٤٣.

٢- الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الطبعة الأولى، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م)، ١/ ١١٣.

٣- تمام الحديث عن أنس بن مالك: خرج علينا رسول الله ﷺ إلى السوق فرأى طعاما مصبرا؛ فأدخل يده فأخرج طعاما رطبا قد أصابته السماء، فقال لصاحبها: ما حملك على هذا؟ قال: والذي بعثك بالحق إنه لطعام واحد. قال: أفلا عزلت الرطب على حدته واليابس على حدته فتتبايعون ما تعرفون؟! مَن غشنا فليس منا. المنذري، الترغيب والترهيب، ٣/ ٣١.

يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان».[1]

إنّ فهما أعمق لغائية الشعائر التعبدية في الإسلام يفضي إلى الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع بأنّ شرف المؤمن لايقتصر على قيام بضعة ركيعات بالليل، على أهميتها الإيمانية والخلقية، فيما هو راضخ في واقع سلبي، وإنما شرفُ المؤمن حقا هو أنْ يأمُرَ بالمعروف وينهى عن المنكر ويسعى إلى هداية الناس في أمور دينهم ودنياهم. شرفُ المؤمن حقا أن يقاوم التواكل والكسل والسلبية والتخلف ، وأنْ يحْمِلَ على عاتقة مهمة تبليغ رسالة الإسلام، وهو على أتم إدراك أنّ جوهرها الحي إنما يكمن في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، لا أنْ يرّضى لنفسه وللآخرين بالعيش في أعمق أعماق الظلمات!!

والواقع أنّ حال مَن يفعل ذلك يكون أشبه بحال مَن ينطبق عليه المثل القائل: «ما فائدة اللبن إذا ما أطاحت البقرة بالدلو»؟!، فبعض الخلق لا يراعي في أداء العبادات إلا نفسه فحسب؛ أما انعكاس تلك الشعائر بصورة إيجابية على معاملاته فلا يحقق فيه شيئا مذكورا حيث لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر والبغي! لا تذكره الأعياد الدينية برحم يجب وصلها، أو ببطون جائعة يجب إطعامها، ولا بأجساد عارية يتعين كساؤها، ناهيك بمظلوم يبحث عن سند له في مواجهة ظالم أقوى منه! أو بمسكين

١- المصدر السابق، ١٠٧/٣. ولا أدل على ذلك من أنّ القرآن يخلع على السعي في مناكب الأرض قصد الرزق تسمية «الابتغاء من فضل الله»، كقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة: ١٠)، وقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨)، بل إنه يقرن المسافرين للرزق بالمجاهدين في سبيل الله ويضعهما في سياق واحد حيث يقول: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. (المزمل: ٢٠)

تكفيه اللقمة فلا يجدها! [1]

إن الإسلام لا يكتفي باستحباب رفع الأذى عن الطريق وسقاية الحيوان الظمآن والنهي عن حبس القطط فقط، وإنما يدعو إليها، ويحث عليها، ويأمر بها، وهو تارة يسميها «صدقة» وطورا يسميها «صلاة»، وهي على كل حال عبادة وقربة إلى الله تعالى. ولا أدل على اشتمال العبادة كل هذه الأعمال من حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي قال فيه:

سألت رسول الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: الإيمان بالله. قلت: يانبي الله؛ مع الإيمان عمل؟ قال: أن ترضخ مما خوّلك الله (أي تعطي مما ملّكك الله). قلت: يانبي الله؛ فإن كان فقيرا لا يجد ما يرضخ؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. قلت: فإن كان لا يستطيع أن يأمر

١- التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص ٣٥٣. وعلى ذلك فكل عمل اجتماعيّ أو سياسيّ أو ثقافيّ أو تربويّ نافع يعد عبادة عند الله تعالى، فإذا ما أخلص المؤمن في عبادته لله، وفق هذا المعنى، حتى تصبح حياته جهادا في سبيل الله. ينطبق ذلك على أقلّ الأعمال وأكثرها في آن معا: فمساعدة الزوج زوجه في أعمال البيت عبادة، واللعب مع أطفاله عباده، وإطعام أهله من الرزق الحلال عبادة، وسيره إلى العمل ورجوعه منه عبادة، وذهابه إلى الجامعة ورجوعه منها عبادة، وإماطته الأذى عن الطريق صدقة، وتبسمه في وجه أخيه المسلم صدقة، ونظافة بدنه عبادة، وتلبية حاجته الجنسية في الحلال عبادة؛ ففي الحديث: أنّ أناسا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون؟ إنّ بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله! أياتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرا! (مسلم: ١٠٠٦). فما الظن بكلّ عمل يمْسَحُ به المسلم دمعةَ محزون، أو يُخففُ به كُرْبةَ مكروب، أو يُضْمد به جراح منكوب، أو يسدُّ به رَمَقَ محروم، أو يشدُّ به أزرَ مظلوم، أو يُقيلُ به عثرةَ مغلوب، أو يقضي به دين مدين...إلخ؟! ولذلك أخبرنا رسول الله ﷺ ما نصه: «رأيتُ ليلة أسري بي مكتوبا على باب الجنة: الحسنةُ بعشر أمثالها والقرضُ بثمانية عشر» (ابن القيسراني: تذكرة الحفاظ، ص ١٩٤)، لأنّ الأولى تطال فردا واحدا، أما القرض فلربما أدخل البهجة والسرور على أسر بأكملها، ولك أن تتخيل ما قد ينتج عن هذا الإقراض لشاب يريد أن يتزوج من عفة نفسه وزوجه، وفرحة أسرته وعائلة زوجه، وإتاحة الفرصة لتكوين أسرة يعمها الخير والأمن والسلام! إلى غير ذلك من أعمال البر التي لاتنتهي.

بالمعروف وينهى عن المنكر؟ قال: فليُعن الأخرق (أي الجاهل الذي لا يعرف صنعة، يعينه على تعلم صنعة). قلت: يا رسول الله؛ أرأيتَ إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: فليُعن مظلوما. قلت: يانبي الله؛ أرأيت إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مظلوما؟! قال: ماتريد أن تترك لصاحبك من خير؟! ليُمسك أذاه عن الناس. قلت: يا رسول الله، أرأيت إن فعل هذا يدخل الجنة؟ قال: ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذتْ بيده حتى تدخله الجنة.[1]

على أنّ ما سبق يثير قضية مهمة نالت قدرا كبيرا من عناية العلماء تتعلق بأفضلية العبادة ومقياس ذلك. وقد فصّل ابن القيم القول في اختلاف طرق السالكين حيث قال: «فأهل مقام «إياك نعبد» لهم في أفضل العبادة وأنفعها، وأحقها بالإيثار والتخصيص، أربع طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها «أشقها على النفوس وأصعبها».

الصنف الثاني: قالوا أفضل العبادات «التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان»، ثم هؤلاء قسمان:

(١) فعوامهم ظنوا أن هذا غاية (بحد ذاته)، وقالوا هو أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة.

(٢) وخواصهم: رأوا هذا مقصودا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته.

الصنف الثالث: رأوا أنّ أنفع العبادات وأفضلها «ما كان فيه نفع متعدٍّ إلى الغير»، كخدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم

١- الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، الطبعة الأولى، (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢١هـ)، ص:٨٧٦.

لعياله»[١]، وبقوله لعلي: «فوالله لأن يُهدَى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»[٢] وبأنّ عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟ ولهذا كان «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب».[٣]

الصنف الرابع: قالوا إنّ أفضل العبادة «العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته»، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من قيام الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وهكذا إن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد فهو منهم، وإن رأيت المجاهدين أو الذاكرين أو المتصدقين المحسنين رأيته معهم.

ويصف ابن القيم أصحاب هذا الصنف بأنّهم: «أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم هم أهل التعبد المقيد الذين يعبدون الله على وجه واحد فيما صاحب التعبد المطلق ليس له غرض محدد في تعبده يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهذا هو

١- ابن القيسراني، تذكرة الحفاظ، ٤١٦.

٢- تمام الحديث عن سهل بن سعد الساعدي: سُمع النبي ﷺ يقول يوم خيبر: «لأُعطيّنَ الرايةَ رجلا يفتح الله على يديه» فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى، فغدوا وكلهم يرجو أن يُعطى، فقال: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه، فأمر فدُعيَ له، فبَصقَ في عينيه، فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء. فقال: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يُهدى بك رجلٌ واحد (أي إلى الإسلام من دون قتال، فذلك) خيرٌ لك من حمر النعم. صحيح البخاري، ٢٩٢٤.

٣- جزء من حديث لأبي الدرداء رضي الله عنه، وتمامه: «من سلك طريقا يطلب فيه علما، سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنّ العالمَ ليستغفر له مَن في السماوات ومَن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإنّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يُوَرّثوا دينارا ولا درهما، وَرّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر». انظر سنن أبي داود، ٣٦٤١.

المتحقق بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» حقا، القائم بهما صدقا: ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، (بل هو) حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار... يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها».[1]

في المقابل من ذلك؛ إذا كانت العبادة للّه تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد، وكمال الذل المتضمن معنى التعظيم؛ فإنّ القلب يكون فقيرا بالذات إلى اللّه من وجهين:

أولهما: من جهة العبادة؛ وهي العلة الغائية للدين.

ثانيهما: من جهة الاستعانة والتوكل؛ وهي العلة الفاعلية.

وبذلك يظل العبد مفتقرا دائما إلى حقيقة «لا إله إلا اللّه» وحقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين». فهو مفتقر إلى اللّه من حيث هو المراد المعبود، ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه، ومن ثم لا تتم عبودية اللّه إلا بهذين الأصلين «فمتى كان يحب غير اللّه لذاته أو يلتفت إلى غير اللّه بعينه، كان عبدا لما أحبه ورجاه بحسب حبه له ورجائه إياه. وإذا لم يحب لذاته إلا اللّه، وكلما أحب سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئا إلا اللّه، وإذا فعل من الأسباب أو حصّل ما حصّل منها، كان شاهدا أن اللّه هو الذي خلقها وقدّرها، كان قد حصل

١- مدارج السالكين،١/٨٥-٩٠.

له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك».[1]

ولاشك أنّ الإسلام ليس أفعالا تعد على الأصابع من دون زيادة أو نقصان؛ وإنما هو صلاحية الإنسان للسير في الحياة بينما هو يؤدي رسالة محددة، رسالة الاستخلاف في الأرض وعمارتها. فكما يقول الشيخ محمد الغزالي، رحمه اللّه، فإنّ لكل آلة صلاحية ما، فصلاحية الطائرة للانطلاق، وصلاحية المدفع للقذف، وصلاحية القلم للكتابة، وهذه الصلاحيات هي مناط الحكم على قيمة الأشياء فإذا اطمئننا إلى وجودها (الصلاحية) قبلناها ورجونا ثمرتها. كذلك الإنسان، يريد الإسلامُ أن تسّتقيمَ أجهزتُهُ النفسية أولا؛ فإذا توفرت لها صلاحيتها المنشودة: بصدق اليقين، وسلامة الوجهة، فإن كل عمل تتعرض له في الحياة يتحول من تلقاء نفسه إلى طاعة للّه. ففي شؤون الحياة ليس للأعمال الصالحة حصر تنتهي عنده ولا رسم تخرج فيه، إنما هو إسلام الوجه لله وإصلاح العمل والبلوغ به حد الكمال[2]

وإذا ما انتقلنا من الشيخ الغزالي إلى هنري لنك - أحد فرسان ميدان علم النفس التجريبيّ في القرن العشرين- نجده يحكي في كتابه «العودة إلى

١- قراعة، الأخلاق في الإسلام، ٢٩٥. ولعل ذلك يفسر لنا قول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال خردلة من إيمان» (سنن أبي داود، ٤٠٩١) ؛ ذلك لأنّ الكبر ينافي حقيقة العبودية، ومقتضاها الذل والخشوع والانكسار لله، ومن هنا كان شعار أغلب العبادات، كالصلوات والآذان والأعياد والحج، هو التكبير، ولذا أيضا ربط المولى عز وجل استجابتهُ الدعاءَ بعدم التكبر، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠) ابن تيمية، مجموع فتاوى، ٢/٣٢٥-٣٢٨. أضف إلى ذلك أيضا أنّ كمال عبودية الإنسان لله لا يتحقق إلا ببراءته من الشرك، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٦). ولما كان الكبر مستلزما للشرك، كان الشرك ضد الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾. (النساء: ٤٨)

٢- محمد الغزالي، هذا ديننا، ص١٠٢.

الإيمان» حادثة طريفة مفادها أنّ أحد طلاب جامعة برنستون الأمريكية، ممن شاهدوا اللافتة الموجودة في مدخل الجامعة والتي تحمل حكمة سقراط الخالدة «اعرف نفسك»، بادرَ بشطبها مُستبدلا إياها بالجملة التالية: «هذّب نفسك»! وفي تعقيبه على تلك الحادثة يؤكد لنك أنّ الجملة الأخيرة تلخص كلّ مكتشفات علم النفس الحديث، التي تخلُصُ إلى تقرير أنه لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجعة، أو الخلق القويم، عن طريق التأمل الباطنيّ؛ وإنما عن طريق تدريب النفس، أي تهذيبها والسيطرة على شهواتها.[1]

وبذلك نفهم أن ربط شيخ الإسلام ابن تيمية معنى العبادة بالمحبة لم يكن أمرا عبثيا وإنما تم عن قصد ومعرفة بمكانة العبادة في الإسلام، بحكم أنها تمثل الغاية التي خلق اللّه لها العباد من جهة أمر اللّه ومحبته ورضاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) فهي: «اسم يجمع كمال الحب للّه ونهايته، وكمال الذل للّه ونهايته، فالحب الخلي عن ذل، والذل الخلي عن حب، لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين (معا)».[2] خاصة ونحن نعلم أنّ المحبة للّه تعد أرفع منازل أهل الصدق قاطبة، وهو ما عبر عنه شقيق البلخي بالقول: «إنّ المنازل التي يعمل فيه أهل الصدق أربع منازل: أولها الزهد، والثاني الخوف، والثالث الشوق إلى الجنة، والرابع المحبة للّه (تعالى)».

يرتبط خلق الإنسان، ومن ثم العبادة، في الإسلام ،إذن، بتزكية النفس وتربيتها، ذلك أن اللّه «أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته، ولبروز آثار قدرته،

١- هنري لنك، العودة إلى الإيمان، ترجمة ثروت عكاشة، الطبعة الثانية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م)، ص ٣٦.

٢- ابن تيمية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، تحقيق: قصي محب الدين بن الخطيب، الطبعة الثانية، (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٣٩٩هـ)، ص ٦٤. وفي تفسير الآية السابقة قيل: ليعبدون أي يوحدون، وقال ابن عباس: ليعرفوني. وهو معنى قوله تعالى: «كنت كنزا مخفيا لا أُعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني». قارن بـ زبد خلاصة التصوف، ٧٧.

وتدبير حكمته، وليكون ذكره ومدحه مرددا على القلوب، وعلى ألسنة الخلق والخليقة، لما علم في غيبه، فأنبأنا في تنزيله، فقال جل ذكره: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾(الجاثية: ٢٢)، فأعلمنا لما خلق، فقال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ قال أهل اللغة: إلا ليوحدون، ومثل ذلك قوله تعالى: «إياك نعبد» يعني نوحد».[1]

فإذا اكتمل التوحيد قلبا وقولا وعملا، استقرت المعرفة بأنه واحد، واطمأن قلب المؤمن.

ومن أجل ذلك ترتبط شمولية العبادة في الإسلام بالإنسان ارتباطا مباشرا من أجل أن تحقق له توازنه الداخلي المنشود، وهذا النظام ليس مقصورا على الصلاة والزكاة والصيام والحج فحسب، بل إنه نظام منفتح على الكون وشامل لكل حركة، ولكل فكر، ولكل شعور، إنه نظام عبادي ومنهج رباني شمل حركة الحياة بأسرها واحتوى كل جزء فيها احتواء يحقق له الانسجام مع نفسه ومع سائر الأجزاء الأخرى.

ولذلك عندما سئل رسول الله ﷺ: ما الذي يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه. ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد». (مسلم: ١٨٧٨) ورغم هذا الأجر العظيم الذي أخبر النبي أصحابه الكرام أنه لا يطيقونه، فإنه أطلق على هذا النوع من الجهاد عظيم الأجر لقب «الجهاد الأصغر» مقارنة بجهاد النفس والذي سماه «الجهاد الأكبر» حين قال بعد عودته من المعركة: «رجعنا من الجهاد الأصغر (القتال) إلى الجهاد الأكبر»!! وفي كل الأحوال؛ ينبغي أن يتحقق التوافق ما بين الظاهر والباطن في كلا الجهادين.

١- الحكيم الترمذي، أدب النفس، تحقيق وتعليق: أحمد عبد الرحيم السايح، الطبعة الأولى، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م)، ص١١.

وحبّ الحصيد؛ إنّ الجهاد الأكبر - بمعناه السابق- يتضمن حركات الإنسان وسكناته كافة ما دام أنه في حال المجاهدة. ولهذا أخبر النبي صلوات اللّه وسلامه عليه أصحابه: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية اللّه، وعين باتت تحرس في سبيل اللّه».(سنن الترمذي: ١٦٣٩) على أنّ الحراسة في سبيل الله لا يفهم منها هاهنا أنّها تقتصر على الرباط في الثغور، أو الجهاد لمحاربة الأعداء فحسب؛ وإنما يتسع معناها لتشمل كل شيء تقريبا: فطالبُ العلم تحرسه الملائكة وهو في طريقه إلى الدرس ذهابا وإيابا، لماذا؟ لأنه يحرُسُ في سبيل اللّه، وكذا الحال بالنسبة لكل من: الطبيب، والمهندس، والمزارع، والتاجر الصدوق، والشرطي الصالح، والإطفائيُّ...إلخ. ولذلك عندما سئل عمر بن عبد العزيز: أي الجهاد أفضل؟ اجاب: جهادك هواك.

ونتيجة لذلك؛ فإن إدراك العبادة في الإسلام يختلف عما هو في كل دين آخر؛ وذلك بحكم كونها «ليستْ محصورةً في أعمال من الخشوع الخالص، كالصلوات والصيام مثلا، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضا. وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم «عبادة اللّه» فيلزمنا حينئذ – ضرورة- أن ننظر إلى هذه الحياة، في مجموع مظاهرها كلها، على أنها تبعة أدبية، متعددة النواحي».[1] ومن هنا نفهم قول اللّه تعالى لمشركي مكة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.(التوبة:١٩-٢٢)

يترتب على هذا الفهم مجموعة من الأمور المهمة برأينا، في مقدمتها: أنه

١- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ٢١.

يجب أن نأتي أعمالنا كلها – بما فيها تلك التي تبدو تافهة لنا- على أنّها عبادات، وأن نأتيها بوعي، وعلى أنّها تؤلف جزءا من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه المولى عز وجل. فموقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل؛ فهو يعلمنا:

أولا: أنّ عبادة الله الدائمة، والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها، هي معنى هذه الحياة نفسها.

ثانيا: أنّ بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلا ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: (١) حياتنا الروحية، (٢) وحياتنا المادية؛ إذ يجب أنْ تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا، لتكون (كلاًّ) واحدا متسقا، خاصة وأنّ الإسلام - باعتباره منهج حياة- لا يكتفي بأنْ يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط، ولكنه يعرض أيضا – بمثل هذا التأكيد على الأقل- للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية. إن الحياة الدنيا لا يُنظر إليها على أنها صدفة عادية فارغة، ولا على أنها طيف خيال للآخرة التي هي آتية لا ريب فيها من غير أن تكون منطوية على معنى ما، ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسها.[1]

وعلى ذلك؛ فإنّ عبادة الله في أوسع معانيها تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية ذاتها، فثمة فرق كبير بين مَن يجاهد في سبيل الله بتأسيس المجتمع الصالح الذي يريده الإسلام، والمتعبد بالعبادات الفردية من دون أن يترتب عليها أثر إيجابي في الحياة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

١- المصدر السابق، ص٢٠-٢١.

وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾.(البقرة: ١٧٧)

وهذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية، فمن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام وحده يعلن أنّ الكمال الفردي أمرٌ ممكن في الحياة الدنيا. إنّ الإسلام «لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات «الجسدية»، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من «تناسخ الأرواح» على مراتب متدرجة، كما هي الحال في الهندوكية، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم. كلا، إن الإسلام يؤكد في إعلانه أنّ الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية، وذلك بأنْ يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته (الشخصية)».[١]

لهذا كله، كان الاكتفاءُ بالعبادات المخصوصة وحدها والاقتصار منها على مظاهرها الخارجية فحسب، وإغفالُ العمل لإقامة ذلك النظام الاجتماعيّ المتكامل الذي دعا إليه الإسلامُ طامة كبرى أصابت المسلمين في دينهم ودنياهم، مع أنهم لا ينفكون يسمعون قول الرسول الأكرم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».(مسلم: ٦٨٥٢) وبالتالي؛ فإنّ «اتخاذ تلك العبادات في مظهرها الخارجي مقياسا للصلاح والتقوى، وإهمال الأخذ بالأسباب التي سنها الله في الكون، يمثل انحرافا خطيرا عن جوهر الإسلام وتشويها لقيمه ومعاييره وانحطاطا عن رسالته الشاملة».[٢]

وفي الحقيقة، لم تكن عبادة الإنس والجن مقصودة في يوم من الأيام من أجل نفع يصل إلى الله سبحانه وتعالى من وراء ذلك، فهو الغني عن

١- المصدر نفسه، ص ٢٢-٢٣.

٢- محمد المبارك، نظام الإسلام، ١٧١.

العالمين، لا تنفعه طاعة طائع ولا تضره معصية عاص، وإنما خلقهم من أجل عبادته «ليكمّلهم بهذه العبادة، وليصل بهم عن طريقها ليكونوا أهلا للقائه سبحانه، والتزود من فيوض رحماته. وقد نوّع لهم سبحانه العبادة، فلم يجعلها على وتيرة واحدة حتى لا يملوا، وحتى يكون في تنوعها تزكية لجوانب متعددة وزوايا مختلفة من الطبيعة البشرية، وحتى تتناسب على تفاوت فيما بينها مع كل الفطر والاستعدادت».[1]

ومع ذلك؛ فإنّ آراء العلماء قد تعددت بشأن تحديد غاية العبادة في الإسلام:

(١) فمنهم من ذهب إلى أنّ غايتها هو تزكية النفس وغذاء الروح، وحجتهم في ذلك أنّ القلب لا يصلُحُ، ولا يُفْلِحُ، ولا يَنْعَمُ، ولا يُسَرُّ، ولا يلتذُّ ولا يطيبُ، ولا يسْكُنُ ولا يطمئنُّ، إلا بعبادة ربِّه، وحبّهِ والإنابةِ إليه، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».[2]

١- عبد الحليم محمود ،ا لصلاة ومقاصدها للحكيم أبي عبد الله الترمذي، تحقيق: حسني نصر زيدان، (القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي، ١٩٦٥م)، التقديم. وانظر أيضا عبد الحليم محمود، أسْرارُ العبادات في الإسلام، رقم ١٤٨ من سلسلة المكتبة الثقافية، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، يناير ١٩٦٦م)، ص٣٢.

٢- انظر ابن تيمية، العبودية، ٨٤، وابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان، ١٩٧/٢، وفخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ٢٤٩/١-٢٥٠. ويركز ابن تيمية بصفة خاصة على تأكيد حاجة العبادة إلى الاستعانة حيث يقول: «وما أكثر ما تستلزم العبادةُ الاستعانةَ، فمَن اعتمد عليه القلبُ في رزقه ونَصْرِهِ ونفْعِه وضره؛ خضع له وذل، وأمّا مَنْ أحبَّهُ القلبُ وأرادهُ وقصدَهُ؛ فقد لا يستعينُه ويعتمدُ عليه إلا إذا استشعرَ قدرتهُ على تحصيل مطلوبه؛ كاستشعار المُحبِّ قدرةَ المحبوب على وصْلِه فإذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه استعانه؛ وإلا فلا؛ فالأقسام ثلاثة: (١) فقد يكون محبوباً غير مستعان، (٢) وقد يكون مستعانا غير محبوب، (٣) وقد يجتمع فيه الأمران. فإذا عُلم أنّ العبد لابد له في كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إلهه، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه؛ - وذلك هو صمده الذي يصْمد إليه في استعانته وعبادته- تبيّن أنّ قوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) كلام جامع محيط أولاً وآخرًا، لا يخرج عنه شيء، فصارت الأقسام أربعة: (١) إما أن يعبد غير الله ويستعينه، (٢) وإما أن يعبده ويستعين غيره، (٣) وإما أن يستعينه – وإن عبد غيره-،(٤) والقسم الرابع: الذين لا يعبدون إلا إياه، ولا يستعينون إلا به». ابن تيمية، مجموع فتاوى، ٣٥/١-٣٦.

(٢) ومنهم مَن يحدد غاية العبادة في الحرية، كالإمام الجنيد و ابن تيمية.

(٣) ومنهم مَن يرى أنّ العبادة محضُ ابتلاءٍ إلهيٍّ يصقل الإنسان، وأنّها ضربٌ من الأمانة التي حملها في الحياة الدنيا.

(٤) ومنهم مَن ينحو إلى تقرير أنّ العبادة حق للّه على عباده، وحجتهم في ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: يا معاذ؛ أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدري ما حق العباد على اللّه؟ قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم»[١]

وفي الحديث القدسي: «يابن آدم إنما هي أربع: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي. فأما التي لي فتعبدني لاتشرك بي شيئا، وأما التي لك فعملك أجزيك به أحوج ماتكون إليه، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين خلقي فأت للناس ماتحب أن يأتوا إليك».

(٥) ومنهم من ربط غاية العبادة في الإسلام بتحصيل الثواب وتجنب العقاب، وحجتهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ

١- رواه البخاري(٧٣٧٣) ومسلم(٣٠). وفي حديث آخر: «إنّ الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَن ولاه الله أمركم». (ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ١٨/١) ويذكر ابن تيمية حديثا مشابها رواه ابن مسعود وزيد بن ثابت ونصه: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»(مجموع الفتاوى، ١٨/١) ويعقب على ذلك بالقول: فقد جمع في هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث؛ وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التي لله ولعباده، وتنتظم مصالح الدنيا والآخرة. وبيان ذلك أن الحقوق قسمان: حق لله وحق لعباده، فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئا، وهذا هو معنى إخلاص العمل لله، وحقوق العباد قسمان: خاص وعام؛ أما الخاص كحق الزوجة والجار فهي من فروع الدين؛ لأن المكلف قد يخلو من وجوبها عليه؛ ولأن مصلحتها خاصة فردية. وأما الحقوق العامة فالناس نوعان: رعاة ورعية؛ فحقوق الرعاة مناصحتهم؛ وحقوق الرعية لزوم جماعتهم.

رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾.(الإسراء: ٥٧) وأن ذلك يتسق مع استغناء المولى عز وجل عن عبادة الخلق حيث أخبرنا سبحانه على لسان نبيه سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾(النمل: ٤٠).

وفي كل الأحوال، فإن من سمات النظام التعبدي في الإسلام أنه «يدور حول تنظيم علاقة العبد بخالقه تنظيما يحقق في المقام الأول علاقة انسجامية ومستقيمة بين العبد وربه، وفي المقام الثاني يحقق التوازن والانسجام المنشودين بين مطالب الروح والعقل والنفس والجسد، ويحقق في المقام الثالث انسجاما كليا بين الإنسان وسائر المخلوقات الأخرى التي يحتويها الكون».[1] فقد جمع القرآن الكريم التفكر والتذكر في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾. (آل عمران: ١٩٠-١٩١)

والحال أنّ القرآن والسنة يفيضان بالدعوة إلى ذكر الله والتفكر في ملكوته دعوة ملحة دائمة بهدف إيقاظ شعور الإنسان ووعيه لما يدور من حوله وصولا إلى الوقوف على موقعه من الوجود والكون، فكلما كان ذكره لله عميقا شاملا غنيا بالمعاني والمشاعر كان وعيه لموقعه الوجودي عميقا وشاملا؛ «فالإخلاص في عبودية الإنسان لله والتحرر من العبودية لسواه على الإطلاق وإفراده بالألوهية واستشعار هذه المعاني استشعارا مستمرا بقدر الإمكان هو المعنى الأساسي والجوهر الأصيل في صلة الإنسان بالله. وأعلى معاني الإنسانية وأرفع درجاتها ليس في سعة العلم، ولا في قوة

١- المحاسبي، فهم الصلاة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، (القاهرة: مكتبة القرآن، ١٩٨٣م)، ص١٩.

الجسم، ولا في حسن التصرف في المجتمع، ولا في الأدب الاجتماعي، وإنما هو في تحقيق معنى العبودية لله في نفس الإنسان».[1]

ومن ثم فإن لشمولية العبادة بهذا المعنى آثارا إيجابية على الإنسان والحياة من بينها: أنها تصبغ حياة المسلم وأعماله بالصبغة الربانية، فتجعله مرتبطا بالله في جميع ما يقوم به في الحياة. فإذا علم ذلك استكثر من كل عمل نافع يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله، وأتقن عمله الدنيوي ابتغاء رضوان الله. ومن الآثار الإيجابية أيضا أن فهم العبادة بهذا المعنى يمنح المسلم وحدة الوجهة، ووحدة الغاية في حياته كلها ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١-١٦٤)

وختاما؛ فإن من المعلوم في شأن العبادات أنها «شعائر توفيقية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها»[2] أي يوقف بها عند الحدود التي حددها الشارع وبلّغها وفعلها ﷺ، فلا مجال فيها للزيادة والنقصان، ولا لتقييد مطلقها أو إطلاق مقيدها، ولا لأي نوع من أنواع التبديل والتغيير.

ومعنى ذلك كله: أنّ جوهر العبادة في الإسلام هو نفسه جوهر الدين من حيث هو اعتقاد في المقام الأول. كما يعني أيضا أنه لا قيمة للعبادة بصورها الظاهرة من دون توافر هذه الأمور الروحية الباطنة؛ فإذا كانت الأعمال الظاهرة مطلوبة بوصفها داخلة في الدين، من حيث أنها تعبير عن طاعة الله، فإنها لا تساوي شيئا بغير أعمال القلوب التي هي من أصول وقواعد الإيمان.[3] خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن غاية العبادات تكمن في التطهر من أدران النفس «فالصوم ثمرته تطهير النفس، والزكاة ثمرتها

١- المبارك، نظام الإسلام، ٧٠-٧١.

٢- العقاد، حقائق الإسلام، ١٠٨.

٣- ابن تيمية، التحفة العراقية، ٣٧.

تطهير المال، والحج ثمرته وجوب المغفرة، والجهاد ثمرته دخول الجنة، والصلاة ثمرتها إقبال الله على عبده؛ ففي الإقبال جميع ما ذكرنا من تطهير النفس والمال ووجوب المغفرة ووجوب الجنة».[1]

والحال، أننا إذا ما دققنا وبحثنا عن الاتجاه الروحي للعبادة في الإسلام، فلن نعجز عن أن نرى أن وجهتها القرب من الله، ووسيلتها تطهير النفس من أدرانها وجعل الحب سببا من أسباب هذا التطهير، ألا ترى كيف ربط المولى عز وجل بين الصلاة وتزكية النفس والذكر في قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٥) ففي الصلاة ذكر لله ومراقبة له فيما نصنع كما أن فيها نهيا عن الفحشاء والمنكر من قول أو عمل.

ومما يدل على ذلك؛ ورود العديد من الآيات القرآنية التي ارتبطت فيها العبادات بالعمل الصالح كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة: جزء من الآية ٨٣)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٣)، وغيرها كثير..

فمن اللافت للنظر في هذا السياق أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بإقامة الصلاة وليس فقط بأدائها وهو ما يتقاطع مع إقامة الدين كله لله كما أخبرنا بذلك حين قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ

١- الترمذي، الصلاة ومقاصدها، ٤-٥.

وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾.(الشورى: ١٣) فهؤلاء الرسل هم أولو العزم الذين أخذ الله ميثاقهم ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾.(الأحزاب: ٧) فكأن في إقامتها إقامة للدين كله، وإذا كان الله قد أمر الأولين، والآخرين؛ بأن يقيموا الدين، ولا يتفرقوا فيه؛ فإن الدين الذي اتفقوا عليه هو الأصول، فتضمن الكلام أشياء:

أحدها: أنه شرع لنا الدين المشترك، وهو الإسلام والإيمان العام، والدين المختص بنا؛ وهو الإسلام، والإيمان الخاص.

ثانيها: أنه أمرنا بإقامة هذا الدين كله المشترك، والمختص، ونهانا عن التفرق فيه.[1] وبما أن الإسلام في أسمى معانيه لا يخرج عن معنى «الاستسلام لله»؛ فإن هذا الاستسلام لا يتأتى بتمامه إلا من خلال الإخلاص والصدق في الإقرار بالعبودية لله تعالى. ولذلك قيل في تفسير قوله سبحانه: «إياك نعبد وإياك نستعين»: إياك نعبد إخلاص العبادة، وإياك نستعين أفضل ما طلب به العباد حوائجهم.[2] ففي كثير من التفاسير ينصرف مفهوم الإسلام إلى معنى الخضوع والاستسلام لله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾؛(الأنعام: ١٤) أي «أن أكون من الخاضعين لما يبدو في ميادين القدرة».[3]

يتحصل مما سبق إذن؛ أن الإسلام، بمعنى الشهادة، لا يفي وحده

١- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١/١٣-١٤.

٢- العياشي، تفسير العياشي، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، (قم: المطبعة العلمية، ١٣٨٠هـ)، ١/٢٢.

٣- المصدر السابق، ٤٨.

بالتحقق بهذا الأصل الإيماني العظيم على هذا النحو الأخير، إذ لا يكفي الإقرار بالشهادتين عن طريق اللسان وإنما تحقيق معنى الاستسلام ظاهرا وباطنا في آن معا، وبالتالي الترقي إلى درجة الإيمان حسب ما ورد في حديث جبريل عليه السلام للنبي ﷺ حين سأله عن معاني، أو بالأحرى مراتب، الإسلام والإيمان والإحسان، بحيث «لا يرتقي أحد في درجات العبودية حتى يحكم فيما بينه وبين الله أوائلَ البدايات. وأوائل البدايات هي الفروض الواجبة والأوراد الزكية ومطايا الفضل وعزائم الأمر؛ فمن أحكم على نفسه هذا، منّ الله تعالى عليه بما بعده».[١]

في مرتبة الإيمان هذه لا ينفك عمل الجوارح الظاهرة عن عمل الجوارح الباطنة بحال من الأحوال. ومن هنا نفهم تعريف ابن القيم للإيمان بأن «ظاهره قول باللسان وعمل بالجوارح الظاهرة، وباطنه كذلك تصديق بالقلب وانقياد ومحبة الله، (إذ) لا ينفع ظاهر لا باطن له».[٢] فالمسلم لا يبلغ درجة الإحسان هذه إلا بما يملأ نفسه من الخشية والمراقبة: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك».(البخاري: ٥٠) حيث الخشية سراج للقلب، والخوف أدب للنفس، ومن يجمع المعنين في ذاته فهو من: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾(الرعد: ٢٠) ومن ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(الرعد: ٢١-٢٢) وهو أخيرا – وليس آخرا- من الذين يخاطبهم المولى عز وجل بالقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾. (الرعد: ٢٤)

واستنادا إلى ما سبق؛ عدّ المودودي الأخلاق في الإسلام أربع مراتب هي:

١- السابق، ص ٦٩.

٢- ابن قيم الجوزية، الفوائد، الطبعة الأولى، (القاهرة: المكتبة القيمة، ١٤٥٠هـ)، ص٨٥.

الإيمان، والإسلام، والتقوى، والإحسان. وهي كلها مرتبة ترتيبا فطريا بحيث كل تالية منها تتولد من سابقتها ولا تؤَسَسُ إلا عليها. فما دامت الطبقة الأولى منها غير محكمة متقنة، لا يكاد يخطر بالبال أن تُبنى عليها الطبقة الثانية. فالإيمان بمنزلة الأساس في هذا البناء، وهو الذي تقوم عليه طبقة الإسلام، ثم تشيد على طبقة الإسلام طبقة التقوى فطبقة الإحسان.[١]

وهذا الإحسان في واقع الأمر هو عبارة عما يجعل المرء متفانيا في الإسلام من صلة قلبية بالله ورسوله وحب متأصل ووفاء صادق وبذل للمهج وتضحية بالنفوس والنفائس. فتصور التقوى الأساسي يقوم على خشية الله وخوفه، وهو الذي يستحث المرء على اتقاء سخطه. وأما الإحسان فتصوره الأساسيُّ هو حب الله الذي يحمل المرء ويحضه على ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى[٢]

فإذا كان جوهر الدين والعبادة أمرا واحدا، بحسب ما تقدم، فإن ذلك يعني أن الدين والقيم/الأخلاق أمران لا ينفصلان ما دامت الأعمال القلبية ضرورة ملازمة لكافة صور العبادات، وما دام معنى الإيمان نفسه لا يتحقق إلا بارتباط الجوارح الظاهرة والباطنة معا. لذا لا تنفصل العبادة في الإسلام عن هذا الجانب القيمي الذي هو أساس الدين ومن هنا

١- أبو الأعلى المودودي، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، (جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م)، ص ٣٩.

٢- المصدر السابق، ٥٣. ومن أجل أن يفرق المودودي بين التقوى ومقام الإحسان الذي هو أعلى طبقات الإسلام وأرفعها؛ يضرب مثلا بموظفي الحكومات: فمنهم من يقومون بأداء ما يلقى إليهم من الواجبات بكل شعور بالتبعة وإجهاد النفس ويواظبون على جميع ضوابط الحكومة وقواعدها، وبإزائهم طبقة أخرى من المخلصين الصادقين الأوفياء الذين ينتصرون للحكومة بأنفسهم وأموالهم ولا يقتصرون على أداء ما يلقى عليهم من الواجبات فيعملون ويجتهدون بموجب هذه النزعة أكثر مما يطالبون به. فهؤلاء هم محسنون للحكومة وأولئك متقون لها ولا شك أن المتقين يرفعون درجات، إلا أن المحسنين هم الذين ينعمون بأعلى الدرجات التي لا تتطلع إليها أعناق المتقين ولا غيرهم. وهكذا الحال بالنسبة للإسلام؛ فالمتحلون بالتقوى، وإن كانوا رجالا يوثق بهم ويعتمد عليهم، ولكن قوة الإسلام وحيويته الجوهرية إنما تتجمع وترتكز في المحسنين وحدهم، ولا ينهض بالمهمة التي يريدها الإسلام في هذا العالم إلا هذه الطبقة دون غيرهم.

كان تأكيد الأستاذ الإمام في «رسالة التوحيد» على أن الدين يعد من أقوى العوامل المؤثرة في أخلاق العامة والخاصة على حد سواء،[1] وأن الله لم يفرض من الأعمال إلا لما أوجب من التحلي بمكارم الأخلاق.[2]

فليست العبادات في الإسلام ضرائب تُجبى، أو واجبات تُقضى، ولكنها مظهر الصلة بين العبد وربه، وجسر الوصال بين الله وخلقه، فضلا عن أنها مظهر من مظاهر تكريم بني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء ٧٠)، وثمنٌ لتحمل الأمانة التي ألقاها الإنسان – بمحض إرادته– على عاتقه ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.(الأحزاب: ٧٢)

ومما لاشك فيه أن سر الارتقاء الروحي والجماعي الذي أدركه صحابة رسول الله ﷺ، إنما يكمن في أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح، فلم يشعروا في الفعل له بما يشعر به الكثيرون من عنت وتكلف، ولا بما يعانون من شرود وحيرة. فهناك طبيعتان في الإنسان غير منكورتين: الإعجاب بالعظمة، والعرفان بالجميل. وجوهر العبادة ودوافعها هو القيام بحق الشكر للخالق الذي لا تعد نعمه ولا تحصى، ودافع الشوق والرغبة التي تملأ القلوب والنفوس، وليست طاعة القهر والإذلال أبدا. وأسلوب القرآن يربي في المسلم هذه المعاني، ويقيمهم على عبودية الحب والتفاني، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار بالإحسان.[3]

وفي المحصلة؛ ينبغي أن تنعكس آثار العبادات على سلوك المؤمن في حياته

١- محمد عبده، رسالة التوحيد، ضمن، الأعمال الكاملة، ٥٣٧/٣.

٢- المصدر السابق، ٤٦٨/٣.

٣- انظر محمد الغزالي، فقه السيرة، (القاهرة: دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص ١٤٨-١٥٠.

وعلائقه بالناس فمالم تكن العبادة على مثل هذا النحو فإنها تصبح بمثابة صورة بلا روح، أو هيكل فارغ بلا مضمون.

ثانيا: الدلالات الروحية للتوحيد والإيمان.

أكد القرآن الكريم في غير ما موضع قيمة الإيمان بالله وما لها من آثار نفسية كبرى يأتي في مقدمتها بث الشعور بالسكينة والراحة والاطمئنان. فأصل السكينة «الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات».[1]

وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» في القرآن في ستة مواضع، كلها تفيد معنى الطمأنينة[2]؛ منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.(البقرة:٢٤٨) ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(التوبة: ٢٦).

ففي السكينة حياة القلب ونوره معا، وفيها ما فيها من الثبات في الإرادة والعزم على الطاعة. ولعل ذلك هو معنى الزيادة في الإيمان المقصود في قوله تعالى: «لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ». ومن ثمراتها الخشية والوقار. ويكفي أن القلب المؤمن المطمئن إلى ربه لا تصيبه الهموم ولا تركبه الوساوس المتعلقة بالرزق، فهو مطمئن إلى وعده تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾(الإسراء: ٣٠)، ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ

١- مدارج السالكين، ٢/٢٠٧.

٢- وهذا ما صرح به ابن عباس رضي الله عنهما حين قال: «كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة». ومما يدل على ذلك ترادف معناهما، إذ تعني الطمأنينة أيضا «سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه»، وفي الأثر: «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» (رواه الإمام أحمد)، وفيه أيضا: «البر ما اطمأنت إليه النفس» (رواه أحمد أيضا).

رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾.(الذاريات: ٢٢) فالسكينة نعمة، والطمأنينة رخاء يخيب من لا يدركهما في الدنيا والآخرة: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾.(الزمر:٢٢)

يقول صاحب الظلال في تعليقه على هذه الآية: «إنها تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به. وتصور حالها مع اللّه. حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة، والإشراق والاستنارة. كما تصور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها، وعتمتها وظلامها. ومن يشرح اللّه صدره للإسلام ويمد له من نوره، ليس قطعا كالقاسية قلوبهم من ذكر اللّه. وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء».[١]

ففي مقابل الانشراح هنا، ثمة الضيق هناك ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.(الأنعام: ١٢٥) فأشد الناس بلاءً بلاءُ مَن أظلمَ عليه قلبُه، والتبس عليه أمرُه، وخَفيَ عليه قدْرُ مولاه، فهو يترددُ في أمره، متمردا على مولاه، لفقدان نور الهداية عن قلبه، وطلب النجاة من غير وجهه.[٢]

ولاشك أن لعلم الإنسان بوجود الآخرة والحساب الأثر الأكبر في تحديد سلوكه في الحياة. ومن هنا نفهم خطاب القرآن لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم: فمنهم من يحركه الخوف من سوء المصير، ومنهم من يبتغون من وراء عباداتهم رضوان المولى القدير: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾(البقرة: ٢٠٧)،

١- في ظلال القرآن، ٣٠٤٨/٥.

٢- تفسير أبي العباس بن عطاء، ٥١.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

ومن ثم؛ فليس من المعقول أن يتساوى سلوك الإنسان في حال اعتقاده أن ثمة جزاء على ما كسبت يداه في الحياة الدنيا، وسلوك من يعتقد بأن ليس وراء الموت من حياة وأن الأمر يسير على نحو ما قال الدهريون من قبل: «ماهي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر»!! أضف إلى ذلك أيضا؛ أن فكرة رعاية الآخرة والاستعداد للحساب يوم الجزاء عادة ما تقترن في القرآن بأمر أو نهي إلهي: أي مع كل حكم من أحكام الشريعة وكل توجيه أخلاقي. ومن ذلك قوله تعالى في نهاية آيات الميراث: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. (النساء: ١٣-١٤)

يتحصل مما سبق أن الإيمان بالآخرة ومسؤولية الإنسان العظمى بين يدي خالقه يكوّنُ في أعماق النفس دافعًا قويًا إلى فعل الخير والامتناع عن الشر ولذلك جاءت صنوف العبادات كلها مرتبطة بفعل الخير والعمل الصالح في كثير من آيات الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (الحج: ٧٧)

ومثل هذا الشعور النفسي القوي يكون ضامنا لاتباع قواعد الأخلاق والتشريع أكثر من الجزاءات الدنيوية وقواعد الزجر والعقاب المتعارف عليها في دنيا الإنسان. ولذلك الأمر من الشواهد ما يفوق الحصر لو فهم

المسلمون دينهم فهما صحيحا والتزموا بمراقبة أنفسهم وأحوالهم مع الله عز وجل.

ولتقريب هذه المسألة من الأذهان سنضرب لها مثالا بسيطا في مجال العمل، : فلو افترضنا أن المسلم المعاصر يفهم تعاليم دينه الحنيف جيدا، هل سيرضى بأن يعمل فقط بنية الحصول على شكر رئيس أو ترقبا لترقية أو مكافأة من المدير؟ أم أن إخلاصه في العمل ينبع أساسا من التزامه بتعاليم إسلامه الذي يحرم الغش والإهمال ويأمر «إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»؟! فواقع الأمر أن للإيمان العديد من الثمرات الإيجابية في حياة الإنسانية: أفرادا، وجماعات. فعلى المستوى الفردي ينتج الإيمان قوة قاهرة غالبة تتخطى كل الصعاب، خاصة وأن المؤمن بقدرة الله سبحانه يعلم أنها لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.(يس: ٨٢) أضف إلى ذلك أيضا ما يتيحه الإيمان من شعور الإنسان بالغبطة والسعادة واللذة وهو ما عبر عنه أحد السالكين بالقول: «نحن في لذة لو علمها ملوك الأرض لنازعونا عليها بالسلاح»!

فمن المعلوم أن سعادة كهذه تكون مشروطة ومقترنة بالإحساس بالعزة، لأن المؤمن يعلم جيدا موقعه في الوجود وأنه مطلوب ومرغوب من قبل المولى عز وجل في الوقت نفسه الذي يدرك فيه مدى افتقاره واحتياجه لخالقه! ذلك أن المولى سبحانه، وإن كان غنيا عن عبادة المتعبدين وتهجد المتهجدين، إلا أنه لا ينفك يمد يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويمد يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويفرح بعودة العبد العاصي إلى حظيرة الإيمان كما تفرح الأم بعودة ولدها.

وكما لا يخاف المؤمن طغيانَ الطغاة واستكبارَ المستكبرين، لا يقلق المؤمن أيضا على رزقه المكتوب وكسبه المعلوم؛ لأن ذلك كله مرده العليم الخبير

الذي بمقدوره أن يمنح، وبإمكانه أن يمنع، فلا معقب لحكمه في شيء أبدا: إن منعَ منع لحكمة قدّرها، وإن أعطى ومنح فعل ذلك لحكمة يعلمها، وفي كل أولئك يبلغ المؤمن السعادة القصوى عبر القناعة والرضا؛ فأين ذلك الشعور من تنامي المد الانتحاري وازدياد موجات القلق والاضطراب في حياة الإنسان المعاصر نتيجة هزات البورصة وتقلبات السوق وتحكم ثقافة الرأسمالية وتتابع الأزمات الاقتصادية مع ما يعقبها من تحولات في مصائر الأفراد، ومآلات الجماعات؟

ولو أدرك هؤلاء أن الأمر كله بيد الله – مع ضرورة السعي في الأرض والأخذ بالأسباب- لعلموا أن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾(المدثر: ٣٨)، ولعلموا أيضا أنه «ما من قلب إلا وهو معلق بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه، و(أن) الميزان بيد الرحمن، يرفع أقواما، ويخفض آخرين، إلى يوم القيامة «(السيوطي: الجامع الصغير/ ٨٠٨٤) وما كل ذلك إلا لحكمة يعلمها، وفائدة نجهلها ولكننا مدعوون بقوة لاستكناه سرها والأخذ بسننها حتى نفيد من الدروس ونتعظ من المحن ونتعلم درس الحضارة الأول الذي بينه المولى عز وجل في قصص الكتاب: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.(يوسف: ١١١)

وبذلك يكون المؤمن مستحقا للسيادة والخلافة في الأرض تبعا لأدائه الأمانة بصدق وإخلاص: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.(النور:٥٥)

وأما على المستوى الجماعي؛ فتوفر الأنماط المختلفة من العبادات فرصة لانتظام الجماعة المؤمنة في صف واحد، وحركة واحدة، وسعي واحد، يضم القدم السوداء إلى جانب القدم البيضاء، ويسوي بين مناكب الجميع من دون تفرقة واضحة أو حتى مضمرة ما بين غني وفقير، رفيع الشأن ووضيع بحسب معايير الخلق! ولاشك أن هذا النمط من التجمع التعبدي يعد تعبيرا صادقا على الإيمان برب واحد، مع ما يتضمنه ذلك من الاجتماع على محبته، وطاعته، وقد طرح كل واحد منهم أسباب التفاوت الدنيوي وراء ظهره، مستقبلا القبلة الواحدة، ومتوجها لرب واحد.

ففي الصلاة مثلا، نجد تشجيعا وتأكيدا على ضرورة الالتزام بصلاة الجماعة التي توجب الأجر المضاعف وتبز صلاة المفرد بسبع وعشرين درجة؛ فإذا «كان الغني فيهم قد استحق أجرا (مضاعفا) على تواضعه الذي ضمه إلى صف فيه من (هو) دونه غنى ومالا، فإن الفقير منهم يستحق الأجر المضاعف (أيضا) على استناده واعتزازه بعزة الله التي كتبها لذاته وللمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ (المنافقون: ٨)، تلك العزة التي جعلت هذا الفقير الضعيف يضم نفسه إلى جوار الأغنياء والعظماء في صف الصلاة وهو معتز بإيمانه بعزة الله، إيمانا جعل الفوارق (الطبقية) بين الناس تنتهي، وتذوب في حسن العبودية لله».[1]

وبما أن الصلاة هي العبادة الأولى، والعبادة الكبرى، فسنبدأ بإلقاء الضوء على ما تتضمنه من قيم روحية كبرى، خاصة وأنها بمثابة المنظم لحياة المسلم وللحياة الإسلامية كلها، وهي مظهر حياة الإسلام وحيويته، فضلا عن أن كثيرا من أصول التكليف وفروعه تعد امتدادا لأصولها، ناهيك بأن التكليف كله ينسجم مع الصلاة ويتكامل معها، ويعتبر انبثاقا عنها، «فالصلاة هي محل التركيز الثاني بعد التوحيد في دعوة رسول الله ﷺ، وهي

١- تأملات مسلم في جوهر العبادات، ٤٧.

للقلب البشري وللحياة البشرية دواء وغذاء وارتقاء... فالطهارة والنظافة تتكاملان، كما أن بين الصلاة والتكاليف الأخلاقية تكاملا، فالصلاة بما فيها من خضوع لله تنفي الكبر والعجب، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وبين ستر العورة في الصلاة وسترها خارج الصلاة صلة وتكامل، وبين إعمار المساجد حسًّا ومعنًّى، وبين الذكر والعلم وصلاة الجماعة والجمعة صلة وتكامل».[١]

١- سعيد حوَّى، الأساس في السنة وفقهها، القسم الثالث، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ١/١٧٩.



الفصل الثالث

القيم الروحية للصلاة

قصد الإسلام من وراء العبادات كلها التكوين الروحي والخلقي لجماعة المؤمنين، ولذلك نجد القرآن الكريم يشير إلى أثر الصلاة، على سبيل المثال، في تطهير النفوس وصلاحها بالقول: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٥) ويقول المولى أيضا في حديثه القدسي: «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصرا على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب؛ ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتي، وأستحفظه ملائكتي، أجعل له في الظلمة نورا، وفي الجهالة حلما، ومثله في خلقي كمثل الفردوس في الجنة». (الترغيب والترهيب: ١/٢٤٩)

هذا وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن المراد من الصلاة ليست مجرد الأعمال الظاهرة، كقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (الماعون: ٤-٧)، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣)، وقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾. (المؤمنون: ١-١١)

وإذا أردنا أن نعقد مقارنة سريعة بين الشروط الأربعة الواجب توافرها

في الصلاة – بحسب ما جاء في الحديث القدسي- وما يقابلها من صفات المؤمنين الواردة في الآيات الأخيرة، لوجدنا أن الخشوع في الآية يقابله التواضع في الحديث: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ/ إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي)، وأن الإعراض عن اللغو في الآية يقابله عدم الاستطالة على الخلق في الحديث (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ/ ولم يستطل على خلقي)، وأن الحرص على دفع الزكاة في الآية يقابله عدم الإصرار على المعصية في الحديث (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ/ ولم يبت مصرا على معصيتي).

وهكذا بالنسبة لحفظ الفروج ورعاية الأمانات والحفاظ على الصلوات في الآيات يقابلها: الاستغراق في الذكر، والرفق بالمسكين وابن السبيل والأرملة والرأفة بالمصاب في الحديث. أما نتيجة هذه الأعمال كلها؛ فوراثة الفردوس كما ورد في الآيات، على حين يبشر الحديث بانتفاع الخلق به كما ينتفعون بنور الشمس، ودخوله في كلأ الله وعنايته، وضمان حفظ ملائكته، وأن يجعل له في الظلمة نورا، وفي الجهالة حلما، وأن يصير في الخلق كمثل الفردوس في الجنة!

ولذلك فرضت الصلاة على المؤمنين إقامة وتنفيذا لمقتضياتها التي تجعل العبد في سلسلة متصلة الحلقات ما بين تنفيذ عهود الصلاة وتطبيق مقتضياتها. ولارتباط الصلاة بالتطهر الأخلاقي ذكرها القرآن الكريم في بداية وصفه جماعة المؤمنين بالعديد من الآداب الخلقية كما ختم بها تلك الأوصاف أيضا، وكأنه أراد بذلك أن يجعلها مقدمة لاكتساب تلك الآداب وثمرة لها في الآن نفسه.

ففي سورة «المؤمنون» جعل سبحانه أول أوصاف المؤمنين الخشوع في الصلاة وآخرها المحافظة عليها، وفي سورة «المعارج» بدأ الأوصاف بذكرها وختم بها أيضا.

بل إن المولى عز وجل عبر عن الصلاة بلفظ الإيمان حين قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣) أي صلاتكم، حيث وردت الآية في سياق السؤال عمن صلى قبل تحويل القبلة، وإنما سميت الصلاة إيمانا لأنها تذكر بكل معاني الإيمان، وعن إقامتها تنبثق شعب الإيمان. يقول صاحب الظلال في تفسير هذه الآية: «...ثم يُطمئنُ المسلمينَ على إيمانهم وعلى صلاتهم. إنهم ليسوا على ضلال، وإن صلاتهم لم تضع، فاللّه سبحانه لا يعنت العباد، ولا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه ولا يشق عليهم في تكليف يجاوز طاقتهم التي يضاعفها الإيمان ويقويها.. إنه يعرف طاقتهم المحدودة، فلا يكلفهم فوق طاقتهم وإنه يهدي المؤمنين، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان، حين تصدق منهم النية، وتصح العزيمة. وإذا كان البلاء مظهرا لحكمته، فاجتياز البلاء فضل رحمته: «إِنَّ اللّه بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ» .. هذا يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين».[1]

ومما يدل على هذا المعنى أن اللّه سبحانه وتعالى إذا أورد تكليفه للمؤمنين بالصلاة أورده إقامة مفروضة ولم يكتف بأن يورده أداء مثل الزكاة على سبيل المثال. وعلى ذلك؛ فالصلاة لن تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر إلا إذا جعلها المصلي قيّمًة على سلوكه كله، أي أن تضمن له فاعلية التقويم الدائم والمحاسبة المستمرة لسلوكه وأفعاله مع الناس. ولعل في حديث أنس بن مالك الذي يحكي فيه قصة عبد اللّه بن عمرو بن العاص ما يؤكد هذا الأمر، ونصه:

«كنا جلوسا مع رسول اللّه ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد تعلق نعليه بيده الشمال،

١- في ظلال القرآن، ١/١٣٣.

فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ تبعهُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيتُ (خاصمتُ) أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا، فإنْ رأيتَ أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت، قال: نعم، قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر، فلما مضت الثلاث ليال وكدتُ أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبى غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث المرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليتُ دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجدُ في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه، قال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق».[1]

ليس غريبا إذن، والحال هذه، أن تجد العلماء يوجهون من تسلل إلى قلوبهم غلّ أوحسد، أو كبر، أو رياء، إلى الحذر من مغبة هلاك أعمالهم: «كن سالم الصدر، وأنقص من صلاتك ومن سائر أعمالك ولاتقم إلا بالمفروض، وبما تأكد من المسنون، ولاتزد شيئا، إذ لا ينفعك كثرة أعمالك مع خبث قلبك، ولو عملت ما عملت، إنما تنفعك سلامة صدرك مع ما فرض الله عليك، وأقل عمل يكفيك معها، ولا يكفيك صيام نهارك وقيام ليلك

١- انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد البنا، ومحمد عاشور، وعبد العزيز غنيم، (مصر: دار الشعب، مصر، دون تاريخ)، ٩٥/٨. والعراقي، المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٠م)، ٢٣١/٣.

أو عبادة دهرك كله مع مرض قلبك، واستغراقك فيما يكره الله منك».[1]

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلا بعدا»، كما ورد عنه أيضا أنه: «لاصلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر». (تفسير القرآن العظيم: ٦/٢٩٠) وفي رواية أخرى: «الصلاة مثنى مثنى، تشهد في كل ركعتين وتباؤس وتمسكن وتُقنع يديك وتقول: اللهم اغفر لي. فمن لم يفعل ذلك فهو خداج».[2]

وبالتالي؛ فإنه يتعين على من يود أن يعلم ما إذا كانت صلاته قبلت أم لم تقبل؟ أن ينظر إليها: هل نهته عن الفحشاء والمنكر أم لا؟ فبقدر ما تنهاه عنهما بقدر ما تقبل منه. خاصة وأن القرآن الكريم قد ورد بثبوت هذه الخاصية للصلاة في أغلب الآيات المتعلقة بها. وعليه؛ فإن أي صلاة تخلو منها تكون خداجا.

وفي كل الأحوال؛ فمما لاشك فيه أن لحضور القلب في الصلاة مراتب ثلاثة:

١) فقد يحضر بكله – حقيقته وسره، ظاهره وباطنه- عند كل صلاة.
٢) وقد يكون حاضرا بظاهره عندها وباطنه مشغول بشيء آخر.
٣) وقد يكون حاضرا بباطنه عندها وظاهره مشغول بشيء آخر.

فالفاقدة بجميع مراتب الحضور هو عملُ الساهي والنائم ونحوهما، وأما فاقدة الروح من جميع الجهات وجميع مراتب الروح، فهي التي لا تؤثر في النهي عن الفحشاء أبدا، لا في جزئيّ ولا في كليّ. وأما واجدة في بعضها، فلامحالة تؤثر بقدر ما فيها من الروح. ولذلك؛ روي عنه ﷺ أنه قال: «إن

١- رسائل العربي الدرقاوي، ١٥٠.

٢- انظر سنن الترمذي، ٢/٢٢٥ حديث رقم ٣٨٥، وأبو داود ٢/٢٩ كتاب الصلاة: باب صلاة النهار حديث رقم ١٢٩٦، وابن ماجة ١/٤١٩ حديث رقم ١٣٢٥.

من الصلاة لَما يُقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العُشْر، وإن منها لما يُلّفُ كما يلف الثوب الخَلِق فيُضرَبُ بها وجهُ صاحبها، وإنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك»، وفي رواية أخرى: «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها».(١)

يتحصل مما سبق؛ أن الصلاة تعد بمثابة الخط الواصل ما بين السماء والأرض، ما بين العبد وخالقه «فالصلاة من الصلة، وهي تربط العبد بربه، وتقوده إلى رضوانه، وتمهد له الطريق إلى العناية الربانية، وهي لأهميتها لا تسقط عن الإنسان حتى في حالة الحرب، وعند التقاء الجيوش، وفي ساحة القتال. يقول رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعملوا وخير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».(٢) ولهذا اتفق العلماء على كراهة قراءة القرآن في الركوع والسجود، لأنهما مخصصان للتسبيح والدعاء، فالذكر والدعاء فيهما أفضل لقول النبي ﷺ: «نُهيتُ أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمين أن يُستجاب لكم».(مجموع الفتاوى، ٣٢/٥٨).

والواقع أن الصلاة تتضمن العديد والعديد من الدلالات الروحية والخلقية السامية؛ فضلا عن أنها واحدة من أهم العبادات التي يتقرب بها العبد إلى خالقه وهو ما يعكسه بقوة قول النبي ﷺ: «الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين»(ضعيف الجامع: ٣٥٦٦)، وقوله: «أحب الأشياء إلى الله عز وجل: الصلاة لوقتها، ومن ترك الصلاة فلا دين له».(السابق:١٧٠)

ولا أدل على ذلك أيضا؛ من أنّ الإقرار بعقيدة الإسلام يُبنى – بعد

١- الترغيب والترهيب: ١/١٩٨.

٢- رواه ابن عبد البر عن مالك بن أنس في، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ٢٤/٣١٨. وانظر: عبد الحليم محمود ، الصلاة ومقاصدها للحكيم أبي عبد الله الترمذي، مصدر سابق.

الإقرار بالشهادتين- بالصلاة والزكاة والصيام وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى الزكاة مقارنة للصلاة غالبا في أكثر من آية، إيعازا بمقارنة التطهير الروحي للصلاة بتطهير المال وتطهير النفس بإخراج الزكاة واقتطاع جزء من مالنا لهذا التطهير: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾(سبأ: ٣٩).

ونتيجة لذلك؛ يمكننا القول إن الأحوال التي تكمل بها الصلاة ويحكم العقل بلزومها وورد الشرع بها لاتخرج عن ستة أحوال هي: حضور القلب، والتفهم/التفكر، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء.

أما حضور القلب؛ فلكي لا يغفل عن الصلاة بأن يكون حاضرا عند كل فعل وقول، راعيا حضور ربه وشاعرا وملتفتا بأدائها عنده، بحيث لايشغله الفكر في جزء عند الإتيان بجزء آخر عن هذا المأتيّ الفعلي، وإنما يشتغل عند أداء كل عمل بأنه مأمور من الله بأدائه على النحو الأكمل.

وأما التفهم؛ فيكون بتفكر القلب في المقامات الرفيعة والأحوال البديعة التي تنتج عن الخشوع في الصلاة.

وأما التعظيم؛ فحالٌ منشؤه العلمُ بعظمة اللّه تعالى، وحضوره، وقدرته، فإذا استشعر العبد في صلاته عظمةَ مَن يناجيه في حضوره، وأنه يتفضّل عليه بالقبول فيكرمه إكراما جزيلا، فيدخل حينئذ في حال الرهبة فيقوي قلبه بالرجاء، ويستحي من سوء أفعاله وتقصيره، واستقباله الإحسان بالكفران وجميل الصنائع بقبائح الأعمال فيصل إلى نهاية المطاف،

فبالرجاء والحياء يتمّ الخصال الستّ.[1]

وبما أن الصلاة تتضمن العديد من القيم الروحية كما سبق وذكرنا؛ فإننا سوف نقتصر بدورنا هنا على معالجة خمس قيم رئيسية هي: التطهر، والخشوع، والصبر، والإخلاص، والتضامن.

أولا: قيمة التطهر

لا أدل على ارتباط الصلاة بقيمة التطهر من قول النبي عليه الصلاة والسلام: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم». (أبو داود: ٦١) وقوله كذلك: «لا يقبل اللّه صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول».(مسلم: ٢٠٤/١) ومن هنا كان الوضوء يفيد معنى الوضاءة المعنوية لأنه مشتق منها لغويا، وبما أن الوضوء يكون بالماء فقد اُشترط فيه الطهارة، لأن الماء الطاهر هو الأصل في خَلْق الإنسان وتكوينه «وكأن اللّه تبارك وتعالى يريد أن يكون العبد القائم بين يديه كالماء البرئ الطاهر من الذنوب والمعاصي، وأن يكون وجوده في مجتمعه شيئا نافعا لا ضرر فيه كالماء تماما. أو كأنما يريد أن يتخلص العبد من ذنوبه وآثامه حتى يعود بريئا طاهرا من الذنوب كما كان يوم أن كان ماء بريئا طاهرا لا ذنب له ولا جريمة».[2]

١- التبريزي، أسرار الصلاة، مراجعة وتحقيق: محسن بيدارفر، الطبعة الثانية، (طهران: انتشارات بيدار، ١٤٢٦هـ)، ص١٦٤-١٦٦. ويستطرد في ختام الباب قائلا: «فهذه الخصال الست لازمة في الصلاة من حيث أنها صلاة، وإن كان لبعض أجزائها خصوصية تناسب بعض هذه الخصال أزيد من البعض الآخر، فحال التشهد والسلام لامحالة أنسب للحياء والرجاء من غيرها، وحال القيام والركوع والسجود أنسب للتعظيم والرهبة، ولأجزائها من الأقوال والأفعال كلّ واحد منها حال أيضا مخصوص به، فإن الحمد والتنزيه صفتان للحامد والمسبّح، لازمتان عند الحمد والتسبيح لامحالة، وكذلك الإخلاص لازم لمن يقول: «إياك نعبد»، فإنك لو قلت: «الحمد للّه: معناه أنّ جميع النعم من اللّه ... لا من الوسائط، ومن يكون هذا حاله فلا يتملق على المخلوقين لجلب النعم، وهكذا». ص٧٠-٧١. وفي موضع آخر يذكر أن الحياء خمسة أنواع هي: حياء الذنب، وحياء التقصير، وحياء الكرامة، وحياء الحب، وحياء الهيبة، وأن لكل واحد منها أهلا، ولأهله مرتبة على حدته. ص ٢٦٣.

٢- تأملات مسلم في جوهر العبادات، ١٨.

والمعنى ذاته (ارتباط واقتران طهارة الظاهر والباطن) ملاحظ أيضا في أعطاف الآية الكريمة: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ (الأنفال: ١١)، حيث المقصود بها أن المولى سبحانه «طهّر به ظواهرَ أبدانهم من دنسها، وأنزل عليهم رحمته فنوّر بها قلوبهم وشفي بها صدورهم عن وساوس العدو، وألبس بواطنهم لباس الطمأنينة والصدق».[١]

فمما لاشك فيه؛ أنه ليس أدل على قيمة التطهر في الإسلام بصفة عامة من قوله عليه الصلاة والسلام: «الطهور شطر الإيمان»[٢]، وقوله: «الا أدلكم على ما يمحو به اللّه الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المسجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط ثلاثا. (الموطأ: ١/١٦١) وقوله كذلك: «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

وتأويل ذلك؛ أن النظافة الشرعية وتكرار الاغتسال من الأعمال المتممة لحسن الخلق «ومن عجب أن يقول الإنجليزي بنتام: إن من واظب على الطهارة الشرعية في الدين الإسلامي خلا ظاهره من الذنوب وبرئت نفسه من العيوب، ولقد استقريت المجرمين الذين جمعتهم السجون (الإنجليزية) فلم أر فيهم إلا قذر الجسم وسخ الثياب فالطهارة من محاسن الأخلاق».[٣]

١- تفسير أبي العباس بن عطاء، ٥٤.

٢- رواه مسلم في صحيحه (٢٢٣) عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه، وتمامه: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

٣- طنطاوي جوهري، جوهر التقوى في الأخلاق والتربية، (الإسكندرية: طبع على نفقة زكريا أحمد رشدي، ١٩١٥م)، ص ٣٣-٣٤. على أن ثمة فرقا بين الطهارة والنظافة، وإن اشتركا معا في كونهما مقصودين لذاتهما في الشريعة الإسلامية، فالطهارة: معنى تعبدي من آثارها النظافة ولكنهما لا يتلازمان دائما، فقد يكون الإنسان نظيفا وليس طاهرا أو العكس. وفي كل الأحوال؛ فإن المسلم مطالب بمعرفة أحكام الطهارة والنجاسة، ومطالب أيضا بالطهارة حيث وجبت لعبادة، كما أنه مطالب بالنظافة وبالابتعاد عن كل ما هو ضار وقذر.

على أن الطهارت أنواع، فمنها: الطهارة المعنوية من الشرك والكفر والرياء وسائر أمراض القلوب، والطهارة الحسية المتعلقة بالأبدان. وتبعا لذلك؛ يختلف القدر المطلوب من الطهارة باختلاف العبادة المقصودة لكل إنسان، بحيث «يُطالب أولا بالطهارة من الكفر بأن يُسْلم، فإذا أسلم ودخل وقت صلاة يفترض عليه الطهارة من الحدث الأكبر والأصغر- إلا المرأة إذا كانت حائضا أو نفساء، ... فلفقه الطهارة صلة بتكليفات كثيرة، فله ارتباط بالصلاة لأن الطهارة شرطها الأول، وله صلة بأحكام المساجد وتلاوة القرآن ...، وللطهارة صلة ببعض أحكام الحج (أيضا)».[١]

أخيرا؛ ليس أدل على قيمة التطهر من حديث بلال المعروف عن بريدة بن حصيب، قال: أصبح رسول الله ﷺ ، فدعا بلالا، فقال: يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي! قال: يا رسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عنده، ورأيت أن لله عليّ ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: بهما (إذن). (تخريج مشكاة المصباح: ٢/٧٧)

ومن هنا؛ فإن فعل التطهر - كما أمرت به الشريعة- يتضمن مجموعة من الآداب الظاهرة بالإضافة إلى نظيراتها من القيم العميقة:

١- حوَّى، الأساس في السنة وفقهها، القسم الثالث، العبادات في الإسلام، ٢٥٥/١. على أنه إلى جانب مباحث الطهارة الفقهية، ثمة معان أخرى تتعلق بفقه الطهارة على الصعيد الحضاريّ، وما يرتبط بخيرية الأمة ووسطيتها وشهودها على العالمين: وإلا كيف يمكن الحديث عن الشهود الحضاري لأمة المصطفى عليه الصلاة والسلام فيما تنتشر المزابل في الشوارع والأحياء السكنية، وفيما تثير مناظر الحمامات والمراحيض العامة، وفي المساجد!!، من الاشمئزاز ما يندى له الجبين؟! وكيف نتحدث عن كون النظافة جزءا من الإيمان فيما تلوث مياه الأنهار، النيل على سبيل المثال، بمخلفات الصرف الصحيّ!! وبإلقاء القمامة وجيف الحيوانات النافقة في شتى المصارف والترع!! ألا ينعكس ذلك سلبا على صحة المسلمين ونظافتهم، قبل أن ينعكس سلبا - وبشكل تلقائي- على انطباعات الآخرين عنهم؟! وأين ذلك كله من اعتبار النظافة والطهارة طريقا إلى محبة الله، ألم يقل المولى عز وجل: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾؟!(التوبة: ١٠٨)

أما الآداب الظاهرة التي يتعين العمل بها وجوبا واستحبابا؛ فقد أفاضَ القولَ فيها الفقهاء وفي مقدمتها: أن يجلس بحيث لا يَرى عورته مَن يحرُم نظره إليها، وأن يغسل مخرج البول بالماء، وأن يرتاد الموضع المناسب لقضاء حاجته، وأن يقدم الرجل اليسرى عند الدخول، واليمنى عند الخروج، ومنها التسمية والدعاء عند الدخول بالتعوذ من الخبث والخبائث، وعند الخروج بالحمد من ذهاب الأذى، ومنها أن يتّقي موارد المياه، والطرق النافذة، ومساقط الثمار، ومواضع اللعن كأبواب الدور والمقابر وأفنية المساجد والماء الجاري...إلخ.

فعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه نهى «أن يبال في الماء الراكد». (رواه أحمد ومسلم) وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «اتقوا اللاعنيْن، قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»(سنن أبي داود: ٢٥)؛ أي الذي يقضي حاجته في الطريق العام أو تحت الأشجار التي يستظلون بها.

وأما الآداب والقيم الروحية العميقة التي يشتمل عليها فعل التطهر، فمن بينها:

(١) أن يتفكر في حقيقة الطهارة وثمراتها، فإذا عرف أن السعادة ظاهرا وباطنا في النظافة، وتفكر فيما ورد فيها من الآيات القرآنية – لاسيّما قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(المائدة:٦) ويضم إلى ذلك قوله تعالى:﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾(التوبة: ١٠٨)، ويعقل معنى حب الله تعالى وما يفضي إليه من سعادة، وكذلك قوله ﷺ «الطهور شطر الإيمان»، إذا عرف ذلك كله استشعر أن المراد من الطهور إنما هو التخلي والتنظيف من موجبات

الأكدار والقذارات عن الظاهر والباطن، ويكون النصف الآخر من الإيمان عبارة عن التحلي والتزيّن بالفواضل والفضائل في الظاهر والباطن.[1]

(٢) أن يعتبر المؤمن عند قضاء حاجته أن الخالص من حطام الدنيا كذلك يصير عاقبته، فيستريح بالعدول عنها، فيتركها ويفرّغ نفسه وقلبه عن شغلها ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافَهُ من النجاسة والغائط والقذر، و أن يتفكر في نفسه المكرَّمة في حال، كيف تصير ذليلة في حال آخر؛ فإن الراحة في هوان الدنيا والفراغ من التمتّع بها، وفي إزالة النجاسة – من الحرام والشبهة- فيغلق على نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها ويفرّ من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه طلبا لحسن المآب وطيب الزلفى، ويمسك نفسه في أجواء الخوف والصبر والكفّ عن الشهوات، إلى أن يتصل بأمان الله في دار القرار، ويذوق طعم رضاه، فإن المعوّل ذلك، وما عداه لاشيء».[2]

(٣) أن يتفكر في لطيف صنعه تعالى في بناء أعضائه، وكيف وضع عورته في موضع مناسب لها تماما، ووجوه حكمة كونها في هذا المحلّ: من تيسّر دفع الأذى والتطهير، مع قربه عن مستقر الأقذار وكونه تحت المعدة، وفي أسّتر موضع من بدنه...إلخ، إذا علم كل أولئك كان لزاما عليه أن يستحي لامحالة من ظهور سوء الصفات الرذيلة من نفسه، التي هي عورات في الحقيقة لروحه ونفسه، فيسترها عن الظهور والبروز في الأعمال والأفعال كما يستر قذارته عن الناس.

(٤) أن يراقب الإنسان جميع أحواله وأعماله بما فيها أدناها، وأن يتفهّم تأثيرها في الوصول: إما إلى التوفيق والإلهام، وإما إلى الخذلان والخسران. ففي الحديث الشريف الذي قال عنه الحافظ أبو موسى المديني

١- التبريزي، أسرار الصلاة، ١٠.

٢- جعفر الصادق، مصباح الشريعة، الطبعة الأولى، (بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م)، الباب التاسع في التبرُّز.

أنه «حسن جدا» وقال عنه ابن تيمية أنه من أحسن الحديث، يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «إني رأيت البارحة عجبا: رأيت رجلا من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه ... ورأيت رجلا من أمتي والنبيون جلوس حلقا حلقا كلما دنا منهم طرد، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده وأجلسه إلى جنبي».[1]

(٥) أن يتدبر معنى ارتباط الجنابة بفريضة الغسل، وأن ذلك يجعل للعملية الجنسية حدودا واقتصادا في استهلاك البدن الذي يستوجب عناية واقتصادا في استهلاكه. فمن عظيم لطف المولى عز وجل أنه ما رضي أن يهمل أمة محمد ﷺ في الغفلة من فوائد الحكمة والذكر والدعاء والعبرَ في مثل هذه الأحوال، ولعل ذلك هو ما قصده اليهودي الذي قال لسلمان الفارسي، رضي الله عنه،: «قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء، حتى الغائط! فقال: أجل. لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول. أو أن نستنجي باليمين. أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار. أو أن نستنجي برجيع أو بعظم».(مسلم: ٢٦٢) وفي الحديث: «ماتركت شيئا يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد بينته لكم».[2] فإذا وُفق الإنسان لموافقة مراد الله تعالى في جميع وجوه الحكمة والذكر والعِبرة في تخليته والدعاء، أثّرَ ذلك كلُّهُ في التوفيق لسائر الأفعال والعبادات، وأن يتذكر مما يراه من تبدل المطاعم والمشارب بالأقذار والأدناس سائرَ التغيرات الواردة عليها، وعلى سائر حطام الدنيا التي لاينفك يقتل نفسه عليها حسرات! فيستشعر بسبب ذلك هوان الدنيا وخستها.

١- ابن تيمية، المستدرك على المجموع، ٩٩/١، وابن قيم الجوزية، الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م)، ص ١١٢.

٢- ابن حجر العسقلاني، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق: غنيم بن عباس غنيم، الطبعة الأولى، (الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ)، ٣٦٧/١.

(٦) أن يتفكر في نعمة الله في خلق أسباب التطهير من الماء ووجه الأرض، ومنة الله على هذه الأمة بالسمحة السهلة من الشريعة فلا يتجاوز حدود الله بالوسوسة والتضييق على نفسه، ويتفطن بمعرفة أنّ العبرَة بتطهير الباطن وطهارة القلب وأن التطهر من الأخباث الظاهرية مقدمةٌ لتطهير القلب. حيث ينبغي للعبد أن يميط عن نفسه كل أذى ووسخ يبعده عن ربه عز وجل، ومن ذلك: تطهير جوفه بتخليته عن فُضلة طعامه وشرابه، فيقوى بذلك التطهير من رؤية الأسباب والمسبّبات، كما هو فائدة الوضوء، ويصير هذا عنوانا/مقدمة لتطهير قلبه من جميع الأدناس، وللبراءة من نفسه ومن الناس أجمعين.

(٧) أن يتذكر المؤمن – فضلا عما يجب عليه من التماس للبراءة والطهر الذين يتذكرهما برجوعه إلى الماء ليتوضأ به- أنه مهما بلغ من درجات العلو في الدنيا، فإنما هو أصلا من ماء مهين خلقه الله منه وكونه ورباه وأنعم عليه ثم كلفه بتلك العبادة تنظيفا وتطهيرا وعبرة وموعظة بالماء الذي خلق منه رب الكون كل شيء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. (الأنبياء: ٣٠)

(٨) أن يتذكر عند التيمم بالتراب مدى حاجته وافتقاره للمولى عز وجل، وأنه مهما بلغ من منازل الدنيا ودرجاتها العليا فإن أصله من الطين والتراب! وكأنما يخاطب مولاه بلسان حاله عند التيمم قائلا: اللهم أشهدك وأشهد كامل خلقك أنني رهن إشارتك وطوع أمرك حتى ولو كان (أمرك) ضربا لوجهي بالتراب! وبهذا يتضمن كل تيمم «جذبا فعليا للعبد المؤمن إلى درجات التعبد والتواضع لعظمة الله جل جلاله، وفيه أيضا إبعاد للعبد عن خصال الكبر الممقوت الذي يوجب حرمانه من رحمة الله لتكبره وتعاليه عن فرائض الله عليه»[١] كما هو حال إبليس بالنسبة لأمر السجود.

١- تأملات مسلم في جوهر العبادات، ٢٠.

يتحصل مما سبق؛ أن ثمة طهارة للبدن وأخرى للقلب: فالطهارة تارة تكون من الأعيان النجسة وتارة من الأعمال الخبيثة، وتارة من الأحداث المائعة،ذلك أن هيئة المظهر وحسن الهندام، وكذلك هيئة الصلاح والتقوى ليست إلا قشورا لا قيمة لها في ميزان الله، مادام القلب بعيدا عن الإيمان، فالإسلام يطلب الإخلاص والتجرد والاستقامة إلى جانب نظافة الظاهر، وهذا هو معنى إرادة التطهر في الآية ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾(التوبة: ١٠٨).

ولعل ذلك هو ما دفع ابن عطاء الله الأدمي ، في تفسير آية الوضوء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(المائدة: ٦)، إلى القول: «إن البواطن مواضع النظر من الحق، لأنه روي عن المصطفى ﷺ أنه قال: إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم. فموضع النظر إليّ بالطهارة أحق، فطهارة الظاهر هي تطهير الأعضاء الظاهرة الأربع لاتباع الأمر والاقتداء، وطهارة الباطن (تكون) عن الخيانات والجنايات وأنواع المخالفات وفنون الوساوس والغش والحقد والسمعة (الرياء) وغير ذلك من أنواع النواهي أحق (بأن يُتطهَرُ منه)».[1]

ولاشك أن الصلاة تتضمن الأنواع الثلاثة من الطهور الذي اختُلِفَ في معناه: هل هو بمعنى الطاهر أم لا؟ فقال كثير من أصحاب مالك وأحمد

١- تفسير أبي العباس، ٤٧.

والشافعي «الطهور متعد، والطاهر لازم»، وقال كثير من أصحاب أبي حنيفة: «الطاهر هو الطهور»، فالطاهر يتناول الماء وغيره، وكذلك الطهور، ولهذا فإن النبي ﷺ جعل التراب طهورا.[1]

وفي كل الأحوال؛ فإن الإسلام حرص أشد الحرص على أن يكون المسلم طاهرا في الظاهر والباطن معا، فأكد على وجوب التطهر وحبّب في لوازمه. خذ مثلا مسألة الروائح الزكية التي حث الإسلام على التطيب بها تجد عشرات الأحاديث التي تدور حول هذا الأمر، من بينها: ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن عُرِضَ عليه طيب فلا يرده، فإنه طيب الريح خفيف المحمل»(سنن أبي داود: ٢٧١٤)، وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «أطيب طيبكم المسك». (السابق: ٨٥١٣)

وواقع الأمر؛ أن النبي ﷺ لم يكتف بذلك فحسب؛ وإنما حرص على تأكيد أن التعطر والتزين والتجمل أعمال لا تدخل في باب الكبر، فعن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا. قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق، وغمط الناس». (مسلم: ١٩) بل إن هذه الأمور تعد عبادة يثاب عليها المسلم إذا ما واظب عليها، وآية ذلك ما ورد من نهي النبي ﷺ أصحابه الاقتراب من المسجد لمن أكل منهم الثوم والبصل وما شابه «من أكل الثوم، والبصل، والكراث: فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم». (متفق عليه)

فإذا ما تم للمسلم التطهر من أقذار البدن شرع في الوضوء؛ وهو كسابقه يتضمن عددا من الآداب الظاهرة والآداب العميقة: أما الأولى فمن بينها: إسباغ الوضوء، والتيامن، والدعاء عند البدء وعند الانتهاء منه، وعدم الإسراف في استخدام الماء...إلخ. كما أن الوضوء يجب لعدد من العبادات

١- قراعة، الأخلاق في الإسلام، ٣١٠.

على رأسها: الصلاة، والطواف، ولمس المصحف وقراءة القرآن في بعض الروايات.

وأما الآداب والقيم العميقة فمنها: ما يتعلق بالدعاء عند الوضوء، بأن يتأدب الإنسان في جميع أحواله وأفعاله بما علّمه الشارع من ذكر الله تعالى بما يناسب هذا الحال وهذا الفعل. ومنها ما يتعلق بحكمة استخدام الماء الذي هو عنوان رحمة الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. (الأنبياء: ٣٠)، فكما أحيا به كل شيء من نعيم الدنيا، كذلك بفضله ورحمته جعل حياة القلوب بالطاعات، وكما أن رحمته تُطهِّرُ ذنوب العباد، فكذلك الماء يطهر كافة أنواع النجاسات الظاهرة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ٤٨-٤٩)

فالماء وحده يؤدي كل شيء حقه من دون أن يتغير عن معناه وهو ما عبر عنه الحديث الشريف: «مَثلُ المؤمن الخالص كمثل الماء»، أي في صفوه ونقائه ورقته وبركته وطهوريته ولطيف امتزاجه بكل شيء، كما أن المؤمن كالماء في صفاء عبادته وإخلاصها لوجه الله تعالى فقلبه عامر بالتقوى طاهر بالإخلاص كما تتطهر الجوارح بالماء.

ليس غريبا إذن، والحال هذه، أن يتحدث علماء التزكية في الإسلام عن ما سموه بـ «عمل القلب في الوضوء»، ومن ذلك قول المحاسبي تحت هذا العنوان: «... وأنت في أخذك الماء معظمٌ لله عز وجل بقلبك في طهارتك له. وإن استطعت تجديد نية التوبة من الذنوب (مع كل وضوء) لتجمع بين طهر التوبة وطهر الوضوء فعلت، لأن الله سبحانه جمعهما فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، وتأمل في كل عضو تغسله وتمسحه تكفير ما أصبت من الذنوب بجوارحك لما جاء في ذلك».[١]

١- الترمذي، فهم الصلاة، ٤٢-٤٣. وانظر: ابن تيمية، الفتاوى، ٢/١٨٤-١٨٥.

وتبعا لذلك؛ تعد الطهارة الباطنة المدخل الرئيس لشرح الصدر الذي هو، بحسب الحديث النبوي الشريف: «نور يُقذَفُ في القلب فينشرح منه الصدر، وعلامته: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود. فعن ابن مسعود رضي الله عنه: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ (الأنعام: ١٢٦)، فقال: إن النور إذا دخل الصدر انفسح. فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علم؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله». (المستدرك: ٤/٣١١) فكما أن طهارة الجوارح ترفع الموانع من دخول المسجد والصلاة، كذلك طهارة السرّ عن مقتضيات هذا العالم المادي المحسوس ترفع الموانع عن الإنابة إلى دار الخلود، أي إلى دار السلام وجوار المولى عز وجل.

أضف إلى ذلك أيضا؛ ما في الوضوء من طرد للكسل، وذهاب للنعاس، وتزكية للجوارح والفؤاد عبر إعدادها للقيام بين يدي الله عز وجل. ناهيك باشتماله على غسل الوجه واليدين والرأس والرجلين التي يقوم بها بين يدي الجبار: فبوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل ويرغب، وبرأسه يستقبله في وقوفه وركوعه وسجوده، وبرجله يقوم ويقعد. وبهذا يصبح الوضوء إعدادا واستعدادا، تمهيدا ومقدمة للصلاة التي وُضعت أفعالها إظهارا للعبودية وسبيلا لتطهير الموحدين، وسترا لمساوئ أعمالهم التي يأتونها أطراف الليل وآناء النهار مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾. (هود: ١١٤)

يتحصل مما سبق؛ أن التطهر يلحق بكل من الأبدان والأرواح معا: فتطهر الأبدان يكون بإسباغ الوضوء حيث روي عن أبي سعيد الخدري قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: إن ربكم يقول: مَن تطهر في بيته ثم مشى إلى صلاته تعظيما لحقها، ورغبة فيها، وإيثارا لها على غيرها، فله عهد عندي: ألا أعذبه أبدا. ومن

يترك صلاة استخفافا بحقها ورغبة عنها وآثر عليها غيرها: فلا عهد له عندي وهو في المشيئة إن شئت عذبت وإن شئت عفوت».[1] فتطهر الأرواح يكون بالتوبة النصوح، والرجوع الأبدي إلى حضرة المولى عز وجل بعد طول عصيان.

والحال أن الإنسان إذا ما التفت إلى عدم إهمال الشارع لترتيب غسل الأعضاء في الوضوء والغسل وغيرهما، علم من ذلك عزّة الحكمة الإلهية، وأنّ لها في كل شيء مجرى وحِكَمًا في أهمّية أمر المراقبة في جزئيّات حركاته وسكناته، وإذا اهتم بذلك وعمل بما علمه من وجوه الحكمة في الأفعال يورثه الله علم ما لايعلم من الحكمة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. (البقرة: ٢٦٩) فتطهر الأرواح يكون بالتوبة النصوح، باليقين الذي يورث التقوى، ولا يتم ذلك إلا بالرجوع من مكروه الله إلى رضاه، وبالانتقال من البعد عنه إلى القرب منه، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل والضلال إلى العلم والمعرفة، ومن الشقاوة إلى الهناء، ومن الحيرة إلى الثبات، وأخيرا من ذل المعصية إلى عز طاعة الله.

فأول التوبة الاستغفار المتضمن علما وحالا وعملا: أما العلم فأن يعلم أن الحال الذي هو فيه مورث الشقاوة أو مانع من السعادة. وأما الحال: فالتحسُّر بالشقاء، وقصد السعادة الباطلة في الماضي والحاضر، والاستقبال والرغبة بالتدارك في الأحوال الثلاثة. وأما العمل: فبالرجوع والخروج عما كان، والعزم لإدامته فيما يكون.

وعلى ذلك؛ فالاستغفار درجة العليين، «وهو اسم واقع على ستة معان: أوّلها الندم على ما مضى، وثانيها: العزم على ترك العود إليه أبدا، وثالثها: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس لك تبعة، ورابعها: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتودّي حقّها، وخامسها: أن تعمد إلى

١- الترمذي، الصلاة ومقاصدها، ٢٤.

اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتّى تُلصقَ الجلدَ بالعَظم وينشأ بينهما لحم جديد، أما سادسها: فأن تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقتَهُ حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله».[١]

ومن هنا نفهم السر في تقسيم سلطان العلماء العز بن عبد السلام التوبة إلى ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة «فمَن تاب خوْفَ العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب رجاءَ مثوبة فهو صاحب إنابة، ومن تاب حفظا وقياما بالعبودية لا رغبة في الثواب ولا رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة، فالتوبة صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١) ففي هذه الآية إشارة خاصة وبشارة عامة: أما البشارة فهو علم العصاة والطائعين والموافقين والمخالفين بلفظ الإيمان وسماهم مؤمنين لئلا تتمزق قلوبهم من خوف القطيعة، وأما الإشارة الخاصة ففيها أمرهم مع طاعتهم بالتوبة لئلا يعجبوا بطاعتهم ويصير عجبهم حجبهم فتساوى في ذلك الطائع والعاصي، ولذلك قال ﷺ: «توبوا فإني أتوب إلى الله في اليوم والليلة مائة مرة».[٢]

يترتب على ما سبق أنه إذا كان الوضوء بمثابة مفتاح الصلاة؛ فإنه ليس عملا آليا روتينيا يأتيه الإنسان غافلا عما وراءه من معان روحية سامية، خاصة ما يتعلق منها بطهارة البدن والروح في آن معا، بل إن العبد المؤمن ليستشعر في قرارة نفسه فيما هو يتوضأ أن هذا الوضوء ليس طهارة لجوارحه فحسب؛ وإنما طهارة لنفسه وروحه من الآثام التي تلحق بهما، ولعل ذلك هو مقصود الآية الكريمة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم

١- الإمام علي، نهج البلاغة، وهو ما اختاره أبو الحسن محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين علي، شرح الإمام الشيخ: محمد عبده، تحقيق وتعليق: محمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البنا، (القاهرة: كتاب الشعب، الكتاب الثاني، ١٩٦٨م)، حكمة رقم ٤١٥، ص٤٢٠.

٢- العز بن عبد السلام، زبد خلاصة التصوف، ٤٢، والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» (كتاب الدعوات رقم ٦٣٠٧).

مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.(المائدة: جزء من الآية ٦)

ومن الأسباب الداعية إلى شكر المولى عز وجل ما وعد به سبحانه وتعالى عباده المطهرين من خير عميم بسبب المحافظة على الطهارة بمعناها الشامل: طهارة الروح والبدن. ففي حديث نبوي شريف يُشبّهُ النبي ﷺ طهارة الصلوات الخمس بمن يغتسل في نهر خمس مرات في اليوم، يقول عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا، ما تقول: ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيئا. قال: فذلك مَثَلُ الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا».[1] وفي حديث آخر يقول ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره».(مسلم: ٥٤٢)

فالصلاة في صميمها هي عبارة عن إقبال العبد على ربه بقلبه وجميع بدنه، وقد توضأ فاحسن الوضوء واستقبل القبلة بقلبه، وقدم على ربه، وجاهد كلا من وساوس الشيطان ووساوس النفس، أملا في أن يكفّر المولى عز وجل سيئاته ويمحو خطاياه. ومع أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ إلا أنه إذا حصل من بعضهم أنهم لا ينتهون رغم ذلك عن إتيان مثل هذه المنكرات، فذلك لأنهم لا يؤدونها على وجهها الأتم، ولا يقيمونها كما أمرهم المولى سبحانه في كتابه الكريم.

خاصة؛ وأن المقصود من إقامة الصلاة تأديتها بكامل شروطها وأركانها

١- صحيح البخاري: ٥٢٨، وفي رواية مسلم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ في المسجد ونحن قعود معه، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدا، فأقمه عليّ، فسكت عنه رسول الله ﷺ، ثم عاد، فسكت عنه، وأُقيمت الصلاةُ، فلما انصرف رسول الله ﷺ، تبِعَهُ الرجل، فاتّبَعْتُه أنظرُ ماذا يَرُدُّ عليه، فقال له: «أرأيتَ حين خرجتَ من بيتِك، أليس قد توضأت فأحْسَنتَ الوضوء؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «ثم شهدت الصلاة معنا؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «فإن الله قد غفر لك حدَّك» — أو قال: «ذنبك».

وواجباتها الظاهرة والباطنة، مع مراعاة الخشوع فيها والانسلاخ من شؤون الدنيا ومتعلقاتها. ولذلك فسّر ابن عطاء الله قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (البقرة: ٣) بقوله: إن المراد بإقامتها حفظ حدودها مع حفظ السرّ مع الله، وهو أن لا يختلج بسرّك سواه.[١] وتبعا لذلك؛ فإن القلب يخشع «بما يتجلى له من عظمة الله عز وجل وجلاله، ويهيج من النفس الخوف والخشية والحياء منه، فيوجل القلب، فإذا خافت النفس وخشيت، فوجل القلب واستحيا، سكنت الجوارح، وملك القلب جوارحه، ووقف بها على الحدود».[٢]

وخلاصة القول: إن قيمة التطهر تعد من أهم القيم الروحية التي تتضمنها الصلاة، غير أن المقصود بالتطهر يشمل المعنى الفقهي المتعارف عليه عند الفقهاء، والذي هو شرط ضروري لصحة الوضوء ومن ثم الصلاة؛ ويتجاوزه إلى التطهر الأخلاقي بحيث يصبح ذلك الشرط بمثابة خصيصة لا تنفك عنها الصلاة في كل حركة من حركاتها، وبحيث تلازم المصلي في قيامه وركوعه وسجوده على حد سواء.

ثانيا: قيمة الخشوع.

تفيد لفظة «الصلاة» ،لغة، معنى الذكر والانقياد. وإذا كان الذكر والفكر والدعاء أرقى أنواع العبادة في الإسلام؛ «فإن أرقى صيغ الأداء للذكر والفكر والدعاء هي الصلاة، لأنه اشترط لها شروطا خاصة، وتُؤَدَى على هيئة خاصة، فاجتمع للذكر والفكر والدعاء فيها مالم يجتمع في غيرها (من

١- تفسير أبي العباس، ٣٦. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران: ٣٩) يقول: «ما فتح الله تعالى على عبد من عبيده حالة سنية إلا باتباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب»، ص٤١.

٢- الترمذي، كتاب الرياضة، ضمن كتاب، أسرار مجاهدة النفس، وهما الكتابان المسميان بالرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي، دراسة وتحقيق: إبراهيم الجمل، (القاهرة: دار المشرق العربي، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، ص ٥٠.

العبادات)».[1] ولهذا تتضمن مراحل الصلاة كافة ذكرا ودعاء لله، أي جوهر العبادة في الإسلام، فقد رأينا فيما سبق ما يتضمنه الوضوء والتطهر من هذين المعنيين، وبالإمكان أيضا إبراز هذين المعنيين بالنسبة للآذان الذي يلفت الانتباه فيه كونه يبدأ بلفظة «الله أكبر» ويقدمها على «لا إله إلا الله» رغم ما ورد من أنها خير ما قاله النبي ﷺ والنبيون من قبله!

والواقع الذي لا لبس فيه أن لهذا التقديم مغزاه العميق لجهة كونه يعبر عن إرادة الله سبحانه في أن «يتذكر العبد المؤمن أن كبرياء الله أعظم من أي شاغل يشغله عن الاستجابة الفورية لهذا النداء. وكأنما يقول المؤذن في هذا النداء المرتب بتشريع الله: الله أكبر من أي كبير يشغلكم عن الصلاة، فهلموا إلى الكبير المتعال واتركوا مالا يصلح أن يشغلكم عن سرعة التلبية التعبدية له».[2] ولعل ذلك هو ما دفع بأحد العارفين بالله إلى أن ينبه أحد تلاميذه قائلا: «ويلك تقف في الصلاة وتقول: الله أكبر وأنت تكذب في قولك، الخلق في قلبك أكبر من الله عز وجل»[3]

على أن الاستجابة – فيما يؤكد ابن عطاء الله- لا تكون إلا على أربعة أوجه هي: إجابة التوحيد، وإجابة التحقيق، وإجابة التسليم، وإجابة

١- حوّى، الأساس في السنة وفقهها، القسم الثالث: العبادات في الإسلام، ١٧٩/١. وإنما كان للذكر هذه المكانة في الإسلام لأنه يعبر عن عبادة الوجود كله، حيث قال سبحانه في شأن ملائكته: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٠)، وفي شأن عبادة الكون كله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ (الإسراء: ٤٤)، وقال أيضا: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ (النور: ٤١)، كما أن الغاية من الصلاة تتحدد بالذكر أيضا: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (طه: ١٤) وعلى ذلك يجتمع في الصلاة أرقى عبادات الملائكة والمرسلين أجمعين.

٢- تأملات مسلم في جوهر العبادات، ٢١-٢١.

٣- الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، تحقيق وضبط: أحمد عبد الرحيم السايح، توفيق علي وهبه، الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م)، ص ١٢٧-١٢٨. وقارن بالمحاسبي، فهم الصلاة، ٥٢.

التقريب.[1] أما الحكيم الترمذي؛ فقد نحى إلى التأكيد بأن مَن كبّر «فقد سلم الكبر إلى الله، وتبرأ منه، ووضع نفسه لكبريائه؛ فإذا وضع نفسه رفعه الله لأنه صار في صورة العبيد، والله يحب عبيده ما داموا له كهيئة العبيد، فإذا تجبروا مقتهم لأن ذلك منهم كالمضاهاة».[2]

أضف إلى ذلك أيضا؛ ما في ارتباط هذه الشعيرة العظيمة بوقت محدد من عبرة وقيمة «الانضباط»، مما يحث المؤمن على ترك كل تسويف وكل تأجيل من شأنه أن يفوت الصلاة بحجة اتساع الوقت، وهو ما يعد نوعا من المماطلة في الاستجابة لنداء الصلاة، وإخلالا بالمعنى الذي يفيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾. (النساء: ١٠٣)

على أن هذا المعنى يرتبط ارتباطا عميقا بمفهوم «الإقامة» الذي حدده المولى عز وجل شرطا لصحة الصلاة. فكأنه أراد بذلك أن يذكر المؤمنين بأن وقت الإيفاء بالعهود والمواثيق التي اشترطها المؤمن على نفسه قد حان بإعلان وقت الصلاة. ويترتب على ذلك أنّ مَن يؤدي الصلاة، صورة وشكلا، ولا يقيمها، ظاهرا وباطنا، لا يعتبر مقيما لها كما شرع المولى، عز وجل، الذي أمر بترجمتها عملا صالحا مع الله ومع الناس.

ومعنى ذلك؛ أن يصبح شكر المصلي في الصلاة معاهدة نصها: «الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِين»، وأن يُترجم هذا الشكر اللفظي إلى شكر عملي باستخدام نعم الله فيما خلقت لأجله استخداما عمليا مفيدا، وأن يصبح الثناء اللائق بالله عز وجل قولا في «الرَّحْمنِ الرَّحِيم» مترجما إلى معاملة الناس جميعا بالرحمة التي عاملنا الله بها. وأن يصبح تمجيده تعالى لفظا في قوله:

١- تفسير أبي العباس، ٥٤. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ (الإسراء: ١١١) يقول: أي عظّم منّته وإحسانه في قلبك، بعلمك بتقصيرك في شكره. ص ٧٨. فكأنّ تكبيرة الإحرام تتضمن إقرارا بتقصير العبد أولا، وتعظيما لله على غفرانه ثانيا، وشكرا له على أن مدّ في عمره وأتاح له شرف الوقوف بين يديه ثالثا.

٢- الترمذي، الصلاة ومقاصدها، ١٣.

«مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ»، مترجما هو الآخر في تعامل العبد مع ربه على أنه مملوك له، وأن يصبح عهدا لعبودية الله الملخص في «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينِ» مترجما إلى عبودية خالصة وفعلية للّه وحده «لا شريك له».

والحال؛ أن هذه العبودية لا تتحقق إلا بكمال طاعته، عز وجل، في كل شيء. وهنالك تصبح الاستعانة به مترجمة إلى وقوف العبد ببابه سائلا، بما يقتضيه ذلك من ضرورة أن يترجم التماس الهداية إلى الطريق المستقيم إلى سلوك مستقيم فعلي، وهكذا تصبح وقفة الصلاة بمثابة وقفة تجديد للعهود مع اللّه، وتصبح فواصل الزمن بين كل صلاة وأخرى مجالا لتطبيقها، وترجمتها إلى واقع فعلي في السلوك والأخلاق، في الأخذ والمعاملة، في الدنيا والدين.[1]

وإذا كانت الصلاة في عرف الفقهاء عبارة عن: «أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير المقرون بالنية، مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة».[2] حيث أمر الحق سحانه وتعالى عباده أن يقيموها: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٣) فإن إقامتها تتضمن أيضا إقامة العديد من الأوامر الإلهية الأخرى، كالزينة تبعا لما جاء في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١)، والوضوء مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ (المائدة: ٦)، والقنوت لقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨)...إلخ.

وإذا كان القيام يعني المثول بين يدي اللّه للخدمة والعبادة وإظهار العبودية بالقلب والجوارح معا، فإن كمال مثول القلب أن يكون ذاكرا

١- تأملات مسلم في جوهر العبادات، ٢١-٢٣.

٢- محمد أمين الكردي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، خرّج أحاديثه وحرّر بعض أحكامه وزاد بعض أبواب الفقه وغيره: الشيخ نجم الدين الكردي، حققه وعلق عليه وشرح عباراته وقدم له: محمد نجم الدين الكردي، (جزءان)، (القاهرة: المكتبة الكردية، ٢٠١٠م)، ٣٢٢/١.

لله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾(الشعراء: ٢١٥-٢٢٠)، وأن يكون خاشعا في كل حركاته وسكناته: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾. (المؤمنون: ١-٢)

أما كمال البدن؛ فيتحقق بأن يكون على طمأنينة وسكون وهيبة وحياء، مطأطأ الرأس، ناظرا إلى موضع السجود، مستشعرا القصور والتقصير في جنب اللّه، مستجمعا همته لأداء حق العبودية قدر الإمكان، ذاكرا هول المطلع، مقدرا في نفسه أنه حاضر بين يدي اللّه. ونتيجة لذلك؛ فسّر مجاهد قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾(الفتح: ٢٩)، بالخشوع والتواضع، فالخشوع قريب المعنى من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن، والخشوع في البدن والبصر والصوت، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾. (طه:١٠٨)

والأمر الجامع في ذلك أنه إذا كان الأصل في العبادات كلها أن تخشع الأبدان نتيجة خشوع القلب وذلته وانكساره؛ فإن الصلاة تعد من أعظم العبادات التي يظهر فيها هذا الأمر بوضوح تام؛ نظرا لأنه يجسد في واقع الأمر حقيقة العبادات كلها على اختلاف صورها. وأول ما يلزم أن يظهر فيه أثر الخشوع هو النية لأنها تتضمن قصد العبادة: إما حبا للّه، أو خوفا منه، أو رياء الناس.

فالقصد في العبادة إذن النية والإخلاص اللذان يعدان بمثابة «جوهر التقوى». ولعل ذلك هو ما دفع بابن عطاء اللّه لأن يفسر قول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٢) بالقول: «إن حقيقة التقوى في الظاهر محافظة الحدود،

وباطنها النية والإخلاص».[1] ومن هنا أيضا؛ نفهم حديث رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله؛ ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».(سنن أبي داود: ١٠٢٢) إذ لا تصح نية مَن أصبح وأكبر همه الدنيا ،فورث قلبه شغلا لا فراغ له منه أبدا، وهما لا ينقطع عنه أبدا، وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا، وفقرا لا ينال غناه أبدا.

الخشوع إذن هو المظهر الأرقى لصحة القلب، وارتفاعه يعني خراب قلب المسلم، مع ما يجره ذلك من أمراض خطيرة وأحوال شريرة، فمتى غُلب القلب بالأمراض فَقَدَ التطلع إلى الآخرة، ومتى وصل إلى ذلك الحال فلا صلاح له لأن حب الدنيا تمكن من قلبه، وحب الدنيا يعقبه التنافس عليها، والتنافس عليها لا يقوم به أمر الدين ولا الدنيا!! وقد روى المنذري عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أول شيء يُرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعا».(الترغيب والترهيب: ١/٢٥٠)

والحال؛ أن الوقوف على آيات الذكر الحكيم يفضي إلى نتيجة مفادها أن الأصل في المسلم أن يكون خاشعا في الصلاة وخارجها وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾(الإسراء: ١٠٧-١٠٩) «وغيره من الآيات.

أما الأحاديث؛ فيكفي ما رواه أبو داود عن عقبة بن عامر، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «يَعْجَبُ ربكم من راعي غنم في رأس شَظِيَّة للجبل يُؤَذِّنُ بالصلاة ويصلي، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدي هذا، يُؤَذِّنُ ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة».(سنن أبي داود: ١٢٠٣)

١- تفسير أبي العباس، ٤٣.

هذا ويفيد لفظ الخشوع لغة معنى قريبا من الخضوع، إلا أن الخضوع يكون في البدن ويقصد به الإقرار بالاستخذاء، فيما يكون الخشوع في البدن والصوت والبصر ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾.(القلم: ٤٣) قال ابن دريد: الخاشع المستكين والراكع، وقال الراغب: الخشوع الضراعة، وأكثر ما يُستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، على حين أن الضراعة أكثر ما تُستعمَلُ فيما يوجد في القلب؛ ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح.

أما معناه اصطلاحا فهو: قيام القلب بين يدي المولى عز وجل بالذل والخضوع، وقيل معناه: الانقياد للحق، وقال عنه الجنيد: الخشوع تذلل القلب لعلام الغيوب. وفي كل الأحوال؛ فإن أصل الخشوع «لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له، كما قال ﷺ: «ألا إنّ في الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

وتأويل ذلك؛ أنّ جميع حركات الأعضاء وسكناته ناشئة من أثر أحوال القلب وصفاته، كما أنّ أحوال القلب أيضا منشؤها: إما ما يؤثر فيه الظاهر – من أعمال الجوارح، لاسيّما الحواس-، أو ما يؤثر فيه من الباطن؛ كالخيال والشهوة والغضب...إلخ. فإذا أدرك بحواسّه شيئًا حصل منه أثر في القلب، إن خيرا فنور وصفاء، وإن شرًّا فظلمة وكدر، وكذا إذا هاجت الشهوة مثلا بقوة المزاج وكثرة الأكل، فإن لها أثرًا في القلب. وبهذا ينتقل القلب من حال إلى حال، دائما في التغيّر والتأثّر بما يرد عليه من آثار الأسباب؛ ومن هنا نفهم سر دعاء النبي عليه الصلاة والسلام: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي علي دينك»(سنن الترمذي: ٣٥٢٢)، فقلوب العباد «بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ».

أما أصل الخشوع الحاصل في القلب؛ فيتأتى من معرفة الله عز وجل

«فمَن كان بالله أعرف كان له أخشع. على أن القلوب تتفاوت رغم ذلك في الخشوع بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع:

(١) فمن خاشع لقوة مطالعته قرب الله تعالى من عبده وإطلاعه على سره وضميره المقتضي للاستحياء من الله ومراقبته في الحركات والسكنات،

(٢) ومن خاشع لمطالعته جلالَ الله وعظمته وكبرياءه المقتضي لهيبته،

(٣) ومن خاشع لمطالعته كماله وجماله المقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته،

(٤) ومن خاشع لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه.

وهو سبحانه جابر القلوب المنكسرة لأجله؛ يتقرب من القلوب الخاشعة له كما يتقرب ممن يناجيه في الصلاة وممن يعفر له وجهه في التراب والسجود. ولا أدل على ذلك من أن موسى عليه السلام، حين سأل المولى عز وجل: أي رب أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم، إني أدنو منهم كل يوم باعا، ولولا ذلك لانهدموا».[١]

ولأجل هذا ربط ابن القيم نقصان الخوف من الله بنقصان معرفة الله، وحجته في ذلك: أن نقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأَعْرَفُ الناس به أخشاهم له، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفا وخشية، فالخوف من أجلّ منازل الطريق إلى الله، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهم به أليق، ولهم ألزم، فإن العبد: إما أن يكون مستقيما،

١- ابن رجب، الخشوع في الصلاة، ٤٦-٤٧ والحديث منقول عن كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل. وفي رواية أخرى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، أنا عند المندرسة قبورهم لأجلي». انظر ملا علي قاري: الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، تحقيق: محمد لطفي الصباغ، الطبعة الثانية، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ)، ص ١٣٧.

أو مائلا عن الاستقامة، فإن كان مائلا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف. «فالخوف لعامة المسلمين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية... فصاحب «الخوف» يلتجئ إلى الهرب، والإمساك. وصاحب «الخشية» يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم».[1]

ولأن الخشوع في الصلاة وفي الأعمال جميعها مرتبط بالقلب؛ فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه ردّ رجلا إلى صلاته ثلاثا لِما رآه من عدم خشوعه، فقال الرجل بعد الإعادة الثالثة: والذي بعثك بالحق ما أُحْسِنُ غير ذلك، فعلمني. فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا قمت إلى الصلاة فكبّر، ثم اقرأ ما تيسّر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها».(صحيح البخاري: ٦٢٥١) حيث عبّر ﷺ عن الخشوع بالاطمئنان إلى الاستواء في الركوع أو السجود، وهو – على ما يبدو- أقل درجات الخشوع الظاهري منزلة.

أما سلطان العلماء العز بن عبد السلام؛ فقد أشار بدوره إلى ارتباط الجوارح بالقلب وأثر ذلك في الخشوع لله، حيث قال: «واعلم أن السالك إذا صدق في توبته لزمته المجاهدة واستعمال جوارحه في الطاعات. فإذا داوم العبد المجاهدة أثمرت له حركات ظاهرة وبركات باطنة فإن حركات الظاهر توجب بركات الباطن لأن الله سبحانه جعل بين الأجساد والأرواح رابطة ربانية وعلاقة روحانية فلكل منهما ارتباط بصاحبه وتعلق به يتأثر بتأثر صاحبه. فإذا عملت الجوارح بالطاعة أثر ذلك على قلبه فيخشع قلبه وتصفو روحه وتزكو نفسه وإذا أخلص القلب بالطاعة أثر ذلك على جوارحه فاستعملها في طاعته.

١- مدارج السالكين، ٤١٧/١.

ألا تراه عليه السلام يقول لذلك الرجل الذي رآه يعبث في صلاته: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»، وفي الأثر: «من أخلص لله أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». فلزوم المجاهدة يوصل إلى الخشوع المطلوب. ألا تراه سبحانه وتعالى يقول لنبيه وحبيبه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾(الإسراء: ٧٩) فإذا كان مقصود الوجود لا يصل إلى المقام المحمود إلا بالركوع والسجود، فكيف يطمع بالوصول مَن ليس له محصول»؟![1]

ومعلوم أن الخشوع المقصود، هنا، مبني، في الأساس، على المجاهدة وصد داعيات النفس والدنيا.

ومع أن الخشوع يعد السمة الأبرز للصلاة؛ إلا أنه لا يقتصر على وقت الصلاة فحسب؛ وإنما يتسع ليشمل جميع الخطوات التي تسبقها وتتبعها في آن معا. ومن هنا نفهم قول الحارث المحاسبي لأحد مريديه: «...ثم تمشي إلى صلاتك بالخشوع والإجلال لمن تريد أن تقف بين يديه وتناجيه وتسأله وتتعرض لرضوانه وغفرانه».[2] وهذا الاتساع لمعنى الخشوع في كل ما يسبق الصلاة ويتخللها ينطبق أيضا على ما يعقبها من سلوكيات الحياة العامة، والنشاطات الإنسانية المتعددة، فالأصل في الصلاة أنها عبادة لله وهي في الوقت نفسه تدريب للمصلي على نمط حياة هي الحياة الإنسانية في أبلغ درجاتها رفعة وأعلاها سموا، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾(هود: ٨٧)، وقوله كذلك: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾. (العنكبوت: ٤٥)

١- زبد خلاصة التصوف، ٤٤-٤٥.

٢- المصدر السابق، ٤٩.

ويمكن القول إن الخشوع في العبادات عامة، والصلاة خاصة، يعد أثرا من آثار المحبة لله تعالى، والدليل على ذلك ما ورد في الحديث القدسي: «إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي عن غيري، جعلت لذته في ذكري، وهمته في محبتي، والأنس بي».[١]

وبما أن الخشوع مترتبٌ في مبناه ومعناه على محبة الله؛ فإن ابن تيمية يشدد على الربط ما بين: الخشوع، والمحبة، والإخلاص في العبادة لله كثلاثة أضلاع رئيسية يتمحور حولها مفهومه عن العبادة في الإسلام. وهو ما عبر عنه بالقول: «... وإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله، وهو إرادة الله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة، بل جاء المطلوب باسم العبادة كقوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات: ٥٦) وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة: ٢١)

فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يُعَظَّمُ ولا يُذَلُّ له لا يكون معبودا، والمُعَظّمُ الذي لا يُحَبُّ لا يكون معبودا؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(البقرة: ١٦٥)... وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره، فقد جاءت محبة الله مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ونحو ذلك، فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى. ثم إنه كما بيّن أن محبة الله أصل الدين، فقد بين أن كمال الدين بكمالها، ونقصه بنقصها؛ فإن النبي ﷺ قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».[٢] وهذا هو المفهوم الشامل للعبادة، وهو القصد الأسمى للصلاة.

١- كتاب القصد إلى الله، ٥٤.

٢- التحفة العراقية، ١٢٢-١٢٣.

ولعل ذلك هو ما دفع بالحكيم الترمذي، في شرحه حديثَ رسول الله ﷺ،: «أفضل العمل الصلاة ثم قراءة القرآن في غير صلاة والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد ثم الصدقة ثم الصيام»(الترغيب والترهيب، ١/١٩٧) إلى القول: «إن أعمال البر كلها متضمنة في العبادة، وإن اختلفت جواهرها وتباينت:

(١) فمن العبودية ما هو في صورة مسكنة وانتباه وإلقاء باليدين سلما ومخرجة من الإيمان، وذلك الصلاة،

(٢) ومنها ما هو بنفسه شعبة من شعب الإيمان، وذلك: كإطعام الطعام، وهو فعل الله الأعظم الذي يعول الخلق في البر والبحر ولا يعوزه شيء،

(٣) وحين نظرنا إلى جوهر كل برٍّ من الأعمال وجدنا الصيام الذي هو عبارة عن كف النفس عن الشهوات ساعات من عمرك بياض يومك ثم تعود إليها،

(٤) ووجدنا الزكاة هي التخلي عن محبوب الفتنة (المال) بموجود المنافع منها،

(٥) ووجدنا الحج هو ميل إلى موضع مأمول هناك رحمته طالبا لمعروفه راجيا لغفرانه والنجاة من عقوبته متعوذا بالبقعة التي شرّفها على سائر البقاع،

(٦) ووجدنا الجهاد تقصيا وحمية له ونصرة على أعدائه،

(٧) ووجدنا الصلاة مقام اعتذار بين يديه مما جنتِ اليدان واكتسبت؛ فإن الآدمي خلقه عبدا والعبد لا يستعمل جارحة من جوارحه إلا بإذن مولاه. فوكل هذا العبد بحفظ هذه الأمانة التي عرضت على السماوات السبع والأرضين والجبال فأشفقن منها وأبيّنَ أن يحملنها وحملها الإنسان (إنه كان ظلوما جهولا) ... فالصلاة مقام اعتذار العبد مما كسبت يداه، منتصبا لربه في صورة العبد تذللا وتخشعا ويلقي بيديه سلما، ويكف عن

نفسه شهوة الجوارح سمعا وبصرا ومنطقا وأخذا وعطاءا وطمعا في سائر الشهوات».[1]

وبحسب الحكيم الترمذي؛ فإن «مَن صارت الصلاة لجوارحه قيدا، ولقلبه سجنا، فهو من العبيد الآبقين (الذين) أمر الله بالصلاة ليسجنَ نفوسَهم الشهوانية فتكون تكفيرا لهم وتطهيرا وتنالهم رحمته ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥)؛ أي ثقيلة على النفوس إلا على نفوس قد خشعت، وقلوب قد استنارت وأزلفت إلى الله في مقام القربى».[2]

ومن الآيات القرانية التي وردت فيها لفظة الخشوع بمعنى الذل والانكسار قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:٢١)، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾. (الغاشية: ٢) أما الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة الخشوع بمعنى سكون الجوارح فمتعددة من بينها: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر: ٧)، وقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾. (القلم: ٤٣)

ومن الآيات القرآنية التي ترد فيها لفظة الخشوع بمعنى الخوف والوجل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (الحديد:١٦)، وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ

١- الصلاة ومقاصدها، ٧٨-٨١.

٢- الترمذي، الصلاة ومقاصدها، ٥.

ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾. (الشورى: ٤٥)

أخيرا من الآيات القرآنية التي ترد فيها لفظة خشوع بمعنى التواضع قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(آل عمران:١٩٩)، وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾(الإسراء: ١٠٩)، وقوله:﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾. (البقرة: ٤٥-٤٦)

وفي سياق مشابه؛ يرتبط معنى الخشوع كثيرا بالتواضع في أقوال العلماء، ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «من تواضع الله تخشعا، رفعه الله يوم القيامة، ومن تطاول تعظما، وضعه الله يوم القيامة».[١] وقد روى أبو نعيم من طريق ضمرة عن ابن شوذب قال: «أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام،: أتدري لأي شيء اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي؟ قال: لا يارب! قال: لأنه لم يتواضع لي أحد تواضعك».[٢]

على أن الفاروق عمر، رضي الله عنه، لم يفهم الخشوع بمعنى إظهار الذلة والانكسار على الدوام؛ فقد روي عنه أنه رأى رجلا يطأطئُ رقبته في الصلاة فقال له: «يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلب».[٣]

١- وكيع بن الجراح، كتاب الزهد، حققه وقدم له وخرج أحاديثه وآثاره: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، الطبعة الثانية، (الرياض: دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤م)، حديث رقم ٢١٦، ٢/٤٦٧.

٢- أبو نعيم، حلية الأولياء...، ٦/١٣٠.

٣- مدارج السالكين، ١/٤٢٥.

ولهذا كان النبي، ﷺ، دائما ما يستعيذ بالله من قلب لا يخشع: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها». (مسلم: ٢٧٢٢) كما كان السلف يأمرون بالاستعاذة من خشوع النفاق حيث يروى عن بعضهم أنه قال: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق. قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع».[١]

وفي المحصلة؛ يمكننا القول إن الخشوع شرط القبول والمقصود به أن يصلي العبد صلاة تليق بحق الله عز وجل، وهو على وجهين:

أولهما: أن يصلي العبد ويعمل سائر الطاعات وقلبه معلق بالله، ذاكر له على الدوام، فأعماله تعرض على الله وتقف قبالته فينظر إليها، فإذا نظر إليها قبلها: وهذا عمل المقربين.

ثانيهما: أن يعمل العبد الأعمال على سبيل العادة والغفلة ناويا بها الطاعة فأركانه مشغولة بالطاعة وقلبه لاه عن ذكره تعالى، وكذلك حاله في الصلاة بهذه الصفة، فإذا رفعت إلى الله لا توقف بين يديه ولا يقع نظره عليها، ولكن توضع في الخزائن لتعرض عليه يوم القيامة وهنالك يتبين القبول من عدمه.[٢]

ومن المعلوم أن لفظة «الخشوع» قد ارتبطت بالصلاة في كثير من الآيات القرآنية التي مدح الله فيها المخبتين له، والمنكسرين لعظمته والخاضعين، فوصفهم بالخشوع له في أشرف عباداتهم التي هم عليها يحافظون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ١-٢) كما وصف الذين أوتوا العلم بالخشوع حيث يكون كلامه لهم مسموعا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا

١- ابن رجب، الذل والانكسار، ٤٤.

٢- الترمذي، الصلاة ومقاصدها، ٣٤.

وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾. (الإسراء: ١٠٧-١٠٩)

وعلى ذلك؛ فإن الصادقين في صلاتهم يكون إقبالهم متركزا - بالدرجة الأولى- : «على أفعال الصلاة، وعلى تلاوتهم وتسابيحهم. والصديقون (يتركز) إقبالهم على معاني الأفعال ومعاني التلاوة والتسابيح والتحاميد. وخاصة الله من الصديقين (يتركز) إقبالهم على خالقهم ثم إقبال الله عليهم من حيث يُقبل العبد عليه ... فهذه ثمرة الإقبال من خاصة الله على الله في صلاتهم. وأما ثمرة الصادقين: فالوفاء لهم بكل ما وضع لهم في الأقوال والأفعال من الرحمة وتكفير السيئات لأنها (الصلاة) عبارة عن: توبة العبد إلى الله، قال في تنزيله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾(النساء: ٣١) :أي بالصلوات الخمس».[١]

ويرتبط معنى الخشوع بالصلاة في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة كقوله ﷺ: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءَها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، مالم يُؤتِ كبيرة وذلك الدهرَ كُلَّهُ»(مسلم: ٢٢٨) وقوله: «مثَلُ المجاهدين في سبيلِ الله — والله أعلم بمن يجاهد في سبيله- كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد». (صحيح سنن النسائي: ٣١٢٧)

وتفسير ذلك أن كل صلاة توبة، وما بين الصلاتين غفلة وجفوة وزلات وخطايا. ولذلك؛ كانت أفعال الصلاة مختلفة على اختلاف الأحوال التي جاءت من العبد؛ «فبالوقوف يخرج من الإباق: لأنه لمّا انتشرت جوارحه نقصت تلك العبودة وأبق من ربه، فإذا وقف بين يديه فقد جمعها من الانتشار ...، وبالتوجه إلى القبلة يخرج من التولي والإعراض، وبالتكبير

١- المصدر السابق، ٦.

يخرج من الكبر، وبالثناء يخرج من الغفلة، وبالتلاوة يجدد تسليما للنفس وقبولا للعهد، وبالركوع يخرج من الجفاء، وبالسجود يخرج من الذنب، وبالانتصاب للتشهد يخرج من الخسران، وبالسلام يخرج من الخطر العظيم».[1]

هذا ومن أجمل ما روي في صفة صلاة رسول الله، ﷺ، ما أخبرنا به الإمام علي أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام: ٧٩) ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، اللهم أنت المَلك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمتُ نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك».

وإذا ركع قال: «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي» وإذا رفع قال: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملءَ الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد» وإذا سجد قال: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين» ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفتُ وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت». (مسلم: ٧٧١)

أما آداب الركوع في الصلاة؛ فجمّة من بينها: أن يستوي في الركوع باستواء

١- المصدر نفسه، ص ١٢.

الظهر، وأن ينحط عن همته في القيام بخدمته، وأن يفرّ بالقلب من وسوسة الشيطان وخدائعه ومكائده، فإن الله سبحانه وتعالى قد رفع عباده بقدر تواضعهم له، كما أنه يهديهم إلى أصول التواضع والخضوع والخشوع بقدر استحضارهم لعظمته في سرائرهم.

ومن أجل ذلك كله كان للركوع منزلة كبيرة عند الخاشعين، فهذا ربيع بن خثيم يسهر الليل بطوله إلى الفجر في ركوع واحد، فإذا أصبح أزفر قائلا: «أوّه، سبق المخلصون، وقطع بنا». إذ يتعين على المصلي أن تكون نيته في الركوع الارتفاع بالله على أعدائه بعد التواضع له، والتبرّي عن الاستعانة بغيره، وأن يتبرأ أيضا من حوله وقوته، وأن ينزهه عن الشريك في الحول والقوّة، حتى يتم له بذلك آداب العبودية لله حقا، وعلما، وعملا.

ولذلك قيل: «في الركوع أدبٌ، وفي السجود قربٌ» لما فيه من التبرّي عن الحول والقوّة، والتوكل والتسليم. على أن المراد بالتبري في الركوع: تنزيه الربّ عزّ وجلّ عن الشريك، فمَن لم يكن مراعيا لذلك لم يركع بحقيقة الركوع، ولم ينزه المولى عزّ وجلّ بالتنزيه الركوعيّ، وإنْ اطالَ أمد الركوع الذي لا تخرج حقيقته عن: «أن يكون قلب العبد على صفة التوّكل، وعمله عمل المتوكّلين، (بحيث) لا يرى مدبّرًا – بل ولا فاعلا بالاستقلال– إلا الله، ويتبرّى عن الحول والقوّة، ويكون كسبه وتشبّثه للأسباب من جهة الأمر، ولا يمكن لمثل هذا أن يكون في كسبه حريصا ولا آخذا للحرام ولا الشبهات، بل ولا يمسك ولا ينفق إلا لله وبأمر الله؛ بل يكون الإنفاق والإمساك عنده على السواء».[1]

أما السجود؛ فمبلغ الترقي وحال القرب من الله عز وجل بحسب ما جاء في الحديث النبوي الشريف: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء».(مسلم: ٤٨٢) حيث جعل الله سبحانه وتعالى معنى

١– التبريزي، أسرار الصلاة، ٣٥٢.

السجود سببا للتقرّب إليه بالقلب والسرّ والروح: فمن قرُبَ منه بعُدَ من غيره، ألا ترى في الظاهر أنّه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كلّ ما تراه العيون؟!، كذلك أمرُ الباطن، فمَن كان قلبه متعلّقاً في صلاته بشيء دون اللّه، كان قربه من ذلك الشيء أشد، وبعده عن حقيقة ما أراد اللّه منه في صلاته أوكد.

ولأنه كذلك؛ فقد خُصّصَ للدعاء حيث روى ابن عباس قال: كشف رسول اللّه ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «يأيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظّموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمين أن يستجاب لكم».(مسلم:٤٧٩)

فإذا كان حضور القلب في القيام يقتضي الالتفات إلى مقام العبودية والربوبية، وفي الركوع يقتضي الالتفات عن الغير، ونفي الحول والقوة عنهم، فإن الحضور المناسب في السجود يكون بالتوجه الصادق المخلص إلى اللّه ، والانقطاع عن كل أسباب النفس والدنيا .

ليس غريبا إذا، والحال هذه، أن يبلغ بقوم تعلق قلوبهم باللّه عز وجل في الصلاة حد الانصراف عما سواه من أحوال الدنيا، شغلا بمَن له المال والجاه والعزة من دون الخلق. ومن ذلك ما ذكر عن مسلم بن يسار أنه كان يصلي في المسجد فسقطت أسطوانة ففزع الناس منها وقاموا على حين لم يلتفت حتى قضى صلاته! وفي مرة أخرى وقع حريق ببيته وهو قائم يصلي ففزع الناس حتى أطفأوا النيران من دون أن يشعر بشيء من ذلك! كما ورد عنه أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال لأهل بيته: تحدثوا فلست أسمع حديثكم!!

على أن الخشوع – كما الإيمان– يزيد وينقص. إذ يقع على ثلاث درجات: الأولى: التذلل للأمر، والاستسلام للحكم، والاتِّضاع لنظر

الحق: أما التذلل للأمر؛ فهو تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال مع مواطأة الظاهر الباطن، وإظهار الضعف والافتقار للهداية. وأما الاستسلام للحكم؛ فيشمل الحكم الشرعي بعد معارضته برأي أو شهوة، كما يشمل الحكم القدري بعدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض. وأما الاتِّضاع لنظر الحق؛ فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر المولى عز وجل واطلاعه على تفاصيل ما فيها.

الثانية: ترقب آفات النفس والعمل، ورؤية فضل كل ذي فضل. ويتحقق ذلك بانتظار ظهور نقائض نفسك وعملك وعيوبها لك، وذلك يجعل القلب خاشعا لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصها من الكبر والعجب، وضعف الصدق، وقلة اليقين، وتشتت النية.

أما رؤية فضل كل ذي فضل، فيتحقق بمراعاة حقوق الناس وأدائها، ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها، فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفسك. فالعارف، بحسب ابن تيمية، هو مَن لا يرى له على أحد حقا، ولا يشهد له على غيره فضلا، ولذلك لا يُعاتب، ولا يُطالب، ولا يُضارب.

الثالثة: حفظ الحرمة عند المكاشفة، وتصفية القلب من مراءاة الخلق. ويعني ذلك ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإذلال الذي تقتضيه المكاشفة لأنها توجب بسطا يخاف منه شطح إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة، مع إخفاء أحواله عن الخلق بجهده.(١)

وكما أن الخشوع درجات، فكذلك للخاشعين درجات أيضا: فمنهم من يبلغ في خشوعه عنان السماء، ومنهم من يخرج من صلاته لم يعقل شيئا منها! لأن الناس في العبادات عامة - والصلاة خاصة- على مراتب خمسة:

الأولى: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

١- مدارج السالكين، ١/٤٢٧.

الثانية: مرتبة مَن يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكنه قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالثة: مرتبة من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابعة: مرتبة مَن إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئًا منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامسة: مرتبة مَن إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك (أي بمثل ما قام أصحاب المرتبة السابقة)، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل، ناظرا بقلبه إليه، مراقبا له، ممتلئا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس، والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به.

هذا وقد شرع الله لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان الناشئ عن خشوع القلب وذله وانكساره، ومن أعظم ما يظهر فيه خشوع الأبدان لله تعالى من العبادات الصلاة، ولذلك أثنى سبحانه على الخاشعين فيها بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾. (المؤمنون:١-٢) يعني متواضعين لا يعرف أحدهم مَن عن يمينه ولا مَن عن شماله، ولا يلتفت (إلى شيء من أشياء الدنيا مهما علت قيمتها) من (فرط) الخشوع لله عز وجل.[١]

١- الخشوع في الصلاة، ٦١.

وقد دفع ذلك بعض المفسرين لأن يساووا ما بين القنوت والخشوع بحسب ما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨) فقال مجاهد: القنوت هو الركون والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله عز وجل، حيث كان العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشذ نظره أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسيا ما دام في صلاته. ومنهم مَن فسّر قول الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الفتح: ٢٩) بالخشوع.(١)

ومن هنا يصح القول: إنّ الخشوع بمثابة الميزان الذي توزن به أعمال القلوب التي تعد بحسب ابن تيمية «من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك ... هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق – المأمورين في الأصل- باتفاق أئمة الدين، والناس فيها على ثلاث درجات، كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات؛ ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات».(٢)

ويستند ابن تيمية في تقسيمه هذا إلى قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾. (فاطر: ٣٢) فكل من قصد الله تعالى وقصد مواصلته، لا يخلو من إحدى ثلاث: إما أن يكون واصلا إلى محبوبه، فيكون معه إلى الأبد، من غير أن يلتفت منه إلى سواه، وإما أن يرجع عن الطريق عنه، بالتفاته منه إلى مَن سواه، وإما أن

١- وكيع بن الجراح، كتاب الزهد، ٥٩٨/٢ حيث فسّر الآية بالخشوع والتواضع، وأورد عن مجاهد قوله: ليس بهذا الأثر الذي في الوجه، ولكنها الخشوع. وابن المبارك في «الزهد» (حديث رقم ١٧٢)، باب ما جاء في الخشوع والخوف، ص ٣٩. والثوري في تفسيره (٢٧٨/٢) والطحاوي في: شرح مشكل الآثار، طبعة مؤسسة الرسالة (٢٨٢/١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٢/٣).

٢- انظر ابن تيمية، التحفة العراقية، ٣٩-٤٠.

يبقى في الطريق على الغرة (غفلة في اليقظة) والحساب مُسْتَدْرَجًا حتى يبدو له من الله مالم يكن يحتسب.[1]

آثار الخشوع في الصلاة.

ومما يظهر فيه أثر الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة وضع اليدين إحداهما على الأخرى في حال القيام، حيث روي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن المراد بذلك فقال: هو ذل بين يدي عزيز! .

والحال؛ أن تكبيرة الإحرام تعني أن المصلي قد حرّم على نفسه كل كلام مع الناس كي يتفرغ لمناجاة الله بتلاوة فاتحة الكتاب التي تتضمن آياتها السبع: شكرا لله (الْحَمْدُ للّهِ) ، واعترافا بربوبيته (رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وثناء عليه (الرَّحْمنِ الرَّحِيم)، وتمجيدا له (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، ومعاهدته على إخلاص العبودية له (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، واستعانة به وحده (وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، والتماسا لهداية الطريق المستقيم (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّين).

ومما له دلالة في هذا السياق؛ أن المولى عز وجل فرض على المصلين في كل ركعة ركوعا واحدا لتعظيمه، وسجدتين لعرض شكواهم وحاجاتهم عنده! وهو ما عبر عنه المصطفى ﷺ حين قال: «فأما الركوع فعظّموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم».

ومن علامات الخشوع أيضا إقبال المصلي على الله عز وجل وعدم التفاته إلى غيره، والإقبال نوعان: أحدهما عدم التفات قلبه إلى غير مَن هو مُناج له، وتفريغ القلب للرب عز وجل. وثانيهما: عدم الالتفات مطلقا بالبصر يمينا وشمالا وقصر النظر على موضع السجود، وهو من لوازم الخشوع للقلب وعدم التفاته.[2]

١- كتاب القصد إلى الله، ٤١.

٢- الخشوع في الصلاة، ٦٥.

وعلى ذلك؛ فالقلب الخاشع إذن: هو القلب السليم الذي لا ينفع يوم القيامة عند الله غيرُه ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٩) وسلامته تتحقق بأن يكون «سليما عن جميع ما يكرهه الله ويسخطه، ولا يكون فيه سوى محبة الله وإرادته، ومحبته (القلب) ما يحبه الله وإرادة ذلك، وكراهة ما يكرهه الله والنفور عنه، والقلب الفاسد هو القلب الذي فيه الميل على الأهواء المضللة والشهوات المحرمة، وليس فيه من خشية الله ما يكف الجوارح عن اتباع هوى النفس».[١]

فإذا صلح القلب صلحت إرادته وصلحت جميع الجوارح بالتبعية له، فلم تنبعث إلا إلى طاعة الله واجتناب سخطه، وهنالك تقنع بالحلال عن الحرام. أما إذا فسد القلب فسرعان ما تفسد إرادته، وتفسد الجوارح كلها فإذا بها تنبعث في معاصي الله عز وجل وما فيه سخطه غير قانعة بالحلال، مسرعة إلى الحرام بحسب هوى القلب وميله عن الحق.[٢] ولذلك كان ذو النون المصري، رحمه الله، يقول في وصف العبّاد: «لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته فلما وقف في محرابه واستفتح كلام سيده، خطر على قلبه أن ذلك المقام الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين فانخلع قلبه وذهل لبه...».[٣]

وتفسير ذلك أن كل عمل من المعاصي أو الطاعات يتطلب إرادة وقدرة: فالإرادة من عمل القلب، وهي العزم على القيام بالفعل طاعة كان أو معصية، والقدرة على عمل، أي إتيان، الجوارح. والإرادة مع القدرة تستوجب فعل المراد، بحيث لو خشع قلب المصلي لخشعت تبعا لذلك جوارحه «وصحت له العبودية لمولاه تبارك وتعالى، وصارت النفس منقادة تحت أثقال العبودية (بحيث) يقوم هذا العبد على قدمي الفقر والفاقة على بساط العبادة، فعند

١- العسقلاني، فتح الباري، ١/١١٨.

٢- المصدر السابق.

٣- حلية الأولياء، ٩/٣٣٩-٣٤٠.

استحكامه مقام العبادة يكاد قلبه أن يقف عليها إلى الموت، ويكتفي بها ويسكن إليها ويرضى من الله تعالى بهذا القدر».[١]

على أن ثمة آخرين لا يرضون بذلك مقاما؛ وإنما يتطلعون إلى مقامات أكثر قربا من الله تعالى، فإذا بهم من شدة خشوعهم له يخافون عذابه ويخشون عقابه في الدنيا وفي الآخرة! فليس الخائف ذلك الذي يبكي ثم يمسح دموعه، إنما الخائف حقا هو ذلك الذي يترك ما يخاف أن يعذب عليه. قال أبو علي الدقاق رحمه الله: دخلت على أبي بكر بن فورك يرحمه الله عائدا، فلما رآني دمعت عيناه، فقلت له: «إن الله يعافيك ويشفيك»، فقال لي: أترى أني أخاف من الموت، إنما أخاف مما وراء الموت.[٢]

ومن يعلم اللهُ من سرّه صدقَ الإرادة يُجلسه «على مركب الخوف والخشية، ثم يريه خفيات مكره تحت جميل ستره، ودقائق استدراجه في جزيل نعمه، وإظهار فضله لأهل عدله وإظهار عدله لأهل فضله، فعند ذلك يبصر هذا العبد آفات رؤية الأعمال والاغترار برؤية صفات الأوقات، فحينئذ يفزع من مكره ويخاف حقائق معلومة في سابق علمه، ويطير فؤاده ويشتد كمده وحزنه حتى كأنه قامت قيامته وضاقت سبله ودام تحيره، وكَلّ لسانه ودهش عقله، وصار من جميع الراحات بعيدا وعن جميع الخلائق فريدا. فإذا استحكم له مقام الخوف، يكاد قلبه أن يقف عليه إلى الموت».[٣]

ولذلك قال سبحانه في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.(الزمر: ٩) إذ عرض في هذه

١- كتاب القصد إلى الله، ٤٩.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثالثة، (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، طبعة مصوردة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م)، الجزء الرابع، ص٢٥٠.

٣- كتاب القصد إلى الله، ٤٩.

الآية صورة القلب الخائف الوجل، الذي يذكر الله ولا ينساه في سراء ولا ضراء، والذي يعيش حياته على الأرض في حذر من الآخرة، وفي تطلع إلى رحمة ربه وفضله، وفي اتصال بالله ينشأ عنه العلم الصحيح المدرك لحقائق الوجود «وهي صورة مشرقة مرهفة، فالقنوت والطاعة والتوجه - وهو ساجد قائم - وهذه الحساسية المرهفة - وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه- وهذا الصفاء وهذه الشفافية التي تفتح البصيرة، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقي .. هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر تقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التي رسمتها الآية السابقة ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ (الزمر: ٨) فلا جرم يعقد هذه الموازنة: «قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»؟ فالعلم الحق هو المعرفة. هو إدراك الحق، هو تفتح البصيرة. هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود».[١]

وفي كل الأحوال؛ فمما لا شك فيه أن عقبة النفس بكل ما فيها من الجهل والغفلة والنسيان والفترة «هي أصعب العقبات (في طريق القصد إلى الله) بلية وأشقها وأطولها نهاية وأبعدها مسافة وهي عقبة كؤود (من) أعظم العقبات وأصعبها وأمرّها... فإذا نظر العبد إلى نفسه وتركيب أساسها وتطبيع بشريتها وأساس خلقتها، فإذا هي مملوءة بكل هوى وشهوة، مشوبة بكل العيوب وكل عثرة، مائلة إلى كل بلاء وآفة، أمّارة بكل خطأ وزلة مُركبة بكل فساد وفتنة، مربوطة بكل كسل وفترة، ثم إنه يرى نفسه عند عبادة الله عز وجل كسلى وفي حالة الكسل والفترة كأنها ميتة جيفة لا تتحرك، ويراها عند الحرص في الدنيا كأنها وعاء لا يملأ، ويراها عند الحسد كأنها نار تلتهب، ويراها عند الطمع كأنها خنزير تحرق الأرض عند جوعها، ويراها

١- في ظلال القرآن، ٥/٣٠٤٢.

عند الفخر والعلو كأنها تدعي الربوبية... فعند ذلك يعتصم بالله تعالى ويستعين به على مقتها ومخالفتها، ولم يشتغل بهواها ومرادها ولم يلتفت إليها حرمة لإجلال ربه».[1]

ومن علامات أو آثار الخشوع أيضا الركوع؛ لأنه ذل بظاهر البدن، ولهذا كانت العرب تأنفه ولا تفعله لدرجة أن بعضهم بايع النبي ﷺ على أن لا يخر إلا قائما!! يعني أن يسجد من غير ركوع! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ (المرسلات: ٨٤) والخضوع في الركوع معناه أن يخضع القلب لله ويُذّلُ له فيتم بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظامي وما استقل به قدمي»، إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه ومن أعظمها القلب الذي هو ملك الأعضاء والجوارح والذي إذا ما خشع خشعت جميعها تبعا له.

وكما أن الركوع من علامات الخشوع؛ فكذلك السجود يعد من أعظم آثار وعلامات الذل والانكسار للعزيز الجبار سبحانه وتعالى، ولم لا؟ وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه عز وجل حيث يجعل العبد أشرف ماله من الأعضاء وأعزها عليه وأعلاها حقيقة أوضع ما يمكنه، فيضعه في التراب متعفرا ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله عز وجل، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يقربه الله إليه بحسب ما ورد في الحديث النبوي الشريف: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».[2]

ومما له دلالة في هذا السياق؛ ما رواه ابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: «إذا قمت إلى الصلاة فقم قانتا كما أمرك الله وإياك والسهو والالتفات، أن ينظر الله إليك وتنظر إلى

١- كتاب القصد إلى الله، ٤٤-٤٥.

٢- الخشوع في الصلاة، ٧٥. والحديث أخرجه مسلم (٤٨٢)، والنسائي (٢/٢٢٦)، والإمام أحمد (٢/٤٢١).

غيره، وتسأل الله الجنة وتعوذ به من النار وقلبك ساه ولا تدري ما تقول بلسانك».[1] وقد حدث أن مر عاصم بن يوسف بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه فقال له: يا حاتم، تحسن تصلي؟ قال: نعم! قال: كيف تصلي؟ قال حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلم بالسبيل والسنة، أسلمها بالإخلاص إلى الله عز وجل، وأرجع عن نفسي بالخوف، أخاف أن لا يُقبل مني، وأحفظه بالجهد إلى الموت، قال (عاصم): تكلم فأنت تحسن تصلي.[2]

ثالثا: قيمة الصبر.

في تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (طه: ١٣٢) يؤكد ابن عطاء الله السكندري أن الآية تدل على أن في الصلاة تكليفا للنفوس شاقا عليها نظرا لأنها تحين أو يتعين أداؤها في أوقات ملاذ العباد وانشغالهم فتطالبهم بالخروج من ذلك كله إلى القيام بين يدي المولى تعالى والفراغ عمن سواه[3] ويستدلُّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَـٰشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥) حيث جعل الحق سبحانه الصبر والصلاة مقترنين إشارة إلى أنه يُحتاج في الصلاة إلى الصبر على ملازمة أوقاتها والصبر على القيام بواجباتها بالإضافة إلى ذلك النوع من الصبر الذي يمنع القلوب من غفلاتها.[4]

١- محمد بن نصر المروزي، تعظيم قدر الصلاة- ومعه الثمار المحلاة في تخريج أحاديث تعظيم الصلاة، خرجه وحققه: أبو مالك كمال بن السيد سالم، (القاهرة: مكتبة العلم، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م)، حديث رقم ١٤٠، ص ١١٠.

٢- حلية الأولياء، ٨/٧٤-٧٥.

٣- المصدر السابق، ٢١٠.

٤- المصدر نفسه، ٢١٢.

ويرتبط بذلك أيضا أن الخصيم النفساني والشيطاني لا يتسلط علينا من جهة من الجهات، كما يتسلط علينا من جهة أمر الرزق، ولذلك جاء تأكيده تعالى: «لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى». كما قال أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (المنافقون: ٩) وقال بعد الحث على سرعة الاستجابة لآداء صلاة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة:١٠) ومن هنا نفهم سر قول أبي العباس المرسي: «للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦) وقال مرة أخرى: للناس أسباب، وسببنا الله»[1]

وفي السياق ذاته؛ يؤكد ابن تيمية أن الله ذكر الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعا، وقرنه بالصلاة في أكثر من خمسين موضعا[2] كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾. (البقرة:٤٥) وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. (البقرة: ١٥٣) وغيرها..

كما جعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤) مما يدل على عمق هذا الارتباط.[3]

١- رسائل العربي الدرقاوي، ٩٤.

٢- ابن تيمية، رسالة في قوله تعالى «واستعينوا بالصبر والصلاة»، ضمن: جامع الرسائل، المجموعة الأولى، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م)، ص:٨١. وبالرجوع إلى: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم يتضح أن مادة «صبر» بمختلف مشتقاتها ذكرت في القرآن الكريم في ١٠٤ موضعا. ص ٤٩٢-٤٩٣.

٣- التحفة العراقية، ٩٣.

ومن الآثار النبوية التي تربط الصبر بحب الله ورسوله من جهة، وبالعبادة من جهة أخرى ما رواه الترمذي أن رجلا قال: يا رسول الله، إني أحبك. فقال ﷺ: استعد للفقر، فقال: إني أحب الله تعالى، فقال: استعد للبلاء»[١] وكذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه مقبلا، وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبي ﷺ: انظروا إلى هذا الذي نوّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ... فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون».[٢]

فمن المعلوم أن للصلاة مجموعة من الآداب الروحية ، وفي مقدمتها: تعلم علم الصلاة، ومعرفة فرائضها وسننها وآدابها وفضائلها ونوافلها، وكثرة مساءلة العلماء عنها، والبحث عما يحتاج إليه في ذلك مما لا يسعه الجهل به؛ لأن الصلاة عماد الدين، وقرة عين العارفين، وزينة الصديقين، وتاج المقربين. كما أن مقام الصلاة هو مقام الوصلة، والدنو، والهيبة، والخشوع، والخشية، والتعظيم، والوقار، والمشاهدة، والمراقبة، والأسرار، والمناجاة مع الله تعالى، والوقوف بين يديه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.[٣]

على أن فقه الصلاة لا يتوقف عند حدود العلم بشرائط صحتها ونواقض بطلانها؛ وإنما يتجاوز هذا المعنى إلى ما هو أوسع من ذلك، إذ نبه العلماء على مراعاة دقائقها الباطنة وانعكاسات قيمها الروحية، ولايقتصرون على الوقوف عند أحكام الصلاة الظاهرة، وشروطها المقررة، بل تكلموا في خشوعها وآدابه، وصفة القلب ومراتبه.[٤]

١- رواه عبد الله بن مغفل رضي الله عنه. وعند الطبراني عن كعب بن عجرة «فقال: إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا فإن الفقر أسرع إلى مَن يحبني من السيل إلى منتهاه» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

٢- رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، بإسناد حسن.

٣- الطوسي، اللمع، ٢٠٣.

٤- الترمذي، الصلاة ومقاصدها، ١٨.

رابعا: قيمة الإخلاص.

في الصلاة؛ تأتي النية بعد التطهر لتكتسب هي الأخرى معنى عميقا بحيث يستحضرها المؤمن في قلبه تقربا للمولى سبحانه وتعالى؛ وذلك بإخراج ما فيه من كل ما سوى الله حتى لا يكون في قلبه سواه.[1] خاصة وأن منظومة العبادات لا تعمل عملها، ولا ينال العابد ثوابها، ولا تؤتي بالأحرى أكلها – على المستويين: الفردي والاجتماعي- حتى تصدر عن وحي نفسه، وتنبع من أعمق أعماق قلبه؛ فالنية الصالحة شرط في صحة العبادات وقبولها، وإخلاص القصد ركن من أركان تمامها، يقول تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٥) ويخاطب أكمل خلقه ﷺ قائلا:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾. (الزمر: ٢-٣)

وقد عبر عن ذلك المعنى الجنيد البغدادي حين قال: إن لكل شيء صفوة، وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى. وذلك لأنها مقرونة بالنية التي لا يجوز الصلاة إلا بها، وهي بمثابة العقد مع الله، فإذا صح العقد فما دخل بعد ذلك في الصلاة من الآفات الباطنة لم يفسد الصلاة، بل ينقص من فضلها، ويبقى للمصلي عقدها ونيتها.[2] وتبعا لذلك؛ صارت النية مفهوما خشوعيا لطيفا بحيث يراد بها انعقاد القلب في ذلك التوجه إلى الله.

وبهذا تصبح الصلاة في مجملها ومنذ بدايتها توجها حقيقيا نحو الله بإخلاص العبد في التطهر لها وعزم النية عليها تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينة: ٥) لأن الإخلاص للمولى

١- الشعراني، أسرار أركان الإسلام، ٤١.

٢- اللمع، ٢٠٤.

عز وجل لازم وواجب في جميع الأعمال.[1] ناهيك بما في صلاة الجماعة من حكم وأسرار في مقدمتها: اتّحاد قلوب المؤمنين في أمر الله، وما لذلك من فوائد شتى لتعزيز قوة الإسلام والمسلمين، وتكميل النفوس وتقويتها في السير إلى الله واستجلاب رحمته، فالعمدة في العبادات كلها كونها مثارا لصفات القلوب وتأثّراتها وتنويرها، والعبادة إذا لم تؤثر في القلب لا تثمر إلا شيئا قليلا ملحقا بالعدم.

خامسا: قيمة التضامن.

من أبرز ما تتركه العبادة في القلب التحاب في الله بين جماعة المؤمنين، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لله خلقا عن يمين العرش بين يدي الله وعن يمين الله، وجوههم أبيض من الثلج وأضوء من الشمس الضاحية. يسأل السائل: ما هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء الذين تحابّوا في جلال الله».[2]

للصلاة إذن وظيفة اجتماعية تعمل من خلالها على ضبط السلوك الفردي والجماعي وتماسك المسلمين وتضامنهم، فهم صف واحد في مسجد واحد خلف إمام واحد، يجتمعون خمس مرات كل يوم وليلة، يتساوون في الوقوف بين يدي الخالق عز وجل: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤)، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين قويهم وضعيفهم. والحال؛ أن «في انصراف هؤلاء جميعا إلى صلاة الجماعة (ما يفيد) معنى استعلاء الروح واستعلاء المثل العليا على المال والمنصب والجاه والقوة، وفيه (ما يفيد) معنى التقاء

١- المحاسبي، كتاب القصد والرجوع إلى الله، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م)، ص ٢٥٩.

٢- كما روي بصيغ أخرى قريبة من ذلك حيث يقول ﷺ في إحداها: قال الله تعالى: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون و الشهداء» انظر الألباني: صحيح الجامع ٤٣١٢. وفي أخرى: «المتحابون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظلّ عرشه عن يمينه – وكلتا يديه يمين– وجوههم أشدّ بياضا وأضوء من الشمس الطالعة، يغبطهم بمنزلتهم كلّ مَلك مقرّب وكلّ نبي مرسل، ويقول الناس: «من هؤلاء» فيقال: «هؤلاء المتحابّون في الله».

الناس على اختلاف أحوالهم المالية والاجتماعية على صعيد العبودية لله والمساواة في هذه الصفة».[1]

والواقع أن الإسلام حين وسّع في مفهوم العبادة، كان يضع في حسبانه أمرين رئيسين:

أولهما: أن يظل المسلم – بخاصة على المستوى الفردي- موصولا بربه أينما حل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥).

ثانيهما: أن تحافظ الجماعة المؤمنة على اللحمة الجامعة بينها، فمَن لم يدرك عبادة من العبادات بصورة فردية يكون بمقدوره أن يشارك في أخرى مشابهة لها جماعية. ومن هنا كان الحرص على عدم تفويت صلاة الجماعة، وصلاة الجمعة، وشعيرة الحج لمن استطاع إليه سبيلا، والمشاركة في الجهاد، والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، ناهيك بالمناسبات الاجتماعية التي لا تخلو من شعيرة دينية: كالأفراح، والعقيقة، والجنائز...إلخ. ولهذا قال النبي ﷺ : «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار». (صحيح البخاري:٥٣٥٣)

فليس التعبد في منهج الإسلام قاصرا ولا مقصورا على الصلاة والذكر فحسب؛ بل إن كل عمل صالح يفعله الإنسان مخلصا فيه امتثالا لأمر ربه، وابتغاء لمرضاته هو عبادة يثاب عليها ثواب المتعبدين الخاشعين لله، ولو كان ذلك العمل من مشتهياته وحظوظه: كالأكل والشرب والنوم والنزهة، وسائر الأعمال الحيوية، التي تتطلبها طبيعة الإنسان وله فيها رغبة، وكان في إتيانها كمال لبدنه ونفسه تصديقا لقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». (مسلم: ٢٦٦٤)

١- المبارك، نظام الإسلام، ١٨٠.

ولذلك تدخل العناية بالبدن - عبر اكتساب شتى صنوف الرياضات- من ضمن مفهوم العبادة، إذا ما صحت النية وأخلص الإنسان في القصد من دون تجاوز ولا عدوان على الناس، وألا تشغله تلك الأمور عن ذكر الله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (المنافقون: ٩) على أن ذكر الله هنا ليس مقصورا على الشعائر الدينية فحسب؛ وإنما يتسع ليشمل العبادة بمفهومها الشامل في الإسلام فيدخل ضمن إطارها الأعمال الدينية والدنيوية على حد سواء.

وقد وصف سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأنهم: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾. (النور: ٣٧) مع الأخذ في الاعتبار أيضا ورود هذه الآية ضمن سورة «النور».

نحن إذن إزاء صنفين من الناس وضربين مختلفين من ضروب فهم العبادة كما هي راسخة في أذهانهم:

الصنف الأول: تشغله بعض الاهتمامات عن «ذكر الله» ، فيكون في مقام حرج بمقدار انشغال قلبه.

أما الصنف الثاني: فلا يشغله شيء عن ذكر الله بما في ذلك التجارة والبيع، لماذا؟ لأنه يرى فيهما (التجارة والبيع) ذكرا لله بحد ذاتهما. ومن ثم؛ يستوي عنده جلوسه في محله أو المسجد فكلاهما عبادة لله وطالما أنهما يستويان بهذا المعنى فليس ثمة سبيل إلى أن تمنع إحداهما الأخرى بل يأتي كل واحدة في موعدها المحدد: فإذا حضر وقت صلاة الفريضة كان اداؤها أولى وفي غير وقتها يكون أداء العمل أولى من صلاة التطوع.

والواقع أن فهما كهذا يبدو متسقا تماما مع روح الإسلام العملية التي

تنظر إلى الحياة الدنيا باعتبارها قيمة بحد ذاتها وتدعو المؤمنين بها إلى أن يكونوا أقوياء في كل شيء. ومع ذلك كم يعجب المرء لكثير من المسلمين الذين يتجاهلون مثل هذا الفهم ويجعلون من العبادات الفردية حائلا يمنع دون الوصول إلى حال الاستطاعة والقوة: فهذا معلم يترك تلامذته ليطيل الركوع والسجود مع أن تعليمه إياهم أولى، وذاك موظف يترك مكتبه ليؤدي الصلاة فإذا به يتأخر ساعة كاملة فيما الجمهور ينتظر من دون جدوى...إلخ.

ومن هنا يتضح لنا أن لكل عبادة مغزاها الاجتماعي، ومغزاها العملي، فليست العبادات في الإسلام ألغازا محجوبة، كما أنها ليست طلاسم مجهولة أو محتكرة من قبل الكهنة، وليست ألفاظا خالية من المعاني؛ ولكنها أقوال وأفعال لها في النفس أثرها، ولها في المجتمع خطرها، وما تعمد إلى واحد منها بالتحليل وإنعام النظر حتى ترى من حكمها ودقائق أسرارها ما يبهر الفكر ويقنع الأفهام.



الفصل الرابع

القيم الروحية للزكاة

فرض الله – سبحانه وتعالى- الزكاة على المسلمين حقا وواجبا في أموالهم، تطهيرا لنفوسهم، وتزكية لأعمالهم وتقويما لأخلاقهم، وتعليما لهم – وتدريبا- كيف يواسون فقراءهم ويساعدون محتاجيهم، ويرتفعون فوق نزعات الشح وسيطرة الأثرة والأنانية. وما كان ليفعل ذلك لولا علمه–سبحانه- بما ركّب في نفوس البشر من حب الدنيا وزينتها، والتطلع إلى فتنتها وبهجتها، ومن كراهية الموت. كيف لا؛ وهو القائل في كتابه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾.(آل عمران: ١٤-١٥)

ولأهمية الزكاة في الإسلام شرعها المولى عز وجل في العام الثاني للهجرة، بعد أن أخذ الاستقرار طريقه إلى حياة المسلمين، وأصبح لهم مجتمع يُحتاجُ فيه إلى التنظيم والتقنين. كانت الزكاة إذن الفرض الثاني مباشرة بعد الصلاة، ولهذا تقترن بها في ثمانية وعشرين موضعا من القرآن الكريم للدلالة على أهمية هذه الشعيرة التي إن تعطلت تعطل ركن مهم من أركان الإسلام. كما لم تحجب الزكاة بفرضيتها التطوع بالإنفاق الذي كانت الدعوة قد سبقت إليه منذ فجر الإسلام، وقد فهم المسلمون الأوائل سر ذلك فتنافسوا في البذل والعطاء.[1]

ولاشك أن الهدف البعيد للزكاة لا ينحصر في إعطاء المحتاج دراهم معدودة، أو أقداحا محدودة من الحبوب والغلال، تكفيه أياما أو أسابيع، ثم تعود حاجته كما كانت، وتظل يده ممدودة بقية العام؛ وإنما تكمن وظيفتها الصحيحة في «تمكين الفقير من إغناء نفسه بنفسه، بحيث يكون له مصدر دخل ثابت يغنيه عن طلب المساعدة من غيره، ولو كان هذا الغير هو الدولة

١- عبد الحفيظ فرغلي علي القرني، الزكاة وحاجة العصر، الطبعة الأولى، سلسلة الدين المعاملة، (القاهرة: دار الصحوة للنشر، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، ص ٨-٩.

نفسها. فمن كان من أهل الاحتراف أو الاتجار، أعطي من صندوق الزكاة ما يمكنه من مزاولة مهنته أو تجارته، بحيث يعود عليه من وراء ذلك دخل يكفيه، بل يتم كفايته وكفاية أسرته بانتظام، وعلى وجه الدوام. أما العاجز الذي لا يقدر على مزاولة مهنة أو عمل يكسب منه معيشته فله حكم آخر... (حيث يعطى) كفاية ما بقي من العمر الغالب لأمثاله في بلده؛ لأن القصد إغناؤه، ولا يحصل إلا بذلك. فإن زاد عمره عليه أعطي سنة بسنة».[١]

تعريف الزكاة

تعني الزكاة لغة: الطهارة والنماء، والبركة والزيادة في الصلاح يقال: زكى الشيء إذا نما في الصلاح. وكذلك القلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له.[٢] وتعني الزكاة أيضا: الطهارة والبراء. ولهذا يشير القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى أثر الزكاة في طهارة النفوس وتقواها، فضلا عن تزكية الأرواح حيث يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ ﴾. (التوبة: ١٠٣-١٠٥)

ففي هذه الآيات قرن سبحانه وتعالى دفع الصدقات بالطهر والتزكية، ثم قرن ثانيا ما بين قبول التوبة وقبول الصدقات، ثم أكد ثالثا أن كل أولئك يدخل ضمن الأعمال المأمور بها من قبله والتي سيشاهد الجميع ثمرتها يوم القيامة في عالم الغيب والشهادة. وبإدراك المؤمن لهذا المعنى في فريضة

١- يوسف القرضاوي، دور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية وشروط نجاحها، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ص ١١-١٢.

٢- ابن تيمية، أمراض القلوب وشفاؤها، حققه وعلق عليه: أحمد العيسوي، الطبعة الثانية، (طنطا: دار الصحابة للتراث، ١٤١١ هـ- ١٩٩٠م)، ص ١٣. ومما يفيد الزكاة بمعنى الصلاح قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾. (الكهف: ٨١) وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ (النور: ٢١) أي يصلح من يشاء. كما أنها ترد بمعنى المدح والثناء، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾. (النجم: ٣٢)

الزكاة يصبح من الواجب عليه أن يخرج من ماله القدر الذي يعتقد أنه غسّلٌ لذنوبه، وبراءة لذمته من حقوق الناس ومظالمهم. فما من شك «أن مَن يخرج من حقوق الناس ومظالمهم بالأداء الفعلي بإحساس الخوف من الله ومن عقابه على ظلم الناس في أنفسهم وفي أموالهم، سوف يخرجه إحساسه هذا من دائرة العقاب بمقتضى عفو الله عنه وقبوله لهذه التوبة العملية».[1]

كما تعني الزكاة أيضا الرحمة والتزكية، وبهذا المعنى فسر ابن الأنباري الزكاة في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾. (مريم:١٣) كأنه يعني بذلك أن ولادته كانت نماء وامتدادا لحياته.

أما الزكاة بمفهومها الشرعي؛ فهي عبارة عن تمليك مال مخصوص لمستحقه بشرائط مخصوصة، بغية تطهيره وتنميته. وبالتالي؛ فإن ثمة علاقة ما بين المعنيين اللغوي والشرعي: ففي الزكاة تطهير من الدنس والبخل والطمع والدناءة والقسوة وغير ذلك من الرذائل، كما أن فيها أيضا تزكية للنفوس وتنمية لها حتى تكون أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية.[2]

وعلى ذلك؛ فالمؤمن يدفع زكاة المال ليحيي بها نفوسا، ويشبع بها بطونا، ويمسح بها دموعا، ويزيل بها آلاما، وينال بها ثوابا، ويدخل في رحمته تعالى. ولا أدل على أهميتها من أن الله سبحانه وتعالى جعلها برهانا على الإيمان حيث قال ﷺ في حديثه الجامع: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائعٌ نفسَهُ فمُعتقُها، أو موبقها».

١- تأملات مسلم في جوهر العبادات، ٥٤.

٢- الزكاة وحاجة العصر، ١٤-١٥.

ولعل ذلك هو ما دفع عمر بن عبد العزيز إلى بيان فضل العبادات في التقريب من الله بالقول: «الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه».[1] وتبعا لذلك؛ يتعين على المتصدق أن يمنحها لمن يستحق طيبةً بها نفسه، منشرحا بها صدره، من دون مَنٍّ ولا أذى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾. (البقرة:٢٦٢-٢٦٣)

أما المن فمعناه: أن يعتد المتصدق بإحسانه على من أحسن إليه. وقيل: أن يستخدمه بالعطاء، أي لقاء إحسانه. وأما الأذى فالمقصود به: أن يعيره بالفقر؛ خاصة مع ما ورد من مساواة النبي، ﷺ، بين الغني المانح والفقير المحتاج حين قال: «ما المعطي من سعة بأفضل من الآخذ إذا كان محتاجا»(الترغيب والترهيب: ٥١/٢)، وقال كذلك: «إن الصدقة تقع في يد الله، قبل أن تقع في يد السائل».(مجمع الزوائد: ١١٤/٣)

وقيل: المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذى أن ينتهره ويوبخه بالمسألة ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾. (الضحى: ١٠) ولأجل ذلك أفتى سفيان الثوري بأن «مَن منَّ فسدت صدقته» فقيل له: كيف المن؟ فقال: أن يذكره ويتحدث (يفاخر) به. وقد بلغ من حرص السلف على عدم الوقوع في ذلك أن صرح زيد بن أسلم بالقول: «إذا أعطيت أحدا شيئا، وظننت أن سلامك يَثْقُلُ عليه، فكُفَّ سلامك عنه»!![2]

ولهذا وصف المولى عز وجل المؤمنين بأنهم للزكاة فاعلون في أول سورة «المؤمنون» تعبيرا عن انفعال المسلمين بهذه الفريضة وانشغال أذهانهم بها، حتى تفاعلت بذلك أرواحهم واشتغلت في الوفاء بها جوارحهم. ذلك

١- أسرار العبادات في الإسلام، ٧٧.
٢- المصدر السابق، ٧٥.

أن المال مال الله، وما نحن إلا مستخلفون عليه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.(النور: ٣٣) فالفضل منه وإليه ولو شاء سبحانه لأغنى الفقراء، ولكنه فتح أمام الأغنياء بالصدقة بابا هو الصدق في الإيمان حتى تكمل نفوسهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.(التوبة: ١١١)

ففي هذه الآيات خص المولى عز وجل النفس والمال بالذكر دون غيرهما؛ لأن النفس موضع كل شهوة وبلية، والمال محل كل إثم ومعصية، فأراد أن يزيل ملك الإنسان عما يضره، ويعوضه بما ينفعه في العاجل والآجل.[١]

أولا: الزكاة بوصفها شكرا لله.

على الرغم من أن الزكاة في الأصل هي تعبير عن شكر العبد لله؛ فإنه يتعين على المسلم ألا ينتظر من وراء إخراجها أو دفعها حمدا ولا شكرا من الناس، وإنما يكفيه:

١- أن يعبر بإخراجها عن شكر الله تعالى، وبدفعها عن حمده سبحانه،

٢- ويكفيه أنها شفاء من المرض، كما أخبرنا المصطفى ﷺ حين قال: «داووا مرضاكم بالصدقة».(صحيح الترغيب: ٤٤٧)

٣- وأنها تسد على المتصدق «سبعين بابا من الشر» كما أخبرنا رسولنا الكريم بذلك.(الكامل في الضعفاء: ٣/٧١)

٤- وأنها «تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار».(سنن الترمذي: ٦١٦٢)

٥- ويكفيه أيضا أن تكون له وقاية من النار يوم القيامة مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.(الليل: ١٤-٢١) ولقول مصطفاه ﷺ: «اتقوا النار

١- تفسير أبي العباس بن عطاء، ص ٥٥.

ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة». (مسلم: ١٠١٦)

ألا ترى كيف ساوى في الآيات الأولى بين دافعي الصدقات من دون مَنٍّ ولا أذى وبين أوليائه سبحانه وتعالى في عدم الخوف والحَزن: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٢-٦٤)؟، وكيف ساوى بين غاية إخراجها والسعي إلى الرزق والسياحة في الأرض «ابتغاء وجه الله» أي فضله سبحانه وتعالى؟! كما أخبرنا بذلك في أكثر من موضع في كتابه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠)، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾. (النساء: ٣٢)

فكأن إخراج الزكاة يرادف السعي إلى الرزق، فكما ينتج عن زيادة السعي زيادة الدخل ينتج عن إخراج الزكاة نماء في رأس المال، وعلى ذلك فكلما زاد المسلم في إخراجها زاد الله في ماله أضعافا مضاعفة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (البقرة: ٢٦١) أضف إلى ذلك أن الحكمة من إخراج الزكاة أنها أول حقوق الله في المال، فالله أمرنا بها اعترافا بفضله وأداءً لحق الفقراء. وعليه فإن المؤمن حين يخرج زكاة ماله إنما ينال بذلك منزلتين: إنفاق المال في سبيل الله من جهة، وإخراج حب المال من قلبه من جهة أخرى.

في مقابل ذلك؛ كلما امتنع الإنسان عن إخراج زكاته قلت البركة والنماء، فبدلا من أن تكون أمواله التي يتعين إخراجها وقاية له من كل شر، إذا بها تصبح على العكس من ذلك شرا مستطيرا في الدنيا والآخرة: ﴿وَلَا

يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾.(آل عمران: ١٨٠) فلقد أمر الله القوي بمساعدة العاجز حتى يجد القوي في أثناء عجزه من يساعده، كما أنه لا يطلب منا الزكاة من شيء نملكه نحن ولكنه يبصرنا إلى أن جميع ما نملكه إنما هو عطاء منه ورزق من فضله، وإلى ذلك المعنى يشير سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.(البقرة: ٢٥٤)

يترتب على ما سبق؛ أن لدى الإسلام من الكفالة ما يجعله متمسكا بحقيق فكرة المساواة، وذلك بفرض الزكاة، وهو بذلك يناهض عمليات المبادلة التي لا ضابط لها وحبس الثروات واحتكار الأموال، كما يناهض عمليات الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية بدون سند شرعي أو أخلاقي.

من ناحية أخرى؛ فإن الزكاة كانت في الإسلام أعظم علاج لأخطر مشكلة ألا وهي مشكلة الفقر، كانت طاعة نفسية كما كانت خطة اقتصادية حيث علمت المسلمين كيف كانوا بما في يد الله أوثق مما في أيديهم، وأن المسارعة إلى إخراجها تحدث بنعمة الله وعرفان بفضله وشكر على آلائه يضاعف النعمة ويزيدها نماء: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾.(إبراهيم:٧) خاصة إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أن السلوك في طريق الحق لا يكون إلا «على السخاء واجتناب البخل: وهو بذل المال والنفس والسرّ والروح والكل. فمن بخل بشيء في طريق الحق، حُجِبَ به وبقي معه، ومن نظر في طريق الحق إلى الغير، حُرِمَ فوائد الحق وسواطع أنوار القرب. كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: ما جُبل ولي الله إلا على السخاء».[1]

١- تفسير أبي العباس بن عطاء، ص ٤٤.

ومن ثم، فإن الامتناع عن آداء الزكاة مع ادعاء الإيمان يعد أكبر برهان على كذب هذا الادعاء، وآية ذلك قوله سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ (آل عمران: ٩٢)

وإذا كانت الزكاة برهانا، فإنها أيضا امتحان يستبين فيه من أجاب داعي الله، ومن أعرض عنه. ثم هي تطهير للنفس وتزكية لها، وتطهير للمال وتزكية له «والمال الطاهر المزكى: ينمو باستمرار، ويجعل الله فيه البركة، ويحفظه من التلف، ويبعد عنه الآفات، ثم يخلفه الله: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (سبأ: ٣٩) ويعوضه أضعافا مضاعفة».[١]

ولاشك أن في الزكاة تحريرا للإنسان من عبودية المال وسيطرته على النفس، فإذا تمكن الإنسان من مقاومة سلطان المال والشح به نجح في التخلص من ضروب العبودية الأخرى. خاصة إذا ما علمنا أن للعبودية ظهورا في جميع عوالم العبد وشؤونه العقلية والروحية والمادية، وحقيقة العبودية لله أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكا، لأن العبيد لا يكون بحوزتهم ملك، بل يرون المال مال الله، يضعونه حيث أمر الله، ولا يدبرون لأنفسهم تدبيرا، وإنما يكون جملة اشتغالهم بما أمرهم به المولى عز وجل وما نهاهم عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكا، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوّض العبد تدبيرَ نفسه إلى مدبّرها، هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد فيما أمره الله ونهاه، لا يتفرّغ منهما إلى الاشتغال بصنوف المراء والمباهات. فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث، هانت عليه الدنيا وإبليس والخلق، ولا يطلب الدنيا تفاخرا ولا تكاثرا، ولا يطلب عند الناس عزّا ولا علوًّا ولايدع أيّامه باطلة، فهذا أوّل درجة التقى.

١- عبد الحليم محمود، أسرار العبادات في الإسلام، ٧٠.

ولهذا ورد الأمر الإلهي: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد:٧)، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾. (النور: ٣٣)، فالزكاة إحدى فرائض الإسلام الخمسة ولا وجه للإعراض عنها بحال من الأحوال شأنها في ذلك شأن كل من الشهادتين والصلاة والصيام وحج البيت.[١]

ومن أهم مميزات هذه الفريضة التي تكفل تحقيق التضامن الاجتماعي أن الدافع إلى تشريعها لم يكن شيئا عارضا، ولا نتيجة لثورة من الفقراء أو طلب منهم أو من غيرهم، وإنما كان الدافع إليها هو أمر المولى عز وجل الذي قرن بينها وبين الصلاة، وجعل ترك هذه ومنع تلك سببا لدخول النار، كما جاء في القرآن الكريم في مساءلة المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾. (المدثر: ٤٢-٤٤) كما جعل إهمال العناية بالفقير والمسكين وابن السبيل من مظاهر الكفر والتكذيب بيوم الدين: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (المدثر: ٤٦)، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾. (الماعون: ١-٣) ويقول في شان صاحب المال والسلطان المستحق لعذاب الجحيم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾. (الحاقة: ٣٣-٣٤)

وعلى ذلك؛ فإن الإسلام لم يكتف بإيجاب إطعام المسكين، حتى أوجب الحض على إطعامه، وجعل ذلك فرضا بارزا في الدين، يذكر جنبا إلى جنب، مع الإيمان بالله، وإقامة الصلاة. حيث لم تكن الزكاة في الإسلام مجرد إسعاف مؤقت للفقير والمسكين، ثم يترك بعدها لأنياب الفقر والعوز ومخالب الفاقة والحاجة وثعالب الحرمان لتنهش في جسده الهزيل؛ وإنما

١- الشعراني، أسرار أركان الإسلام، ص ٤٧. والهجويري، كشف المحجوب، ٢/٥٥٧.

كانت «معونة دورية منتظمة، بحيث يهل العام الجديد، فيهل معه الخير على المستحقين من حصيلة زكاة الأموال الحولية كالأنعام والنقود والتجارة والصناعة. ومثل ذلك كلما جاء الحصاد والجذاذ وافاهم نصيبهم من زكاة الزروع والثمار».[١]

ثانيا: الآداب الروحية لفريضة الزكاة

إن الزكاة - بمعناها الذوقي- لا تقتصر على المال فحسب؛ وإنما تتسع لتشمل زكاة البدن والقلب معا. أما أول ما ينبغي على العبد معرفته في شأن الزكاة؛ فأن يعلم الحكمة أصلا من أدائها من حيث هي إخراج نصيب من ماله للفقراء والمحرومين، لأن الله تعالى قد جعل لهم حقوقا في أموال الأغنياء هي مفروضة عليهم، وليس لأصحاب الأموال فيها شيء، فالمال في حقيقته هو مال الله، ولو كان مال الزكاة ملكا لصاحبه لما وقع الوعيد لمانعها كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. (التوبة: ٣٤)

وتبعا لذلك؛ فإن من لم يؤد الزكاة يكون قد أحب ماله حتى مال به واستغرقته محبته فصار ذليلا لما أحبه ولزمته عبوديته.[٢] وفي المقابل من ذلك؛ تحصل زكاة البدن بأن يصرفه صاحبه فيما أمر الله به، وبأن يحفظ العبد جوارحه بحيث تكون مستغرقة في خدمة الله وطاعته ومشغولة بعبادته، وبحيث لا تميل إلى اللهو أو اللعب، فإذا كانت كذلك فقد حقق صاحبها زكاتها أو طهارتها.

والحال أن المسلمين لو حرصوا على تنفيذ نظام الإسلام المحكم فيما يتعلق بإخراج الزكاة لساد بينهم التآلف والتعاون والتراحم والتواصل مما يسعد حالهم ويعلي شأنهم وينزع من صدور فقرائهم غل البغضاء وأضغان

١- دور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية، ٣٥.

٢- الشعراني، أسرار أركان الإسلام، ٥٠.

الشرور، ويغنيهم عن كثير مما يعانون من المتاعب والمصاعب في سبيل الذود عن الأنفس والأموال، ودفع غائلة ما يدب في قلوب الفقراء من الأثرة وحب الذات واكتناز الأموال واغتيال حقوق المحتاجين فيها، وناهيك بما تحمله من شرور مستطيرة وأخطار اجتماعية جمة باتت تهدد استقرار مجتمعاتنا الإسلامية بالفعل بعد أن كانت في الماضي القريب خطرا تحذر منه بعض الكتابات!

ولا أدل على قيمة الزكاة في الإسلام من أن الرسول الكريم قد مزج ما بين الصدقة المادية ونظيرتها المعنوية ليتم بذلك الجمع بين العمل الحسي والشعور الخلقي/الروحي حين قال: «تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة وإماطتك الأذى عن الطريق صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة»، وعن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك».

فالتزكية، وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، تحصل كذلك بإزالة الشر: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (فصلت: ٦-٧) وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة «لا إله إلا الله» وهذا أصل ما تزكو به القلوب فالتزكية: جعل الشيء زكيا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر، أو في اعتقاد الناس، يقول تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (النجم: ٣٢) أي تخبروا بزكاتها.[١]

ومما يبين أن الزكاة تستلزم الطهارة – لأن معناها معنى الطهارة–

١- أمراض القلوب وشفاؤها، ١٥.

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣) أي تطهرهم من الشر وتزكيهم بالخير فتذهب عنهم السيئات فيصيرون طاهرين منها، وتزكو أنفسهم حينئذ بالعمل الصالح مع زوال الذنوب.[١] ومما يعزز ذلك (كون عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من السيئات)، ورود الآية السابقة بعد قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٢)، مما يوحي بأن التوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهر والتزكية.

ولهذا قال في سياق الأمر بغض البصر وحفظ الفرج: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣٠-٣١) حيث أمرهم جميعا بالتوبة ، لأنه لا يسلم أحد من ذنب هذا الجنس كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه». (صحيح البخاري: ٦٢٣٤)

١- ابن تيمية، تزكية النفس، ٤٩.

هذا ويفصل أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» جملة الآداب الباطنية المصاحبة لفريضة الزكاة في ثمانية:

الأولى، أن يفهم صاحب الزكاة وجوبها ومعناها ولم كانت كذلك مع أنها في الأصل تصرف مالي وليست من عبادة الأبدان. وهذا يفضي به إلى معرفة ثلاثة أمور:

أولها: أن التلفظ بالشهادتين إلزام بالتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وهو مما يوجب عليه تمام الوفاء والقيام به، وإنما يحصل هذا الأمر بأن لا يبقى في قلبه سوى الواحد، فالمحبة في أصلها لا تقبل الشراكة كما أن التوحيد باللسان فقط قليل الجدوى. ومن ثم؛ فالتوحيد بهذا المعنى الذوقي يفيد التطهر وهو تحقيق للزكاة أيضا بوصفها طهارة.

أما ثانيها: فلا يخرج هو الآخر عن معنى التطهر من البخل مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. (الحشر: ٩)

ثالثها: فهو شكر النعمة لأن لله على عبده نعمة في نفسه، ونعمة في ماله كذلك.[١]

أما الثانية، فتتجلى وقت أدائها، ومن الأدب في الدين أن يعجل المرء بها عن وقت وجوبها إظهارا للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات.

والثالثة، تتمثل في الإسرار بها، لأن في تحقيقها بهذه الكيفية ابتعادا بها عن الرياء والسمعة والعجب.

أما الرابعة، فأنْ يُظهرَ دفعهَا حيث يعلم أن في إظهارها ترغيبا للناس في الاقتداء به.

١- إحياء علوم الدين، ١/ ٢٢٠-٢٢١.

الخامسة، ألا يفسد صاحب الزكاة صدقته بعد دفعها بالمن والأذى لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾. (البقرة:٢٦٤)

السادسة، أن يستصغر العطية؛ لأنه متى استعظمها حصل له الإعجاب بها، والعجب من المهلكات، فضلا عن أنه محبط للأعمال.

أما السابعة، فأن ينتقي من ماله أجود ما فيه وأحبه إليه مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. (البقرة: ٢٦٧)

الثامنة، أن يطلب لصدقته مَنْ تزكو به الصدقة دون أن يكتفي أن يكون من عموم الأصناف الثمانية؛ لأن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات.[1] وبهذا تكون الزكاة تطهرا كاملا على مستوى كل من المال والروح والبدن.

١- المصدر السابق، ١/٢٢١-٢٢٥.



الفصل الخامس

القيم الروحية للصيام

يدل كون الصيام فريضة مشتركة بين جميع النحل ومختلف الأديان على أهمية هذه الشعيرة في تحقيق التهذيب والتقوى وتأهيل البشر للخلافة التي خلق الله العباد من أجلها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾. (الأنعام: ١٦٥) ففي الصوم تذكير بالمعاني الخلقية والقيم الروحية السامية؛ ومن هنا نفهم قول رسول الله، ﷺ،: «من لم يدع قول الزور والعمل به؛ فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». (صحيح البخاري: ١٩٠٣)

وإذا كان تعريف الصوم لا يخرج عن معنى «الإمساك عن الطعام والشراب لمدة معينة، قد يتخذ فيها صورا مختلفة، مخففة أو مشددة بحسب النظم الدينية والظروف»؛ فإن هكذا تعريف يقتصر على الوجهة المحسوسة الظاهرة للصوم، متجاهلا بذلك جملة المقاصد الداخلية الروحية التي يتوخاها الصائمون في صيامهم، والتي تضيف لتعبدهم قيمة روحية تحقق المعنى الديني العميق للصوم.

وبحسب البعض؛ فقد درس علماء الأديان هذه الظاهرة المهمة من الحياة الدينية، فاستطاعوا أن يرجعوها إلى الأقسام التالية:

١- الصوم كعمل تقشفي أو كوسيلة للتضرع إلى الله تكفيرا للذنوب أو طلبا لنعمة ما.

٢- الصوم كمقدمة لعشاء ديني سري، أو كتحضير لانتساب العضو الجديد إلى جماعة دينية معينة.

٣- الصوم كتعبير لحزن شديد يريد المرء أن يعرفه للملأ.

٤- الصوم كوسيلة لتطهير النفس وقمع شهواتها.

٥- الصوم كوسيلة لإحداث الرؤية والأحلام.

٦- الصوم كمُعزّز لعمليات سحرية.

ومن المؤكد أن الصيام لم يأخذ معناه الحقيقي السامي إلا في الديانات

الثلاث الكبرى (اليهودية، والمسيحية، والإسلام).[1]

وبمراجعة الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها فرض الصيام يمكننا الوقوف على بعض المعاني النبيلة والأهداف السامية المرتبطة بتلك الفريضة الواجبة. يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣-١٨٦)

فأول ما يلفت الانتباه في هذه الآيات هو أن المولى سبحانه وتعالى قد عبر بكلمة «لعل» ولم يقطع ويجزم بأن ثمرة الصوم هي تحقق التقوى لامحالة؛ ليفيد بأن الصوم يعد نفس الصائم للتقوى، فإذا ما تعهد الإنسان نفسه، التي أعدت بالصوم، وانتهى إلى التقوى، كان جزاؤه عند الله عظيما. ولذلك عندما طلب أبو أمامة من رسول الله ﷺ أن يأمره بعمل ينفعه الله تعالى به، قال ﷺ: «عليك بالصوم، فإنه لا عِدلَ له، فكرر له أبو أمامة الطلب، فقال ﷺ: عليك بالصوم، فإنه لا مِثلَ له. فلما أعاد أبو أمامة الطلب للمرة الثالثة، قال ﷺ نفس ما قاله في المرة الثانية. (الترغيب والترهيب: ٢/٩٠١)

١- جورج شحاته قنواتي، الصوم في اليهودية والمسيحية، ضمن المصدر السابق، ص ٢٩-٣٠.

وتبعا لذلك؛ فإن من تعهد نفسه واتقى تَصْدُقُ فيه الأحاديث التي تتحدث عن مضاعفة أجر الصوم لما يزيد عن سبعمائة ضعف، على حين أن الذي لم يتعهد نفسه، ولم يتق، تصدق فيه الأحاديث الأخرى التي تفيد أنه: «ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» إلا أن يتولاه الله برحمته، وأنه «ليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» فجزاء الصوم مرتبط إذن بمن يصوم إيمانا واحتسابا: أي من يصوم على التصديق والرغبة، غير كاره ولا مستثقل لأيامه، طلبا لوجهه تعالى.[١]

ثاني الأمور التي يمكن ملاحظتها على السياق الذي ورد فيه فرض الصوم، أن الأمر به جاء بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أن هذا الشهر الكريم نزلت فيه الهداية الكاملة ممثلة في القرآن الكريم: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ». وكأنه أراد بذلك أن نحتفل بالهداية ممثلة في القرآن، بما يُعد النفس، ويمهدها، لاستقبال هذه الهداية على خير ما ينبغي: أي بالصوم.

وكأننا بالصوم، إيمانا واحتسابا، نصل إلى مستويات من شفافية النفس وتطهيرها وتزكيتها، فتتنسم هدي السماء من دون شوائب، وتتشربه دون مكدرات.

ومن يرض بالإسلام دينا، يعلم يقينا أن شهر رمضان جامع للحسنيين: القرآن والصيام. فمَن أحسن تدبر القرآن، وأحسن صيام رمضان «إيمانا واحتسابا» اكتمل إيمانه، وتمت نعمة الله عليه، وحقق التقوى، ودخل في نطاق أوليائه تعالى الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (يونس: ٦٢)

ثالث الأمور التي يمكن فهمها من خلال السياق الذي ورد فيه فرض الصوم، يمكن تلمسه من قوله تعالى – مختتما بعض آيات الصوم–: «وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون». فشكر الله هاهنا يكون

١- عبد الحليم محمود، أسرار العبادات في الإسلام، ص ٨٧-٨٩.

على هدايته أولا، وعلى توفيقه لنا بإتمام الصوم ثانيا، وعلى اكتمال نفوسنا بالتطهر والتزكية ثالثا. وكلما زدناه شكرا زادنا مغفرة، وكلما زدناه حمدا زادنا هداية، وكلما زدناه تضرعا زادنا توفيقا: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. (إبراهيم: ٧)

ولعل مما له مغزاه العميق هاهنا، أنه في ثنايا هذه الآيات الكريمات التي تتحدث عن الصوم وتوجهنا إلى التقوى، وإلى تكبير الله، وإلى الشكر، إذا بالمولى سبحانه وتعالى يخاطب رسوله الكريم، ﷺ، قائلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦) وكأنه أراد أن يؤكد بذلك: «أن النفوس التي صامت إيمانا واحتسابا، وتزكت، وتطهرت، والتزمت التقوى، وكبرت الله وشكرته: إنما هي نفوس قريبة من الله، إذا دعته استجاب، وإذا استلهمته الرشد والصواب ألهم، وإذا استهدته هدى».[١]

وفي كل الأحوال؛ يكفي للتدليل على قيمة الصوم في الإسلام أنه من أسباب المغفرة كما أخبر بذلك المولى عز وجل حين قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. (الأحزاب: ٣٥)

ويكفي أيضا ما أخبرنا به في الحديث القدسي من أن: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». حيث ورد هذا الحديث بصيغ شتى أشهرها ما جاء في الصحيحين: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها

١- أسرار العبادات في الإسلام، ٩٢-٩٣.

إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي. للصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه. ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». وفي رواية أخرى عند البخاري: «لكل عمل كفارة، والصوم لي وأنا أجزي به»(صحيح البخاري: ٧٥٣٨) و «كل العمل كفارة إلا الصوم والصوم لي وأنا أجزي به».(مجمع الزوائد: ١٨٢/٣)

وبطبيعة الحال؛ لم يكن اختصاص المولى سبحانه بالصوم من دون سائر العبادات الأخرى أمرا عبثيا أو محض مصادفة؛ وإنما لحكمة قدرها سبحانه وتعالى. فهنا استثناآن: الاستثناء في الرواية الأولى من المضاعفة، والاستثناء في الأخيرتين من التكفير، وكل منهما يحتاج إلى بسط:

(١) فمما يتعلق بالاستثناء الأول - استثناء الصوم من المضاعفة- فيفهم منه أن الأعمال كلها تضاعف إلى سبعمائة، إلا الصيام، فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله تعالى أضعافا كثيرة بغير حصر عدد. ومما يؤيد ذلك كون الصيام من الصبر الذي هو نصف الإيمان.

على أن مقاصد الصبر - من الصبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى ماقضى الله تعالى من المؤلم الذي لا يلائم النفس من مرض وموت ...إلخ- كلها مجتمعة في الصوم؛ فإن فيه صبرا على طاعة الله تعالى، وصبرا على ما حرم تعالى من المفطرات، وصبرا على ما يؤلم الصائم من الجوع والعطش وضعف النفس والبدن. ومما يدل على عظيم ثواب الصابرين على تحمل تلك الآلام قوله تعالى في أمر المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.(التوبة: ١٢٠)

فالصائم الصابر لله تعالى على ألم الجوع والعطش، لا يضيّع الله أجره، بل يكتب له به عملا صالحا في مقابلة إحسانه وطاعته. فقد روى ابن خزيمة في صحيحه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه في فضل شهر رمضان: «وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة، من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه».

(٢) ومما يتعلق بالاستثناء الثاني - أعني أنه يعود إلى التكفير بالأعمال- ما قاله سفيان بن عيينة من أنه: إذا كان يوم القيامة يحاسب الله عبده، فيؤدي ما عليه من المظالم من سائر أعماله، حتى لا يبقى إلا الصوم، فيتحمل الله عز وجل ما بقي عليه من المظالم (في حقه تعالى) ويدخله بالصوم الجنة. (صحيح الترغيب: ٩٧٨) وعلى هذا يكون المعنى أن الصيام لله عز وجل، فلا سبيل لأحد إلى أخذ أجره من الصيام، بل أجره مدّخر لصاحبه عند الله.

على أن المقصود بالصيام هنا: من صام صوما تحفّظَ فيه من جميع ما ينافي كمال الثواب، يكون صومه هذا مضافا إلى الله تعالى، لأنه لكماله استحق تلك الإضافة الظاهرة.[١] هذا وقد فصل علماء الإسلام، من الفقهاء وغيرهم، القول في أسباب تخصيص الصوم من بين سائر العبادات، وفي مقدمتها:

أولا: أن جميع الفرائض حركات جوارح، يتهيأ للخلق أن ينظروا إليه إلا الصوم، فإنه عبادة بغير حركة الجوارح.[٢] وتبعا لذلك؛ فإن الصوم بهذه الخصوصية هو عبارة عن عبادة سرية لا تتعلق بالظاهر فقط وإنما بالباطن أيضا ولهذا قال تعالى: إلا الصوم فإنه لي.[٣] ومما يؤيد أن سبب الإضافة ما مر قوله بعدها: إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي. وذلك أنه إذا اشتد توقان نفسه إلى ما تشتهيه ثم تركته مع قدرتها عليه لله عز

١- اتحاف أهل الإسلام، ٣٣-٣٥.

٢- اللمع، ٢١٦.

٣- كشف المحجوب، ٢/٥٦٤.

وجل في موضع لا يطلع عليه فيه إلا الله تعالى، كان ذلك دليلا واضحا على صحة إيمانه وكمال إيقانه، وأنه قد عرف الله تعالى بأعظم صفاته، من علمه بما تكنه الضمائر وتخفيه السرائر. فمن ثَمَّ شكر الله له ذلك وخص عمله من بين سائر الأعمال بإضافته إليه.

ثانيا: أن الصوم فيه ترك جميع حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها، لوجه الله تعالى، ولا يوجد ذلك كله في عبادة أخرى. ألا ترى أن الإحرام بالحج أو العمرة، وإن حرّم كثيرا من ذلك كالجماع ومقدماته ودواعيه من الطيب مثلا، فهو لم يحرم أعظم الشهوات من الأكل والشرب؟! كما أن انفراده بتحريم مالم يحرمه الصوم لا يُردّ به على ذلك، لأن تلك المحرمات التي انفرد بها من نحو أخذ الشعر والدهن واللبس وغيرها ليس فيها أعاظم مشتهيات النفس وأغراضها التي تثابر عليها ولا تصبر عنها، بخلاف مفطرات الصوم التي تعد أشد محبة للنفس.

ومن هنا؛ كان الصبر عنها أفضل وأعلى من الصبر عما انفرد به الإحرام. أضف إلى ذلك أيضا؛ أن القصد من الصوم بطريق الذات تجرد الباطن بالإمساك عما ينافي ذلك التجرد، وهذا هو السر المقتضي لاختصاص الصيام بإضافته إلى الله له دون غيره من الأعمال.[1]

١- اتحاف أهل الإسلام، ٣٦-٣٧. هذا ويخلص ابن حجر إلى أن القصد من الإحرام تجرد الظاهر عن العلائق والترفيهات حتى يكون المحرم أشعث أغبر. ويضيف كذلك أنه إذا تقرر ذلك فإن:

(١) من مشتهيات النفس ما يؤثر في كل من التجردين (الظاهري والباطني)، وهو الجماع ومقدماته، فحرم على كل من الصائم والمحرم.

(٢) ومنها ما ينافي تجرد الباطن فقط، فحرم على الصائم وحده، وهو الأكل والشرب ونحوهما.

(٣) ومنها ما ينافي تجرد الظاهر فقط، وهو الحلق والقلم واللبس وغيرها فحرم على المحرم فقط.

ولا ينافي ما قررناه من انفراد الصوم بأن فيه ترك تلك الحظوظ المقتضي لاختصاصه بإضافته إلى الله تعالى، أن الصلاة متضمنة لترك جميع ذلك أيضا، للفرق الواضح بينهما لأن الصلاة لا تطول مدتها فلا يجد المصلي ألما لفقد الطعام والشراب والجماع فيها، ويؤيد ذلك أنه يكره له أن يصلي بحضرة طعام يتوق إليه حتى يتناول منه كفايته إن اتسع الوقت، وأن طائفة من العلماء أباحوا شرب الماء في صلاة التطوع، ونقل عن الزبير أنه كان يفعله في صلاته، وأما الصائم فإنه يقاسي لفقد ذلك ألما عظيما وعناءً جسيما، سيما في الصيف.

ناهيك بأن في التقرب بترك تلك الشهوات لله تعالى فوائد كثيرة، من بينها: «كسر النفس، وتخلي القلب للفكر والذكر، (كما أن) خلو الباطن من الطعام والشراب ينور القلب ويزيل قسوته، ومنها أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه، بإقداره على ما منعه كثيرين من الفقراء، فبالصوم تنكسر القوة الشهوية والغضبية، وتسكن وساوس الشيطان، ومن ثم جعل النبي ﷺ الصيام وجاء، أي قاطعا عن شهوة النكاح المستلزمة لقطعه عن بقية الشهوات بالأولى».[1]

ثالثا: من أوجه إضافة جزاء الصوم إلى الله تعالى دون سائر العبادات أنه لم يُتقرب إلى غير الله بالصوم لذاته، فلا يرد صوم أصحاب الهياكل والاستخدامات للنجوم، لأنهم لا يعتقدون أنها فعالة بنفسها، فصومهم في الحقيقة لربها، أو أن في الصوم إشارة إلى صمديته تعالى دون سائر العبادات، أو لأن الاستغناء عن الطعام وسائر الشهوات من صفاته تعالى، والصوم فيه نوع يوافقها، فلذلك أضافه تعالى إليه.

ومن هنا جاء قول القرطبي: إن أعمال العباد مناسبة لأحوالهم إلا الصوم؛ فإنه مناسب لصفة من صفات الحق، فكأنه تعالى يقول: إن الصائم يتقرب إليّ بأمر هو من صفاتي، أو أن الإخلاص فيه أتم وأسهل، أو لكونه كصفة من صفات الملائكة، أو لأنه تعالى هو المنفرد بعلم مقدار ثوابه، ولذا قال: وأنا أجزي به. وقد علم بأن الكريم إذا أخبر بنفسه أنه يتولى الجزاء اقتضى ذلك سعة العطاء وخروجه عن إحصاء العادين وحساب الحاسبين.[2]

ومما يرجح ذلك ما ورد في رواية أخرى أخرجها ابن حبان عن ابن عمر أن: «الأعمال عند الله سبعة: عملان موجبان، وعملان بأمثالهما، وعمل بعُشّر أمثاله، وعمل بسبعمائة، وعمل لا يعلم ثوابه إلا الله تعالى.

١- اتحاف أهل الإسلام، ٣٨.

٢- المصدر السابق، ص ٧.

فأما الموجبان فمَن لقي الله يعبده مخلصا لا يشرك به شيئا وجبت له الجنة، ومَن لقي الله قد أشرك به وجبت له النار، ومن عمل سيئة جوزي بمثلها، ومن همّ بحسنة يجزى بمثلها. ومن عمل حسنة جزي عشرا، ومن أنفق ماله في سبيل الله ضَعَّفَ الله نفقة الدرهم بسبعمائة درهم والدينار بسبعمائة دينار، والصيام لله تعالى لا يعلم ثوابَ عامله إلا الله الحكيم». وهو ما دفع جماعة من العلماء إلى التأكيد أن الصوم أفضل العبادات أخذا من تلك الإضافة، التي تدل على أن ثوابه أعظم الثواب وأكمله، إذ الإضافة إلى العظيم الكريم ليست إلا كذلك.

كما أن في الصوم تجديدا للعهد مع الله عبر ذلك التأديب السامي، والتهذيب الرفيع، واستعادة لحلاوة الإيمان، وصحة الضراعة وجلب العزائم، وإيثار العفو، وسهولة البر، وتقوية للإيمان الراسخ وتثبيت لتفضيل الآخر وإيتاء المال على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر ﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. (البقرة: ١٧٧)

وهذا الأمر – التقوى كغائية للصوم- يدل له، أو عليه، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (البقرة: ١٨٣) وقوله ﷺ: «الصيام جنة من النار كجنة أحدكم من القتال مالم يخرقها بكذب أو غيبة».[١] حيث المراد بالصيام هنا صيام من سلم صيامه من المعاصي قولا وفعلا.

يترتب على ما سبق؛ أن للصوم آدابا ظاهرة وأخرى باطنة: أما الظاهرة فمنها المبادرة بالفطر عند تحقق الغروب لقوله ﷺ: «لا يزال الناس بخير

١- رواه أحمد والنسائي وابن ماجة عن عثمان بن أبي العاص. وفي روايات مشابهة: «صوموا فإن الصيام جنة من النار، ومن بوائق الدهر» (أخرجه ابن النجار عن أبي مليكة)، و «حصنا أمتي: الصيام والقيام» (أخرجه أحمد والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنه)، و «الصوم جنة من عذاب الله كمِجَنِّ السلاح من السيف» (أخرجه البغوي).

ما عجلوا الفطر».(صحيح البخاري: ١٩٥٧) ومنها إيثار الإفطار من بين سائر المأكولات والمشروبات على رطب ثم تمر ثم ماء، لما روي عن أنس: «كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلي فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات فإن لم تكن حسا حسوات من ماء «.(سنن أبي داود: ٢٣٥٦)

ومنها الأذكار التي تقال عقب الفطر، كقوله ﷺ: «اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت، وعليك توكلت سبحانك وبحمدك، تقبل مني إنك أنت السميع العليم»، وفي أخرى: «ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى».(رواه الطبراني) ومنها تأخير السحور والحث عليه، لقوله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة» وقوله: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور».(رواه الستة)

ومنها أن يبادر بالغسل من الجنابة قبل الفجر، لقوله ﷺ: «من أصبح جنبا فلا صوم له».(رواه البخاري) ومنها كف اللسان والجوارح عن المحارم، لما ورد من حديث: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل فإن جهل عليه جاهل فليقل إني صائم».(مجمع الزوائد: ١٨٢/٣) ومنها كثرة الجود ودرس القرآن ومدارسته والتهجد، لما ورد عنه ﷺ أنه كان «أجود الناس، وأجودُ ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».(صحيح البخاري: ٦)

ذلك أن كثرة التصدق في رمضان تعد دليلا صحيحا واضحا على أن الصوم وقراءة القرآن قد أثمرا في نفس الصائم الثمرة المرجوة، ألا وهي تقوى الله عز وجل: «لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ». أما هذا الذي يصوم النهار، ويقيم الليل، ويقرأ القرآن، من دون أن يشرق قلبه بنور الرحمة، ومن دون أن تتألق نفسه بضياء الكرم، هذا الذي لم يوق شح نفسه «فإن ذلك، إذا دل على شيء، فإنما يدل على أن وسائل النور هذه لم تتغلغل في نفسه، فتصل إلى

أعماقها مختلطة بلحمه ودمه، فتقوده إلى الجود والإحسان».[1] ولذلك ربط سبحانه ما بين الجود والفلاح والشح وعدم الفلاح حيث قال: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.(الحشر: ٩)

ففي مضاعفة جوده ﷺ في رمضان الذي ينبغي لأمته التأسي به - كما أشار إلى ذلك الشافعي بقوله: أحبُّ للرجل الزيادة بالجود في رمضان اقتداء برسول الله ﷺ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثيرين منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم- فوائد شتى من بينها: شرف الزمان لما روي من أن: «أفضل الصدقة صدقة في رمضان»،(الترغيب والترهيب:٢/١٣١) و «من فطّرَ صائما فله مثل أجره».[2] ولما رواه ابن خزيمة في صحيحه في فضائل رمضان: «وهو شهر المواساة وشهر يزداد فيه رزق المؤمن، ومن فطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتقاً لرقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء. قالوا: يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر به الصائم. قال: يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة ماء، ومن أشبع فيه (جائعا أو روى عطشانا) سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة». (الترعيب والترهيب: ٢/١١٥)

فإذا كان الله تعالى يجود في هذا الشهر الكريم على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار، فحُقّ لعباده الرحماء أن يجودوا على عباد الله فيه بما جاد عليهم سبحانه بالعطاء الجزيل والخير العميم، والراحمون يرحمهم الرحمن، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. خاصة وأن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة تبعا للحديث الشريف: «إن في الجنة غرفا تُرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها. قالوا:

١- أسرار العبادات في الإسلام، ٩٧.

٢- رواه الشافعي وأحمد والترمذي وابن ماجه. زاد الطبراني: «وما عمل الصائم من أعمال البر إلا كان لصاحب الطعام مثله مادام قوة الطعام فيه».

لمن يا رسول الله؟ قال: لمن طيَّبَ الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام». (سنن الترمذي: ١٩٨٤)

ومعلوم أن هذه الأمور كلها تكون في رمضان الذي يكفر الجمع فيه بين الصيام والصدقة الخطايا والآثام، خاصة وأن الصيام لا يسلم غالبا من اقتران خلل أو نقص به، وتكفيره للذنوب مشروط بالتحفظ مما لا ينبغي قولا وفعلا «ولغلبة عدم هذا التحفظ نُهي الإنسان أن يقول: صمتُ رمضان كله أو قمته كله، فالصدقة تجبر نقصه وخلله. ولهذا وجبت في رمضان زكاة الفطر طهرة للصائمين من اللغو والرفث».[١]

ومن الآداب الظاهرة للصيام أيضا الاعتكاف، لما روي في الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها، أن النبي ﷺ «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله». (صحيح البخاري: ٢٠٢٦) ومنها قيام ليلة القدر، لقوله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه». (صحيح البخاري: ١٩٠١)

هذا ويترتب على ذلك؛ أن جزاء الصائمين، كما الصابرين، بلا نهاية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. (الزمر: ١٠) وبالتالي يخرج الصوم من عداد الحسنات المعدودة وثوابها، لأنه صبر للنفس عن مألوفاتها من المأكول والمشروب، وإمساك للجوارح عن جميع شهواتها، ولهذا السبب فالصائمون من هذه الجهة هم الصابرون.[٢] وهو ما عبر عنه الحديث الشريف: «الصيام نصف الصبر».[٣] وبما أنه صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصبر نصف الإيمان»؛ فإن ذلك يعني أن الصوم يعدل ربع الإيمان. وفي حديث آخر: «لكل شيء باب، وباب العبادة الصيام».

١- إتحاف أهل الإسلام، ١٤٨.

٢- اللمع، ٢١٦.

٣- أخرجه الترمذي وحسّنه عن رجل من بني سليم، وابن ماجة عن أبي هريرة، وفي رواية البيهقي في الشعب: «الصيام نصف الصبر، وعلى كل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصيام».

ومن فضائل الصائمين أيضا أن اللّه تعالى مدحهم في كتابه الكريم، ومن ذلك وصفه تعالى لهم في قوله «السائحون» الذي فسر بالصائمين لأنهم ساحوا إلى اللّه تعالى، أي وصلوا إليه بسبب خروجهم عن مألوفاتهم ومقاساتهم عناء الجوع والعطش. فالصابرون هم الصائمون، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم، فحينئذ يُفرغ للصائم من خزائن الفضل والجود والكرم مالا يحصيه الحساب، ولا يقدر قدره إلا رب الأرباب.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧) قيل: عملهم الذي جوزوا عليه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هو الصوم، وقال يحيى بن معاذ: إذا ابتلي المريد بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له، ومن ابتلي بالحرص على الأكل فقد أحرق بنار الشهوة».[١]

وإذا كان صوم العوام يقتصر على اجتناب المفطرات الظاهرة وحاصلها كف البطن والفرج عما ينافي الإمساك الشرعي المأمور به، وصوم الخصوص أن يضم إلى ما سبق كف السمع والبصر واللسان وسائر الجوارح عن الآثام والمحرمات صغيرها وكبيرها؛ فإن صوم خصوص الخصوص يضم إلى ذينك صوم القلب وطهارة السر عن الهمم الدنيئة والخواطر الرديئة والأفكار الدنيوية، بالكف عما سوى اللّه أصلا ورأسا: فمن فكّر فيما سوى اللّه تعالى مما يحجب عنه كالدنيا التي لا تراد إلا للدين، أو باشر من الأعمال ماليس على سنن المتقين، فهو مفطر عن هذا الصوم الأكمل ومنحرف عن السنن الأفضل.

ولذلك حكم أرباب القلوب بأن «مَن تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه (وقت إفطاره) كتبت عليه خطيئة، فإن ذلك من قلة

١- اتحاف أهل الإسلام، ٣١.

الوثوق بفضل الله وقلة اليقين برزقه الموعود».[١] على أن المراد بالخطيئة في هذا السياق ما ينافي الكمال، وهو عندهم بمنزلة السيئة، لما هو مشهور من أن: «حسنات الأبرار .. سيئات المقربين».

وإذا تقررت هذه المراتب الثلاث للصوم، فبفوات الأولى تختل الصحة، وبفوات الثانية والثالثة يختل الكمال.

وحاصل الكلام أن كمال هذه المرتبة التي هي حفظ الظاهر والباطن عن النقص والإثم، لا يتم إلا بالمحافظة على عدة أمور: منها غض البصر وكفه عن كل نظر محرم أو مكروه، ولذلك صح عن النبي ﷺ أنه قال: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيمانا يجد له حلاوته في قلبه». (مجمع الزوائد: ٨/٦٦) وإنما وجد هذه الحلاوة في قلبه لأنه صانه عن أن يصل إليه ذلك السهم المسموم.

ومنها: حفظ اللسان عن كل لغو وهذيان، وخصومة وفحش، ومراء وكذب، وغيبة ونميمة ...إلخ. ومنها: كف السمع عن الإصغاء إلى كل ما حرم الله، لأن سماعه بمثابة قوله، بل بمثابة أكل الحرام، كما أشار إليه سبحانه حين قال: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ (المائدة: ٤٢)، ومنها: إقامة ناموس الخوف والرجاء في قلبه بعد انتهاء صومه، وذلك لأنه لا يدري أيقبل صومه فيكون من المقربين، أو يرد فيكون من المبعدين؟![٢]

واتساقا مع المعنى العميق للصيام، ليس المطلوب من الصائم إذن مجرد الإمساك عن المأكل والمشرب فقط، وإنما لا بد من صوم الباطن كذلك، أي أن يتحقق الوجهان معا بحيث يكون الصوم ضبطا للظاهر والباطن وكما أن الأول (الظاهر) يحصل بكف الجسد وإمساكه عن الطعام، كذلك يكون الثاني (الباطن) بكف الجوارح عن الآثام.

١- اتحاف أهل الإسلام، ٢٠٥.

٢- المصدر نفسه، ٢٠٦-٢٠٨.

ولأن كثرة الأكل تورث الكسل؛ كان اعتبار الصيام «جنة» أي وقاية من الأمراض العديدة التي تنتج عن الشبع، ولهذا كثرت الآثار التي تحبب في الجوع وتنهى عن كثرة الأكل اتساقا مع حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع»(السلسلة الصحيحة: ١٦٥١/٧)، وما روي عنه أيضا أنه قال: «كبر مقتا عند الله الأكل من غير جوع».(الجامع الصغير: ٦٢١٦)

فالصوم هو مستقر الطمأنينة والرحمة اللتين تحصنان الإنسان من أن يكون مرعى للشيطان، ومكمنا لخراطيمه، ومجرى له كما يجري الدم في العروق، وما أسوأ ذلك المجرى الذي يصد عن ذكر الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.(الزخرف: ٣٦-٣٩)

ولا غرو؛ فإن أقرب الناس إلى الذكر هم الصائمون والجائعون، كما أن أبعدهم من الذكر هم أهل البطنة الغافلون الذين مكنوا للشيطان من أنفسهم بإطلاقهم العنان لإشباع غرائزهم، فوقعوا بذلك فريسة سهلة لغواية الشيطان الرجيم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.(الحجر: ٣٩) ولأن الصوم يعبر عن جوهر الإخلاص في العبادة؛ فقد استحق الصائمون لقب المخلصين ممن يستعصي على الشيطان غواياتهم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.(الحجر: ٤٠-٤٣) فلأنهم ضيقوا مجاري الشيطان بالجوع والعطش، ولأنهم فعلوا ذلك إخلاصا للمولى عز وجل،

استحقوا بذلك أن يظلوا بمأمن من غواية الشيطان اللعين.

وإذا كان الصوم رياضة يعذّب بها البدن بعض التعذيب في بعض الزمن، «فهو كما يعذب الحبيب حبيبه، بإخراج الشوكة من جسده، ولو تركها لسرت في دمه فقتلته، وكما يعذب الأب ابنه بسقيه الدواء المر، ولو لم يسقه لاستشرى المرض في بدنه فقضى عليه... فهكذا تفعل العلل النفسية بالنفوس، ولولا إخراجها بالصوم لمات القلب، وهلكت النفس، وصار ابن آدم شرا من الحيوان، وكثرت مفاسده على وجه الأرض، بدل أن يكون (أمر خلافته) للخير والإصلاح، ومن مات قلبه لم يشعر بما يفعل، ولم يحس بما في عمله من شر».[1]

أما أقوال العلماء في تحبيب الجوع والنهي عن النهم؛ فكثيرة جدا منها ما روي عن بشر بن الحارث، رحمه الله، أنه قال: «إن الجوع يصفي الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق»، وكذلك ما قاله ذو النون المصري: «ما أكلت حتى شبعت، ولا شربت حتى رويت، إلا عصيتُ الله أو هممتُ بمعصيته، وللجائعين والمتقللين من الدنيا ولذاتها ومشتهياتها الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ، فإنه كان من ذلك بالمحل الأرفع، والمقام الأسنى الأخشع الأجمع، ومآثره ﷺ مشهورة من بينها ما أورده الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد» تحت عنوان: «فصل في هديه ﷺ في الصيام» حيث قال:

«لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، (...) (شرع

١- محمود النواوي، تقديم كتاب إتحاف أهل الإسلام، ٥-٦.

الصوم) فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئا وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارا لمحبة اللّه ومرضاته، وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه».[١]

ومما روي في شأن متابعة الصحابة سنة النبي ﷺ في الجوع والزهد ما قالته حفصة لأبيها عمر، رضي اللّه عنهما، وهو خليفة المسلمين: إن اللّه قد أوسع في الرزق، فلو أكلتَ طعاما أكثرَ من طعامك، ولبستَ ثيابا ألين من ثيابك؟ فقال: أنا أخاصمك إلى نفسك، ألم يكن أمر رسول اللّه ﷺ كذا، يقول مرارا. فبكت، فقال: قد أخبرتك، واللّه لأشاركنه في عيشه الشديد لعلّي أشاركه في عيشه الرخي، أي في الجنة.[٢]

ويُستدّلُ بذلك على أن الزهد يكون في الأمر الحلال كما يجب أن يكون في الحرام، خاصة وأن جوع النبي، ﷺ، لم يكن لحاجة أو بسبب فقره وهو الذي لو أراد لجعلت له جبال مكة ذهبا لكنه آثر طريق الفقر بمحض إرادته حتى يعلم أمته الوسطية في كل أمر، لذا لم يتغير حال صحابته الكرام بعد أن فتحت لهم أبواب الدنيا وحكموا ممالك شاسعة من الأرض.

فقد كان عليه الصلاة والسلام يؤثر الجوع على الشبع حتى أنه لم يشبع هو وآله ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله فيما تقول أم المؤمنين السيدة عائشة، ولذلك صح عنها أنها دائما ما كانت تقول: أديموا قرع باب الملكوت يُفتح لكم. قالوا: كيف نديم؟ قالت: بالجوع والعطش والظمأ». ومن ذلك قول لقمان الحكيم لابنه: «إذا ملئت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة» وفي الحديث الشريف: «ما ملأ

١- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، (٤ أجزاء)، (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م)، ١/ ٢١١.

٢- اتحاف أهل الإسلام، ٣٢.

ابن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسْب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه»[1].كما قيل أيضا: «الدنيا بطنك، على قدر زهدك في بطنك (يكون) زهدك في الدنيا».

واتساقا مع وسطية الإسلام، فضلا عن كونه دين رحمة ببني الإنسان، أباح المولى عز وجل للمرضى وكبار السن ومن هم على سفر أن يفطروا حتى لا يتسبب الصوم في ضعفهم وإعيائهم. يقول تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾.(البقرة:١٨٥) بل إن من الآثار ما يحض على الأخذ بهذه الرخص: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه»، ومن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه قال: «كنا في سفر فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلا في يوم حار، أكثرُنا ظلا صاحب الكساء، فمنا من يتقي الشمس بيده. قال: فسقط الصوّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال الرسول ﷺ: ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله».(أخرجه الستة)

وبطبيعة الحال؛ لا يكتمل صوم المرء حتى ينتهي عن كل معصية؛ ذلك أن المقصود بلفظة «الرفث» الواردة في حديث المصطفى ﷺ: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، وإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤٌ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه».(رواه البخاري) المقصود بها مطلق اللغو والمعصية، والمراد ترك المعصية مطلقا.

ومما يدل على ذلك؛ حديث آخر على شرط مسلم: «ليس الصيام من الطعام والشراب، إنما الصيام من اللغو والرفث». ولذلك قال بعض السلف:

١- (مدارج السالكين: ٢/٤٧)

أهون الصيام ترك الشراب والطعام. وقد روي في معنى ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا صمت فليصم سمعُك وبصرُك ولسانك ويدك»(رواه البخاري) وفي بعض الروايات: ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

وخلاصة الأمر، إن فوائد الصوم أكثر من أن تحصى أو تعد، وهو ما عبر عنه الحديث النبوي الشريف: «صمت الصائم تسبيح، ونومه عبادة، ودعاؤه مستجاب، وعمله مضاعف»[1] وفي حديث آخر: «أبسطوا النفقة في شهر رمضان، فإن النفقة فيه كالنفقة في سبيل الله».(رواه ابن أبي الدنيا) أي الدرهم بسبعمائة والدينار بسبعمائة. أضف إلى ذلك أيضا أنه لو لم يكن في الصوم إلا أن يشعر الإنسان بالحاجة إلى الغذاء الروحي الذي يشغله عنه البدن بمطالبه ويجدد شوقه إلى قراءة القرآن الذي أنزله الله سبحانه في شهره، وقرن هدايته به كما قرن التقوى بصاحبه، فضلا عن الشعور بحلاوة الذكر، وتدبر وفهم كثير من أسرار القرآن التي أعيت معالجتها على غير من صفت نفوسهم وطهرت مداركهم، لكان ذلك حسبه. فإن من فهم عن الله في كتابه، فقد نجا وفاز مع الفائزين.[2]

١- رواه الديلمي عن عبد الله بن أبي أوْفى، وأخرجه ابن منده في أماليه عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال الحافظ الزين العراقي: ولعله ابن عمرو وسنده ضعيف، بل في سند الديلمي سليمان بن عمر النخعي أحد الكذابين. انظر اتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام، ص ١١. وكذلك روى أبو نعيم عن ابن عباس: «نوم الصائم عبادة»، ويؤيد ذلك أنه إذا نوى بأكله وشربه ونومه تقوية بدنه على الصيام أو القيام كان تعاطيه لذلك بهذا القصد عبادة أي عبادة، إذ للوسائل حكم المقاصد. والدليل على ذلك ما أخرجه عبد الرزاق عن حفصة بنت سيرين، قال أبو العالية: الصائم في عبادة مالم يغتب أحدا، وإن كان نائما على فراشه؛ فكانت حفصة تقول: ياحبذا عبادة وأنا نائمة في فراشي. فمن يؤدي ذلك مع الصوم كان ليله ونهاره في عبادة، واستجيب دعاؤه في صيامه وعند فطره، إذ هو في نهاره صائم صابر، وفي ليله طاعم شاكر. وفي حديث أخرجه الترمذي وغيره: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر». راجع: إتحاف أهل الإسلام، ص٤٠-٤١. كما أخرج أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي أمامة: «عليكم بالصوم فإنه لا مثيل له»، وفي رواية أخرى: «أتيتُ النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، مُرْني بأمر آخذه عنك. قال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له».

٢- اتحاف أهل الإسلام، ص ٤ من مقدمة المحقق.

ولعل ذلك هو مقصود الحديث النبوي الشريف: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: أيْ ربِّ، منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه. ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان». (رواه أحمد) فمن ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله رجاء عظيم فضله وجزيل ثوابه، فقد تاجر مع الله، وهو لا يضيع أجر العاملين، سيما من أحسن عملا، فلا يُخَيِّبُ مَن عامَلَهُ بل يُرَبِحُ عليه أعظم الربح وأكمله.

ومما يؤيد ذلك ما أخرجه أحمد أنه ﷺ قال لرجل: «إنك لن تدع شيئا اتقاء الله إلا آتاك الله خيرا منه (في الدنيا والآخرة)».[1]

فالصائم يُعطى ما شاء الله من طعام وشراب تصديقا لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾. (الحاقة:٢٤) قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية في الصائمين. وقال يعقوب بن يوسف الحنفي: بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة: أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وخفقت بطونكم. كونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية.[2]

وختاما، يمكن القول إن من الصائمين من يصوم في الدنيا عما سوى الله: فيحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، ويذكر الموت والبلى، فهذا هو الذي فطره يوم لقاء ربه وفرحه برؤيته، أولئك الذين يرجون لقاء الله عز وجل: و ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. (العنكبوت: ٥-٦)

١- الآداب الشرعية:٣/٢٧٩.

٢- اتحاف أهل الإسلام، ص ٤٣.



الفصل السادس

القيم الروحية للحج

يفيد الحج في اللغة معنيين رئيسين:

أحدهما: القصد، ولهذا سمي الطريق محجة؛ لأنه يوصل إلى المقصود.

ثانيهما: العود مرة بعد أخرى، لأن الحاج يأتي إلى المشعر الحرام قبل الوقوف بعرفة، ثم يعود إليه لطواف الإفاضة، ثم ينصرف إلى مِنى، ثم يعود إليه لطواف الصدر، فيتكرر العود إليه مرة بعد أخرى.

وإلى جانب هذين المعنيين الرئيسين، ثمة معان أخرى للحج تفيد: الكف، والقدوم/الزيارة، وكثرة الاختلاف والتردد، وقصد مكة للنسك، والحج إلى البيت الحرام خاصة.[1]

أما شرعا؛ فيعني قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضا وسنة.

وقد وردت لفظة «الحج» في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة بصيغ متعددة[2]، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩)، وقوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾. (البقرة: ١٩٧) .

ومن فضائل الحج أن الأمر به جاء مشتملا على أكثر من تأكيد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. (آل عمران: ٩٧) فقوله: « وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاس» يعني حق واجب لله على رقاب الناس، لأن «على» تفيد الإلزام. ومنها أنه ذكر الناس، ثم أبدل منه مَن استطاع، وفيه ضربَا تأكيد:

١- الإمام أبو الحسن الماوردي، كتاب الحج من الحاوي الكبير، تحقيق: غازي طه صالح الخصيفان، الطبعة الأولى، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع،١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م)، ١/١٦٤-١٦٥. وانظر: لسان العرب، ٢/٢٢٦.

٢- المعجم المفهرس، ٢٣٧-٢٣٨.

أحدهما: أن الإبدال تنبيه للمراد وتكرير له. والثاني: أن الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين. ومنه قوله: « وَمَن كَفَرَ» مكان مَن لم يحج تغليظا على تارك الحج مع الاستطاعة. ومنه: ذكر الاستغناء وذا دليل السخط والخذلان. ومنه: قوله «عَنِ الْعَالَمِين»، إذ لم يقل: «عنه»، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لامحالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط.[1]

وما دامت العبادات تشتمل على هذا التوجيه الأخلاقي والنزوع الروحاني، فضلا عما لها من فوائد اجتماعية وأخروية، فإن علماء الأمة قد اهتموا بهذا الجانب اهتماما ملحوظا ، وذكّروا الناس بفائدتها عبر العديد من وسائل التربية . وإذا كان الجوهر في الطواف بالكعبة يتمثل في تذكير العبد بسوء طوافه السابق في أرجاء الدنيا ليتوب من ذلك، فإن غاية السعي بين الصفا والمروة تكمن في أن يتذكر المؤمن ماضيَ سعيه قبل الحج: هل كان سعيا للخير وفي الخير؟ أم كان سعيا للشر وفي الشر؟ فإن كان الأول حاله اكتسب سعيه بين الصفا والمروة معنى التأكيد على مداومة السير في الطريق ذاته، وإن كان الثاني جوابه اكتسب سعيه بين الصفا والمروة معنى «الفرصة» التي تفضل بها المولى سبحانه ليتوب من سعي الماضي، وليفتح صفحة جديدة لسعي جديد بقصد الخير وفي الخير.

أولا: الفريضة الجامعة.

لاشك أن الحج يجد في مضمونه العام شعارا صادقا لتوحيد المسلمين؛ فضلا عما يشهده الناس هناك ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾(الحج:) :أي في الدنيا والآخرة، تعظيما لشعائر الله ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.(الحج: ٣٢) وعلى هاتين الآيتين تدور رحى أسرار الحج وحِكَمِه في الإسلام. فبقدر ما يستمسك الحاج بأداء مناسكه، على وجهها

١- المصدر السابق، ٣٠.

الأتم والأكمل ...يكون سموه وفلاحه وزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة. فما أن يشرع في التلبية، حتى يدخل في روعه شعورا قويا وإحساسا صادقا بالقرب من المولى عز وجل، ولا يزال هذا الشعور يتزايد كلما اقترب بدوره من الأماكن المقدسة، وكلما لامس عن قرب الرحاب النورانية والساحات الطاهرة، وانغمس في أداء المناسك بسمو روحي وفيض إلهي غامر، حتى ينتهي إلى السيطرة على أهواء نفسه ويمتلك زمام أموره فلا يجمح به هواه، ولا ينساق وراء شهواته.

وإلى جانب شعور الحاج بالسعادة الغامرة لحالة القرب هذه، يصاحبه ندم على ما فات وولى من أيام حياته وهنا تأتي العزيمة وإرادة التغيير على المستوى الفردي، فإذا بالتربية الروحية التي يتعرض لها الحاج أثناء أداء مناسكه – باعتبارها ثمرة الحج الكبرى- تتحول من عالم «الإرادة» إلى عالم «الفعل». كما تتحول أيضا من عالم «المثال» إلى «الواقع»، وإذا بانعكاسات الحج المبرور تملأ حياة الحاج فيزداد بعده خيرا، وينال به الجزاء الأوفى: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

وكما يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي؛ فإن ما يميز الحج عن غيره من ضروب العبادات أنه من بين أركان الإسلام ومبانيه هو عبادة العمر، وختام الأمر، وتمام الإسلام، وكمال الدين، فيه أنزل اللّه عز وجل قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾. (المائدة: ٣) وفيه قال ﷺ: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا، وإن شاء نصرانيا».[١]

وهكذا كان الحج، ولا يزال، دعامة قوية من دعائم الإسلام، وفريضة من أعظم فرائض الدين، وقربة من أحسن القربات إلى اللّه عز وجل ، حيث تجلت فيه أيضا بقية أركان الإسلام، فالحاج لا يفتر عن ذكر اللّه عز وجل:

١- المصدر نفسه، ص ١٨.

ملبيا ومهللا ومكبرا، ومؤديا للصلاة المفروضة، ومنفقا من ماله الخاص في سبيل الله، وممنوعا في إحرامه عن فعل كثير من المباحات، وذلك كله مصداقا لأمر الله عز وجل: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾.(الحج: ٢٨) فالمشهور عند العلماء أن العبادات ثلاثة أنواع: بدنية محضة، وهي الصلاة والصوم، ومالية محضة وهي الزكاة، ومركبة منهما وهي الحج.

ومما يدل على اشتمال فريضة الحج الفرائضَ الأخرى، أن لفظة «الحج» العربية تعد من أدق الألفاظ التي تتسع لكل معنى في توجيه الإنسانية نحو مركزها، ومهما قلبنا الألفاظ فلن نجد ما يسد مسدها ولا ما يغني غناءها في الإشارة إلى التفات الإنسانية التفافَ الدائرة حول المركز الثابت لها.

ليس غريبا إذن، والحال هذه، أن يرى البعض في الحج عبادة جامعة للعبادات كافة: فالصلاة، وهي فريضة تتكرر خمس مرات في اليوم الواحد، تعد بمثابة حج أصغر بين كل بضع ساعات تنتزع فيه الإنسانية نفسها من مشاكلها ومنازعاتها وشهواتها بحيث تُقبل على الله طاهرة مستسلمة خاضعة متوجهة إلى الله، فكأن الصلاة خروج من هذا العالم المادي خمس مرات في اليوم والليلة لاتكاد النفس ترجع إلى عالمها ساعات حتى تخرج منه في لحظات روحية سامية.

والزكاة في حقيقتها حج مبارك مبرور تحج فيه الأموال من الأغنياء إلى الفقراء ، ومن عجيب أمر هذا الحج المالي أن كل ما ينفق في سبيله من أموال يعود ثانية إلى أربابه؛ وذلك لأن انتقال المال إلى الفقراء والمحتاجين –وهم سواد الشعب– كفيل بإصلاح شؤونهم ورفع مستوى معيشتهم فتتطهر نفوسهم من أدران الاجتماع ويزول ما في صدورهم من أحقاد وعداوات. ومتى أصبحت نفوسهم راضية ومتيقنة من عطف الأغنياء عليهم صاروا أميل إلى التعاون معهم، فتنتظم الحياة ويسير دولاب الأعمال

باطراد فيفيد أرباب الأموال بقدر ما يفيد من دونهم.

وفي الإسلام الصيام شهرا كاملا يعد بمثابة حج النفس مدة هذا الشهر إلى روحانيتها ورحيلها عن عالم الباطل رحيلا يوميا لكسر الشهوات والخروج من حكم المعدة. ثم يأتي الحج وهو الفريضة الكبرى المتممة لكل هذه العبادات ليكون بمثابة انتزاع الإنسان نفسه من إقليمه وتجرده للحركة العليا ومجاهدته لما يمسكه في أرضه وخروجه إلى الله عز وجل.[1]

ونتيجة لذلك؛ فإننا نرى في هذه الفرائض كلها توسعا منتظما مطردا في الحقيقة النفسية الإنسانية العامة يفرضه الإسلام بطريق عملي واقع محقق لابطريقة تعليمية خيالية تقتصر على كتبها التي تذكر فيها، وهذا سر كون الإسلام دين الإنسانية العام لأنه قائم على اعتبار الإنسانية كلها وحدة متماسكة لا تتجزأ ثم على إيجاد العلاقة الثابتة المنتظمة بين أجزاء هذه الوحدة، ومتى وجدت العلاقة بين المتفرقين أمكن وجود التشابه بينهم، ومتى وجد التشابه تحققت الوحدة الإنسانية فيما بينهم.

والواقع أن الحج فريضة جامعة لأنه يضم أركان الإسلام جميعا: الشهادة باعتباره يقوم على توحيد الله واتباع سنة نبيه في أقواله وأفعاله، والصلاة التي تعدل في ثوابها وقيمة كل واحدة منها ألف صلاة في غير المسجد الحرام. ومن أعمال الحج أيضا الزكاة بمعناها العام، والصيام تطوعا أو فدية لمن عجز عن أداء بعض شعائر الحج، أو فاته شيء منها، أو أتى بعضا من المحظورات.

وبالتالي، فإن هذا الركن إذا ما أتمه العبد بوعي وإدراك لما فيه من مناسك لفظية وعملية والتزاما بعد الحج بمقتضيات هذه المناسك إلى

١- رسالة الحج، فلسفته وأسراره، وهي عبارة عن رسالة أنشأها ديبلوماسي مصري رمز لاسمه بحرفي ح.ع، وقد صدر طبعتها الثانية بتقاريظ بأقلام قادة الفكر في العالم الإسلامي وفي مقدمتهم الشيخ المراغي، ومحمد إقبال، وحافظ وهبه، ومحمد بهجة الأثري وغيرهم، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الكوثر، ١٩٤١م)، ص ٤٨-٤٩.

أن يموت كان ذلك حجة له بمقتضاها يدخله ربه الجنة، «وبنظرة تأملية يستطيع الحاج أن يدرك تمام الإدراك أن مناسك الحج تعتبر مواثيق واجبة التنفيذ مع الله كتعبد ومع الناس كسلوك في أحواله معهم».[١]

في مقابل ذلك؛ فإنه متى جُهلت حكمة العمل العظيم أصبح صغيرا، إذ يُؤدى بغير روحه ويُقصد به غير وجهه، فينزل إلى درجة الأعمال العادية فتقل فائدته أو تنعدم، وينصرف عنه أكثر الخلق، ويصبح مثله مثل الجيش المجتمع بغير فكرة مقصودة وبغير روح باعثة وبغير دوافع نفسية عالية. ويخشى أن يقع مثل هذا لبعض من يقصد الحج من المسلمين ، حيث يجتمع جيش عظيم ليس كل أفراده إلا الروح الفردية المجردة، بحيث لا هَمَّ للحاج إلا أن يذهب ليؤدي المناسك ثم يعود. ومن تأثير هذه الروح الفردية عاد الحج أشبه برواية لا حكمة فيها ولا طائل تحتها، مع أن الحج أعظم مؤتمر سياسي واجتماعي يقام كل عام على وجه الأرض ويراد منه حياطة الإسلام حياطة عملية دقيقة بوسائل منظمة غاية التنظيم لم تصل إليها عصبة الأمم بعد، ولا اهتدت إليها القوانين، ولا جاءت بمثلها فنون التربية الاجتماعية.

ومما له دلالة في هذا السياق، إتباع آيات الحج بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١)، حيث تم التأكيد على كون الحج طريقا لاعتصام الأمة ووحدتها ومضيها على هدي الصراط المستقيم الذي لا هدي بعده. وفي تفسير هذه الآية يقول ابن عطاء الله: «إن من افتقر إلى الله تعالى من جميع ما سوى الله، فقد فُتِحَ له الطريق إلى الحج وهو أقوم الطرق (الموصلة إلى الاعتصام والهداية والصراط المستقيم)».[٢]

١- تأملات مسلم في جوهر العبادة، ٥٤-٥٥.

٢- تفسير أبي العباس، ٤٣.

فالحج إذن صورته وسيرته، روحه وقالبه، ظاهره وباطنه، قوله وعمله، تلبيته وطوافه، وقوفه ودعاؤه، عبراته وزفراته، سعيه وعدوه، تفله وشعثه، عجه وثجه (العج رفع الصوت بالتلبية، والثج نحر البدن)، سهر لياليه ورمي جماره، كل حركة وسكون فيه، ليس إلا مثالا صحيحا وصورة صادقة واضحة لمن أراد السعادة في الدنيا والآخرة، مصداقا لقوله ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».(أخرجه الستة إلا أبو داود) فالحج نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى على عباده وسببا دعاهم فيه إلى تجديد العهد معه، وعقد النية والعزم الأكيد من جديد على توحيده والخوف منه والرجاء والطمع فيما عنده وابتغاء مرضاته والتوبة والرجوع إليه في السراء والضراء وحين البأس.[1]

أما بيت الله الحرام؛ فيرمز إلى أنه البيت الإلهي العالمي الذي خطته يد النبوة في بقعة مباركة من الأرض ليكون قبلة للإنسانية جمعاء في مختلف عصورها، كأنه تعيين لمركز هذه الدائرة المترامية بمحيطها الإنساني في الشرق والغرب والشمال والجنوب في آن معا. ومالم يعين للدائرة مركز معروف لاتتعين الدائرة نفسها بل تظل ذاهبة مع الفوضى في كل مذهب وفي غير مذهب. وإذا كان البيت هو نقطة المركز في الدائرة الإنسانية فإنه بمثابة القلب في البدن، وهو مركز العاطفة ودعامة الأخوة الإنسانية، وهو كل ما شئت من المعاني النبيلة التي يتعين القصد إليها، والحج هو القصد نفسه بمعناه اللغوي.

كما أنه يجسد الملاذ الآمن من كل خوف: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾(قريش: ٣-٤)، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(آل عمران: ٩٦-٩٧) يقول ابن عطاء الله في

١- الماوردي، كتاب الحج، ١/٢٠.

تفسير هذه الآية: «من دخله كان آمنا من عقابه. فلله تعالى في الدنيا ثواب وعقاب: فثوابه العافية، وعقابه البلاء. فالعافية أن يتولّى عليك أمرك، والبلاء أن يكلك إلى نفسك (فلا تهنأ طرفة عين)».[1]

ثانيا: قيمتا التجرد والمساواة.

الحج فريضة جماعية تستهدف تحقيق غايتين رئيستين:

أما الغاية الأولى؛ فهي تجريد الإنسان من كافة ما التصق به أو خالطه من مواريث فكرية أو اجتماعية ومن امتيازات طبقية أو جنسية تقطع الصلات الإنسانية بينه وبين المجتمع. وتبعا لذلك؛ يأتي الحاج متجردا من كل زينة أو إشارة في لباس متواضع يتساوى فيه الجميع، كما يجيئ متجردا كذلك من جاهه وسلطانه، من عصبيته وطبقته، نكرة بين الملايين .في الحج يترك الحجاج دنيا الناس على الحدود بكل ما فيها من المنازعات والخلافات بحيث لا يدخل في تلك البقعة المقدسة من الإنسان إلا الإنسان نفسه في أجلى مظاهر إنسانيته وأجملها وأتمها.

وهو يجيء متجردا أيضا- أو بالأحرى متحررا- من أغلال العبودية والفقر؛ فلا يرى للغني المدلّ بغناه، ولا للجبار المعتز بسطوته، ولا للأبيض المستعلي بلونه، لا يرى لكل أولئك فضلا ولا امتيازا سوى المساواة! فعلى عكس الأديان والمذاهب الفلسفية الكبرى، جاء الإسلام ليجعل المساواة طريقة عملية قبل كل شيء ففرضها في العبادات لتتصل بالضمير الإنساني وتدخل في التركيب النفسي ثم تدرج بها في نظام عجيب من الأضيق إلى الأوسع بحيث جعلها ثابتة مستمرة لا يصح إيمان المرء إلا بها ولا يتم إلا بتمامها. فالمؤمنون متساوون بكلمة الإسلام الأولى وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهذه هي النواة الأولى المغروسة في الضمير العام.

١- تفسير أبي العباس، ٤٢.

ولذلك؛ كان تعدد أنواع العبادة في الإسلام غاية تتناسب مع تنوع فعالياته العملية والفكرية، حيث جاءت «متدرجة في الأخذ بيد الإنسان في مدارج الترقي الروحي ابتداء من الحد الأدنى الذي هو العبادات المفروضة على كل إنسان إلى مالا حد له من نوافل العبادات التي يقوم بها الإنسان تطوعا بحسب قدرته وإمكاناته بشرط ألا تخل بأعماله وواجباته المختلفة بالنسبة إلى نفسه وإلى أهله».[1] ولعل ذلك التوسط هو ما جعل القرآن الكريم يربط بين الأمر بالقسط، أي العدل، وضرب من ضروب العبادة حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.(الأعراف: ٢٩)

فالتجرد لمعنى العبادة الخالصة واضح في الحج بالإضافة إلى المعنى الاجتماعي الرائع الذي يعبر عنه وقوف الحجيج على صعيد واحد يوم عرفة. ومع ذلك، فإن هذه العبادة المتجردة الخالصة ليست منعزلة عن الحياة بل متصلة بها، وهو ما يفهم من قول الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾(الحج: ٢٨)، فشهود منافعهم يكتسب معنى عاما يمكن أن يتضمن جميع مصالح المسلمين كبيرها وصغيرها على السواء.

يتحصل مما سبق أن الحج يشتمل في معناه العام على معنيين عظيمين:

أولهما: معنى التجرد لعبادة الله وتحمل المشاق والتخلي عن كثير مما يعز على الإنسان أو مما ألفه واعتاد عليه من أهل وولد وجاه ومال...إلخ. ففي الإحرام يستشعر الحاج ما عليه من حرمات لله عز وجل، ليتأكد في قرارة نفسه أنه مدين لله بحرمات لا يصح له أن يتعداها، وفي الإحرام أيضا ما يُشْعِرُ النفسَ بالطاعة والولاء لله تعالى وكذلك ما يُشعرُها بشدة الخوف منه والحاجة إليه.

١- المبارك، نظام الإسلام، ١٨٩.

والواقع أن قيمة التجرد تعد من أبرز الدلالات الروحية لفريضة الحج، وهو ما عبر عنه الإمام جعفر الصادق بالقول: «إذا أردت الحج: فجرد قلبك للّه تعالى من قبل عزمك من كل شيء شاغل وحجب كل حاجب، وفوض أمورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكونك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، وودع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة أن تصير لك أعداءً ووبالا. ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة، ولا لأحد إلا بعصمة اللّه تعالى وتوفيقه. واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض اللّه تعالى وسنن نبيه، وما يجب عليك من الأدب، والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاء وإيثار الزاد على دوام الأوقات.

ثم اغتسل بماء التوبة الخالصة من الذنوب، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، واحرم عن كل شيء يمنعك عن ذكر اللّه تعالى ويحجبك عن طاعته. ولَبِّ بمعنى: إجابة صافية خالصة زاكية للّه تعالى في دعوتك لتمسكك بالعروة الوثقى. وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش، كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت. وهرول هرولة، فرًا من هواك، وتبرؤا من جميع حولك وقوتك. واخرج من غفلتك وزلاتك ببدنك بخروجك إلى منى، ولا تتمن ما لا يحل لك ولا تستحقه. واعترف بالخطأ بالعرفان، وجدد عهدك عند اللّه تعالى بوحدانيته. وتقرب إليه ، واتقه بمزدلفة. واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى، بصعودك إلى الجبل. واذبح الهوى والطمع عند الذبيحة. وارم الشهوات والخساسة والدناءة وأفعال الذميمة عند رمي الجمرات. واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك. وادخل في أمان اللّه تعالى وكنفه وستره وكلائه من متابعة مرادك بدخول الحرم. وزر البيت متحققا لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله وسلطانه. واستلم الحجر رضا

بقسمته، وخضوعًا لعظمته. وودع ما سواه بطواف الـوداع. وصف روحك وسرك للقاء اللّه تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا. وكن ذا مروّة من اللّه بغناء أوصافك عند المروة. واستقم على شروط حجتك ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك وأوجبته له يوم القيامة.

واعلم بأن اللّه لم يفترض الحج، ولم يخصه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧)، ولا شرع نبيه في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلا للاستعداد إلى الموت والقبر والبعث والقيامة وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحج من أولها إلى آخرها، لأولي الألباب وأولي النهى»[١]

على أن بعض الناس، في زمننا هذا، يتعذرون بعدم الاستطاعة، والواقع أن هذه الاستطاعة تتبع – بالدرجة الأولى- «حرارة الإيمان ارتفاعا وانخفاضا، والناس في الأغلب الأعم مستطيعون قادرون، ولكن الأمل في امتداد العمر، والانغماس في غمرات المادة، والاستغراق في شؤون الدنيا: يجعل الإنسان – وهو يستطيع- يمهل ويهمل حتى تنتهي به الحياة».[٢]

ثانيهما: أن في الحج تحققا بمعنى الإنسانية الواحدة ممثلة في هذه الجموع البشرية الهائلة على اختلاف أجناسها وتعدد ألوانها من دون تمييز بين أحد منهم، فهم يعلمون تمام العلم أن التفاوت في الدرجات عند اللّه تعالى، وأنها لا تترتب إلا على قدر التقوى في قلوبهم، وهو العليم بما في القلوب.

ثم تأتي الصلاة اليومية لتساوي بين الجميع في العمل والحركة والكلمة

١- عادل خير الدين، العالم الفكري للإمام جعفر الصادق، الطبعة الأولى، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٣م)، ص ١٧٣–١٧٤.

٢- أسرار العبادات في الإسلام، ١١١.

والمحاذاة ووضع الرؤوس إلى بعضها البعض يستوي في ذلك الفقراء والملوك...إلخ. ثم يأتي الصيام ليعبر عن المساواة التامة في الحرمان فيلحق أفقر الناس بأغناهم على السواء. وأخيرا يأتي الحج ليعبر عن المساواة الكبرى ونهاية الطريق وغاية الحكمة بل وغاية الغايات في هذا الباب بحيث لا يوجد له نظير في جميع الأديان ومختلف الشعائر والآداب والقوانين.

أما الغاية أو القيمة الثانية؛ فهي التوحيد، لأنه حين يتم التجريد ويتساوى الجميع يسهل على النفوس أن تتقبل معاني التوحيد فتتلاقى عليها تأخذ منها بقدر ما تعطي لا تستأثر ولا تحتكر لا تحقد ولا تحسد لا تضل ولا تشقى.[١] وفي ذلك تحقيق لمعنى الجهاد: جهاد الإنسان للإنسانية على إطلاقها وإعداده ليكون حربا على الشر: شر نفسه وشر غيره فينشأ على القوة، وصلابة العود، ومجاهدة الشهوات. ولذلك روي أن بعض العارفين حج، فلما فرغ من شأن الحج أحرم من الناس ولبى مرة أخرى!، فقيل له: يا هذا مضت أيام الحج، فما هذا؟ فقال: أحرمتُ أولا، من الوطن إلى البيت، الآن أحرمت من البيت إلى صاحب البيت![٢]

فمن يرى الحجيج في يوم عرفة وقد تزيوا جميعا بزي واحد، وانتظموا انتظاما واحدا، واتجهوا وجهة واحدة، وتحركوا بفكرة واحدة، وتركوا الدنيا بزائف متاعها وراءهم، وحملوا أنفسهم إلى الله وحده، ثم أقبلوا جميعا يلبون بكلمات سماوية روحانية طاهرة، رأى في الحقيقة منظرا رائعا لا تظفر بمثله الدنيا إلا في ذلك المكان، وعاين مشهدا يكاد يقترب من صورة الجيش الذي يمكن أن يسمى بحق «جيش الخلاص»! ورأى أخيرا، وليس آخرا، مبدأ الجهاد الإسلامي واضحا كل الوضوح في أسمى معانيه وأدق اعتباراته.

١- كامل حته، القيم الدينية والمجتمع، ١١٥-١١٦.

٢- كتاب القصد إلى الله، ٨٥.

وعند هذا الحد تقر في نفس الحجيج فكرة التضحية حتى بالأهل والمال في سبيل تحقيق أمنية غالية، بحيث يتجردون من قوانين الحياة العادية مستبدلين إياها بقوانين إلهية تحرم الرفث والفسوق والعصيان، وهذه الأمور وإن كانت محرمة على الدوام إلا أنها في أوقات الحج أشد حرمة وأكبر كبيرة عند الله. فما أن يلبس الحاج ملابس الإحرام حتى يشعر بأن الإحرام قد غير أحواله، وأنه بإحرامه هذا يعيش أيام الحج في حالة تعبدية استجابة لدعوة الله، ومن هنا تأتي التلبية لتكون إقرارا منه بوحدانية الخالق عز وجل، وليتجدد معها الإيمان بأن الحج قد فُرِضَ ليكون فرصة لتجديد العهد مع الله سبحانه وتعالى، بما أن العبودية «جامعة لأربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود».[1]

وإلى جانب ما سبق؛ يشتمل الحج على العديد من المنافع الثقافية والاقتصادية والاجتماعية إلى جانب منافعه الروحية الخلقية، وليس أدل على ذلك من تقديم «شهود المنافع» في حكمة الحج على «ذكر اسم الله» بحسب ما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾. (الحج: ٢٧-٢٨)

ففي هذه الآية إشارة صريحة على أن الحج عمل إنساني للإنسانية قبل أن يكون عبادة من العبادات أو الشعائر الدينية، فالعبادة أداء لفريضة فردية على حين أن «شهود المنافع» أداء لفريضة اجتماعية يقوم عليها إصلاح الجماعات الإنسانية. أما الطواف ففيه تذكير بضرورة أن يكون كل سعي مقصودا لذات الله، فمن الناس من يكون طوافه الدنيوي غير مقيد بشريعة الله، فيحقق من وراء طوافه هذا معصية الخالق، على حين أن الذي يقيد طوافه وسعيه في الأرض بما يتحقق من ورائهما من منفعة مشروعة وطاعة

١- تفسير أبي العباس، ٤٥.

معلومة؛ يدخل طوافه هذا في باب «العبادة» و «الطاعة» للمولى سبحانه وتعالى.

ثالثا: الحج بوصفه جهادا.

إلى جانب اشتمال فريضة الحج على الأركان الأربعة (النطق بالشهادة، والصلاة، والزكاة، والصوم)؛ يتضمن الحج في جوهره أيضا «فريضة الجهاد» بحكم كونه تلبية للنداء الإلهي بالتجرد والتجمع في الأراضي المقدسة. فمن أهم القيم الروحية التي تتضمنها شعيرة الحج، قيمة الانضباط حيث يسير الحاج منذ بداية إحرامه وحتى الرجوع من حجه بحسب خطة سير محكمة يتجلى فيها روح الجهاد في الحج في سبيل الله عز وجل، فبعد أن يعود الحجاج من سهل عرفات يقيمون أثناء ذلك في ثلاثة أماكن مختلفة (هي عرفات، والمزدلفة، ومنى) بحيث يتركون معسكرا نحو آخر ثم يسيرون من هذا ليقيموا خيامهم في مكان ثالث وهكذا.

أما رمي الجمرات؛ فيشتمل بدوره على قيم روحية سامية في مقدمتها أن العامود الحجري المستطيل الذي يُرمز به للشيطان يعد أساسا رمزا دقيقا تتمثل فيه النفس عداوتها للشر ورجمه وبراءتها منه ونبذه ومجاهرتها بعداوته إحسانا وعملا. كما أن فيه حكمة أخرى تتعلق بالجهاد الذي هو سر أسرار الحج، وهذه الحكمة هي أن تلك اليد المؤمنة التي تباشر عمل الرمي على مرأى ومسمع من الخلق يجب أن تكون يدا ممرنة على أساليب إنكار الشر وقيم الضلال.

ولعل ذلك هو ما قصده الإمام أحمد بن قدامة المقدسي حين قال: «اعلم أن لا وصول إلى الله، سبحانه وتعالى، إلا بالتجرد والانفراد لخدمته، وقد كان الرهبان ينفردون في الجبال طلبًا للأنس بالله، فجعل الحج رهبانية لهذه الأمة (...) واعلم أن في كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر. فمن ذلك: أن يتذكّر بتحصيل الزاد، زاد الآخرة من

الأعمال، وليحذر أن تكون أعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر، فيبقى صاحبه وقت الحاجة متحيرًا، فإذا فارق وطنه ودخل البادية وشهد تلك العقبات، فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال.

ومن ذلك: أن يتذكر وقت إحرامه وتجرده من ثيابه، إذا لبسَ المُحرمُ الإحرامَ لبس كفنه، وأنه سيلقى ربه على زي مخالف لزي أهل الدنيا، وإذ لبى فليستحضر بتلبيته إجابة الله تعالى إذ قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ (الحج: ٢٧)، وليَرْجُ القبول، وليَخْشَ عدم الإجابة، وكذلك إذا وصل إلى الحرم ينبغي أن يرجو الأمن من العقوبة، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القرب، غير أنه ينبغي أن يكون الرجاء غالبًا، لأن الكرم عميم، وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير لا يضيع.

ومن ذلك: إذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته في قلبه، وشكر الله تعالى على تبليغه رتبة الوافدين إليه، وليستشعر عظمة الطواف به، فإنه صلاة، ويعتقد عند استلام الحجر أنه مبايع لله على طاعته، ويضم إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعة، وليتذكر بالتعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم لجوء المذنب إلى سيده، وقرب المحب.

ومن ذلك: إذا سعى بين الصفا والمروة، ينبغي أن يمثلها بكفتي الميزان، وتردده بينهما في عرصات القيامة، أو تردد العبد إلى باب دار الملك، إظهارًا لخلوص خدمته، ورجاء الملاحظة بعين رحمته، وطمعًا في قضاء حاجته.

وأما الوقوف بعرفة: فاذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق، وارتفاع أصواتهم واختلاف لغاتهم موقف القيامة، واجتماع الأمم في ذلك الموطن، واستشفاعهم. فإذا رميت الجمار: فاقصد بذلك الانقياد للأمر، وإظهار

الرق والعبودية، ومجرد الامتثال من غير حظ النفس.

وأما المدينة: فإذا لاحت لك فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه ﷺ وشرع إليها هجرته، وجعل فيها بيته، ثم مثّل في نفسك مواضع أقدام رسول الله ﷺ عند تردده فيها، وتصور خشوعه وسكينته، فإذا قصدت زيارة القبر، فأحضر قلبك لتعظيمه، والهيبة له، ومثّل صورته الكريمة في خيالك، واستحضر عظيم مرتبته في قلبك، ثم سلم عليه واعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك».[1]

وفي السياق ذاته؛ يصفُ الإمام علي الحج بأنه: «جهادُ كلّ ضعيف».[2] أما الحكيم الترمذي؛ فيقول فيه: «الحج: هو ميل إلى موضع مأمول هناك، رحمته، طالبًا لمعروفه، راجيا لغفرانه والنجاة من عقوبته، متعوذًا بالبقعة التي شرفها على سائر البقاع».[3]

والواقع أن التلبية تحتل مكانة كبرى في شعيرة الحج بالذات؛ إذ تعني في جوهرها: الاستجابة لله، بنفي الشريك عنه، سبحانه، وقصر الحمد عليه، والإقرار بأن ما بنا من نعمة فمن الله، وحده لا شريك له. وتبعا لذلك؛ ينبغي على المؤمن أن تكون التلبية «شعاره الدائم، وسنته المستقرة، (في حله وترحاله)، ينطق بها إذا صعد، وينطق بها إذا هبط، وينطق بها إذا ركب، وينطق بها إذا نزل: إنها ذكره في كل لحظة، فتصبح بذلك يقينا تاما»[4] ونورا دائما، وظلا مصاحبا، وأنيسا ذاكرا، وقلبا خاشعا: فلا يخاف إنسانا، ولا يرضى هوانا، ولا ينصر ظالما، ولا يقهر يتيما، ولا ينهر سائلا...إلخ.

١- ابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، قدم له وضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي حسن علي عبد الحميد، الطبعة الثانية، (عمّان: دار عمّار، القصيم: مكتبة الذهبي، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م)، ص ٦٣ – ٦٤.

٢- نهج البلاغة، ٤/٣٤.

٣- الترمذي، الصلاة ومقاصدها، ٧٩.

٤- أسرار العبادات في الإسلام، ١١٦.

ولعل ذلك هو ما دفع حجة الإسلام لأن يؤكد: «أن أول الحج الفهم، أعني فهم موقع الحج في الدين، ثم العزم عليه، ثم قطع العلائق المانعة منه، ثم شراء ثوب الإحرام، ثم شراء الزاد، ثم اكتراء الراحلة، ثم الخروج، ثم المسير في البادية، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية، ثم دخول مكة، ثم استتمام الأفعال كما سبق. وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر، وتنبيه للمريد الصادق، وتعريف وإشارة للفطن».[1]

ثم يوضح معنى هذه الأمور بالقول: «أما الفهم: فاعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات (...) والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات (...) وأما الشوق: فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل، وأنه وضع على مثال حضرة الملوك، فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له (...) فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة.

وأما العزم: فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن (...) وأنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره، وأن من طلب عظيمًا خاطر بعظيم، وليجعل عزمه خالصًا لوجه الله سبحانه بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة (...) وأما قطع العلائق: فمعناه رد المظالم، والتوبة الخالصة لله تعالى، عن جملة المعاصي (...) وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة، فإن ذلك بين يديه على القرب، وما يقدمه من هذا السفر طمع في تيسير ذلك السفر.

وأما الزاد: فليطلبه من موضع حلال (...) وأما الراحلة: إذا أحضرها فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيرها له(...) وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنازة التي يُحمل عليها (...) فكيف يحتاط في أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن؟

١- أسرار الحج، ١٣٨.

وأما شراء ثوب الإحرام : فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه (...) وأما الخروج من البلد: فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجهًا إلى الله عز وجل في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا (...) وأما الإحرام والتلبية من الميقات: فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل، فارج أن تكون مقبولا، واخش أن يقال لك: لا لبيك ولا سعديك. فكن بين الرجاء والخوف مترددا، وعن حولك وقوتك متبرئا، وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلا، فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهي محل الخطر».[1]

ويتابع الغزالي كلامه قائلا: وأما دخول مكة: فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل (...) وأما وقوع البصر على البيت: فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه.

وأما الطواف بالبيت: فاعلم أنه صلاة فاحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة. واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش (...) واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية، وإن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر، وهي عالم الملكوت (...) وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السماوات بإزاء الكعبة، فإن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت (...)....، وأما الاستلام: فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته.

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم: فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت، ورجاء للتحصن عن النار، في كل جزء من بدنك لا في البيت، (...) وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت: فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد

١- المصدر السابق، ١٣٨-١٤٦.

أخرى، إظهارًا للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة (...) وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردد بين كفتي الميزان في عرصات القيامة، وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات.

وأما الوقوف بعرفة: فاذكر بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات (...) عرصات القيامة، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة (...) وأما رمي الجمار: فاقصد به الانقياد للأمر إظهارًا للرق والعبودية، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه (...)

وأما ذبح الهدي: فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال، فأكمل الهدي وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءا منك من النار، فهكذا ورد الوعد، فكلما كان الهدي أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم.

وأما زيارة المدينة: (...) فمثِّل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند تردداته فيها، وأنه ما من موقع قدم تطؤه إلا هو موضع أقدامه العزيزة، فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل، وتذكر مشيه وتخطيه في سككها، وتصور خشوعه وسكينته في المشي، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى، حتى قرنه بذكر نفسه، وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته.

وأما زيارة رسول الله ﷺ: فينبغي أن تقف بين يديه (...) واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك. فمثِّل صورته الكريمة في خيالك موضوعا في اللحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقد روي عنه ﷺ «أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته». (أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم)

هذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقا إلى لقائه؟ (...) ثم ائت منبر الرسول ﷺ وتوهم صعوده المنبر، ومثل

في قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، وهو ﷺ يحثهم عل طاعة الله عز وجل بخطبته، وسل الله عز وجل أن لا يفرق في القيامة بينك وبينه. فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج».[1]

وختاما؛ يمكن القول إن ثمة ارتباطا واضحا ما بين معنى «الإفاضة» و«فيض رحمة الله »، فالإفاضة «مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاس» تأتي مقترنة بالاستغفار وطلب الرحمة ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (البقرة:١٩٩) وفيوضات رحمة الله مرتبطة بهذا المعنى، وكأن المولى عز وجل يخاطب عباده بالقول: «إذا عمرتم بواطنكم بذكري، واستفرغتم الوسع فيه، فارجعوا إلى ما رجع إليه العالم من القيام برسوم العبودية، واستغفروا الله تعالى عن اشتغالكم بغيره «إن الله غفور» للمطيعينَ تقصيرَهم في طاعتهم، «رحيم» بالعاصين، أي يردهم برحمته إلى بابه».[2]

١- إحياء علوم الدين، ١/٢٧٨-٢٧٩.

٢- تفسير أبي العباس بن عطاء، ٧٣-٨٣.

خاتمة

حاولنا منذ بداية الكتاب أن نلقي الضوء على أبرز معالم منظومة القيم الروحية في الإسلام، كما هي متجلية في الشعائر والعبادات. وقد كان همنا الأكبر منصرفا نحو محاولة إبراز الآداب العميقة للتكاليف الدينية وصولا إلى فهم أعمق لغائية الشعائر والعبادات في الإسلام. والواقع أن استكشافا أوليا لمنظومة القيم الروحية يقودنا مباشرة إلى نتيجة عامة مفادها: أن عماد هذه القيم إنما يتجسد في تحقق الوازع الديني العميق في نفس المسلم وتأصيله بحيث تقوى شخصيته: حسيا ونفسيا، دينيا ودنيويا، ماديا ومعنويا.

ذلك أن المتأمل في آيات الذكر الحكيم يلاحظ - ومن دون عناء يذكر- تنويها متناميا بشعبة من شعب الإيمان، ومهمة من مهمات النبوة الكريمة، يُعبّر عنها بلفظ «التزكية»، ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الأعظم صلوات الله وتسليماته عليه من أجل تحقيقها وتكميلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. (الجمعة: ٢)

وكما هو واضح للعيان؛ فإن هذه المهمة العظيمة تتعلق في الأساس بتزكية النفوس وتهذيبها، على النحو الذي تجلت به في أخلاق النبي ﷺ وصحابته الكرام. وهي المعبر عنها أيضا في لسان النبوة بدرجة «الإحسان» التي تفوق درجتي الإسلام والإيمان، ككيفية من كيفيات اليقين والاستحضار، يجب أن يعمل لها العاملون، ويجد في طلبها الطالبون، ويتنافس فيها المتنافسون، وجوهرها الحي الذي لا يموت: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لن تكن تراه فإنه يراك».

لا غرابة إذن؛ أن ترتبط مرتبة «الإحسان» هذه بمستوى العبادة على وجه الخصوص. ففيها بالذات يحدث أن يتحقق الإحسان في أبهى صوره

بتجسده في السلوك والمعاملات، وبتفاعل الكيفيات القلبية ومصاحبتها للأفعال والهيئات عند الأداء: فإذا بأفعال القيام والركوع والسجود مسبوقة بالإخلاص، ومشفوعة بالزهد والخضوع والخشوع والتبتل والابتهال، ومنتهية بإيثار الآخرة على العاجلة والشوق إلى لقاء الله، إلى غير ذلك من كيفيات قلبية وأخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد.

وبما أننا في أمس حاجة اليوم إلى تجديد العهد والميثاق مع الله؛ ومع الناس، فإن العبادات هي المجال الأرحب الذي تتجسد من خلاله مبادئ التزكية وآدابها الروحية لتنعكس آثارها الإيجابية في نهاية المطاف على سلوك الإنسان، ولتحكم علاقته مع نفسه أولا، ومع ربه ثانيا، ومع غيره من الناس ثالثا. فكما أن الإخلاص والحب يحييان موات الأعمال؛ فإن التمسك بالقيم الروحية تعيد الروحانية إلى العبادات، والنور إلى العلم، والبركة إلى المال، والقبول إلى الدعوة، والوحدة إلى الشعوب والجماعات.

وإذا كان معلوما أن الإنسان عادة ما يتمسك بالخير وخصال البر: لفائدة عاجلة يرجوها، أو لثواب آجل ينتظره، أو لضرر يريد دفعه عنه، أو لإعجاب وإيمان بالخلق الكريم بحد ذاته من دون انتظار ثواب عاجل (مدح الآخرين) أو آجل (دخول الجنة)؛ فإن الوازع الديني الصادق يحقق لصاحبه كل هذه المعاني مجتمعة.

فهو الذي يحدثه دائما بأن الدين المعاملة، وأن الخلق المستقيم يجلب لصاحبه سعادتي الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ۝ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾. (فصلت: ٣٠-٣٣).

لائحة المصادر والمراجع:

- ابن تيمية، **التحفة العراقية في الأعمال القلبية**، تحقيق: قصي محب الدين بن الخطيب، الطبعة الثانية، (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٣٩٩هـ).

- ابن تيمية: **العبودية**، قرأها وعلق عليها وخرج أحاديثها: أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان، (الإسكندرية: دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع٢٠٠٣م).

- ابن تيمية: **أمراض القلوب وشفاؤها**، حققه وعلق عليه: أحمد العيسوي، الطبعة الثانية، (طنطا: دار الصحابة للتراث، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

- ابن تيمية: **تزكية النفس**، دراسة وتحقيق: محمد بن سعيد القحطاني، الطبعة الثانية، (القاهرة: مكتبة السنة، ١٤١٦هـ).

- ابن تيمية: **جامع الرسائل**، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار العطاء، ١٤٢٢هـ).

- ابن تيمية: **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، (٣٧ مجلد)، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية،١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م).

- ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: محب الدين الخطيب، الطبعة الثالثة، (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٤٠٧هـ).

- ابن حجر الهيتمي: **إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام**، قدّم له وعلّق حواشيه: محمود النواوي، صححه وقابل الأصول: محمد الديوي، (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة: مطبعة الفجالة الجديدة، ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م).

- ابن رجب الحنبلي: **الذل والانكسار للعزيز الجبار أو الخشوع في الصلاة**، تحقيق

وتعليق ودراسة: طارق عاطف حجازي، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الرسالة، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٩م).

- ابن سيده: **كتاب المخصص**، الطبعة الأولى، (بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٠هـ).

- ابن عطاء الله الأدمي: **تفسير أبي العباس بن عطاء**، ضمن كتاب: نصوص صوفية غير منشورة، حققها وقدم لها بولس نويا اليسوعي، رقم ٧ من سلسلة «بحوث ودراسات»، (بيروت: معهد الآداب الشرقية، ١٩٨٦م).

- ابن قدامة المقدسي: **مختصر منهاج القاصدين**، قدم له وضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي حسن علي عبد الحميد، الطبعة الثانية، (عمّان: دار عمّار، القصيم: مكتبة الذهبي، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م).

- ابن قيم الجوزية: **مدارج السالكين في منازل «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين»**، ضبط وتحقيق: رضوان جامع رضوان، الطبعة الأولى، (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م).

- أبو الأعلى المودودي: **الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية**، (جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

- أبو الأعلى المودودي: **المصطلحات الأربعة في القرآن، الإله- الرب- العبادة- الدين**، تعريب محمد كاظم سباق، (الكويت: الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٥م).

- أبو حامد الغزالي: **أسرار الحج**، تحقيق وتعليق: موسى محمد علي، رقم ٢ من سلسلة «تراث الغزالي»، (القاهرة: دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م).

- الجنيد البغدادي: **رسائل الجنيد**، تحقيق جمال رجب سيدبي، تصدير عاطف العراقي، الطبعة الأولى، (دمشق: دار اقرأ، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م).

- الحكيم الترمذي: **أدب النفس**، تحقيق وتعليق: أحمد عبد الرحيم السايح، الطبعة الأولى، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م).

- الحكيم الترمذي: **الصلاة ومقاصدها** للحكيم أبي عبد الله الترمذي، تحقيق حسني نصر زيدان، تقديم: عبد الحليم محمود، (القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي، ١٩٦٥م).

- الحكيم الترمذي: **أسرار مجاهدة النفس**، وهما الكتابان المسميان بالرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي، دراسة وتحقيق: إبراهيم الجمل، (القاهرة: دار المشرق العربي، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

- الخرائطي: **مكارم الأخلاق ومعاليها**، تحقيق ودراسة سعاد سليمان الخندقاوي، تقديم موسى شاهين لاشين، مراجعة محمد رشاد خليفة، الطبعة الأولى، (القاهرة: مطبعة المدني، ١٤١١ هـ- ١٩٩١م).

- سعيد حوَّى: **الأساس في السنة وفقهها**، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).

- السيد صالح أبو بكر: **تأملات مسلم في جوهر العبادات في الإسلام**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م).

- سيد قطب: **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، الطبعة الخامسة عشر، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٣٣هـ- ٢٠٠٢م).

- سيد قطب: **في ظلال القرآن**، الطبعة الأولى، (٦ أجزاء)، (القاهرة: دار الشروق،١٩٧٢م).

- سيد قطب: **مقومات التصور الإسلامي**، الطبعة الخامسة، (القاهرة: دار الشروق، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

- الشعراني: **أسرار أركان الإسلام**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٠م).

- الطوسي: **اللمع**، حققه وقدم له وخرج أحاديثه: الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، بغداد: مكتبة المثنى، ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م).

- عبد الحليم محمود: **أسْرارُ العبادات في الإسلام**، رقم ١٤٨ من سلسلة المكتبة الثقافية، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م).

- العز بن عبد السلام: **زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز**، حققه وقدّم له: محمد السيد أبو زيد، (طنطا: مكتبة تاج، القاهرة: مكتبة الفجر الجديد، ٢٠٠٦م).

-أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**، (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٨هـ- ١٩٣٩م).

- المحاسبي: **الرعاية لحقوق الله**، تحقيق: عبد الرحمن عبد الحميد البر، الطبعة الأولى، (المنصورة: دار اليقين، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م).

- المحاسبي: **كتاب القصد والرجوع إلى الله**، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م).

- محمد أسد: **الإسلام على مفترق الطرق**، نقله إلى العربية: عمر فروخ، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥١م).

- محمد الغزالي: **هذا ديننا**، الطبعة الخامسة، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م).

- محمّد المبارك: **نظام الإسلام: العقيدة والعبادة**، الطبعة الرابعة، (بيروت: دار الفكر،١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م).

- محمد أمين الكردي: **تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب**، خرّج أحاديثه وحرّر بعض أحكامه وزاد بعض أبواب الفقه وغيره: الشيخ نجم الدين الكردي، حققه وعلق عليه وشرح عباراته وقدم له: محمد نجم الدين الكردي، الطبعة الأولى، (القاهرة: المكتبة الكردية، ٢٠١٠م).

- محمد بن نصر المروزي: **تعظيم قدر الصلاة- ومعه الثمار المحلاة في تخريج أحاديث تعظيم الصلاة**، خرجه وحققه: أبو مالك كمال بن السيد سالم، (القاهرة: مكتبة العلم، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م).

- محمد عبد الله الخطيب: **العبادة في الإسلام**، **جوهرها وآفاقها**، رقم ٧ من سلسلة نحو النور، (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٨٩م).

- محمد عبده: **الأعمال الكاملة**، تحقيق وتقديم: محمد عمارة، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشروق، الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م).

- محمد فؤاد عبد الباقي: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م).

- محمود شلتوت: **من توجيهات الإسلام**، تقديم محمد البهي، الطبعة الثانية، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٠م).

- محمود علي قراعة: **الأخلاق في الإسلام من أحاديث الرسول ومن فتاوى ابن تيمية**، الحلقة ١٨ من سلسلة الروح الجامعية، (القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٦٤م).

- المنذري: **الترغيب والترهيب**، تحقيق محمد السيد، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الفجر للتراث، ١٤٢١هـ).

- هنري برجسون: **منبعا الأخلاق والدين**، ضمن: الأعمال الفلسفية الكاملة، ترجمة: سامي الدروبي، وعبد الله الدائم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٦م).

- يوسف القرضاوي: **العبادة في الإسلام**، الطبعة الرابعة والعشرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م).

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

________________ د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

________________ د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

________________ د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

________________ الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

________________ الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

________________ د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

________________ فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

________________ د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

________________ د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري ________________

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة ________________

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي ________________

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود ________________

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ.د سمير عبد الحميد نوح ________________

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني ________________

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي ________________

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني ________________

د. محمد إقبال عروي ________________

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف ________________

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

———————— أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

———————— الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

———————— د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

———————— أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

———————— د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

———————— د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

———————— د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

———————— أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

———————— د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

________________ د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

________________ د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

________________ د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

________________ أ.د. موسى العرباني

________________ د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

________________ الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

________________ د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

________________ د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكمة (ديوان شعري).

________________ الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

________________ د. فاطمة خديد

٤٦- في ميـــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

نـهــر متعــدد.. مـتـجــدد

هــذا الكتــاب

حاولنا منذ بداية الكتاب أن نلقي الضوء على أبرز معالم منظومة القيم الروحية في الإسلام ، كما هي متجلية في الشعائر والعبادات. وقد كان همنا الأكبر منصرفا نحو محاولة إبراز الآداب العميقة للتكاليف الدينية وصولا إلى فهم أعمق لغائية الشعائر والعبادات في الإسلام. والواقع أن استكشافا أوليا لمنظومة القيم الروحية يقودنا مباشرة إلى نتيجة عامة مفادها أن عماد هذه القيم إنما يتجسد في تحقق الوازع الديني العميق في نفس المسلم وتأصيله بحيث تقوى شخصيته: حسيا ونفسيا، دينيا ودنيويا، ماديا ومعنويا.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa